الكتاب الأول

1

موسوعة التحليل المضموني للقرآن الكريم

في ضوء

المشروع العمراني الاستخلافي السنني

رؤية قرآنية لبناء الإنسان والمجتمع والحضارة وفق سنن الله في الاستخلاف



تأسيس الرؤية الكلية للاستخلاف

(الفاتحة - يونس)

تأسيس الرؤية الكونية والإنسانية
والمنهجية للاستخلاف في الأرض
وبناء الإنسان والمجتمع
وفق سنن الله

إعداد

بروفسور / طارق الصادق عبد السلام

أستاذ علم الاجتماع والتأصيل الاسلامي للعلوم

موسوعة التحليل المضموني لسور القرآن العظيم في ضوء النظام المعرفي القرآني

"تطبيقات النسق العمراني الاستخلافي السنني على سور القرآن العظيم"

اولا: المقدمة:

تأتي هذه الدراسة بوصفها استكمالًا للوثيقة التأسيسية الموسومة «الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني: نحو بناء مدرسة معرفية قرآنية لإنتاج العلوم الإنسانية وتجديد الفكر الحضاري»، والتي قدمت الرؤية الكلية للمشروع، وحددت منطلقاته المعرفية، وأصوله المنهجية، وآفاقه في بناء علوم إنسانية تستمد أصولها من النظام المعرفي للقرآن الكريم.

وإذا كانت الوثيقة التأسيسية قد انصرفت إلى بيان الأسس الفكرية والمنهجية للمشروع المعرفي القرآني، فإن هذه الدراسة تمثل أولى محاولات تنزيل تلك الأسس على مستوى التطبيق؛ إذ تسعى إلى بناء منهج عملي لتحليل المضمون القرآني، يترجم المبادئ النظرية إلى إجراءات تحليلية تمكن الباحث من استكشاف البنية المعرفية والعمرانية والسننية للنص القرآني، وتوظيفها في إنتاج المعرفة الإنسانية.

وتعتمد الدراسة منهج تحليل المضمون القرآني في ضوء النظام المعرفي القرآني، ومُفعِّلةً للنسق العمراني الاستخلافي السنني بوصفه أحد النماذج التطبيقية المنبثقة عن هذا النظام، وذلك من خلال قراءة سور القرآن الكريم قراءة تحليلية تستهدف الكشف عن السنن الإلهية، والقواعد العمرانية، والظواهر الاجتماعية، والعلاقات البنيوية التي تنتظم الخطاب القرآني، بما يبرز وحدة بنائه المعرفي وتكامله.

وتبدأ الدراسة بسورة الفاتحة بوصفها ليست مجرد مقدمة للمصحف، بل هي المصفوفة المعرفية (Knowledge Matrix)أو الخريطة المرجعية التي تنبثق منها بقية السور، ثم ننتقل الى سورة البقرة بوصفها نموذجًا تطبيقيًا؛ لما تتضمنه من ثراء معرفي وتشريعي واجتماعي وعمراني، حيث تُحلَّل الآيات ذات الصلة بالسنن والقوانين العمرانية، ثم يمتد التطبيق تدريجيًا إلى بقية سور القرآن الكريم وفق المنهج نفسه. كما لا يقتصر التحليل على القراءة السُّورية، بل يستفيد كذلك من التحليل الموضوعي، وذلك بتتبع القضية أو الظاهرة الواحدة عبر سور

القرآن الكريم كلما اقتضت طبيعة البحث ذلك، تحقيقًا للتكامل بين الوحدة السُّورية والوحدة الموضوعية، وإبراز الترابط المعرفي الذي يميز البناء القرآني.

ولا تستهدف هذه الدراسة تقديم تطبيق جزئي على سورة من سور القرآن الكريم فحسب، بل تهدف الى بناء مشروع علمي موسوعي يهدف إلى إنجاز تحليل مضموني شامل للقرآن الكريم في ضوء النظام المعرفي القرآني، وبناء مدونة علمية تكشف عن الأنساق المعرفية والسننية والعمرانية التي يتضمنها الوحي، وتؤسس لمنهج قرآني أصيل في إنتاج المعرفة الإنسانية.

ومن ثم فإن هذه الدراسة تُعد بداية لمسار بحثي متكامل، يخضع للتطوير المستمر، ويستوعب النقد العلمي، ويهدف إلى إرساء قواعد مدرسة معرفية قرآنية تمتلك أدواتها المنهجية وإجراءاتها التطبيقية، وتسهم في تجديد الدراسات القرآنية والعلوم الإنسانية على السواء، النظام المعرفي القرآني هنا هو المرجعية العليا، والنسق العمراني الاستخلافي السنني هو أحد النماذج التطبيقية المنبثقة عنه لذا نجد تكرارهم بشكل تبادل احيانا.

ثانياً: منهج الدراسة:

سوف نبني المشروع على منهج جديد يمكن أن نسميه:

منهج التحليل المضموني الاستخلافي العمراني السنني للقرآن الكريم

ونعرفه بأنه:

منهج علمي يهدف إلى الكشف عن البنى المعرفية والسننية والعمرانية في الخطاب القرآني، من خلال تحليل وحداته الموضوعية، وتصنيف مضامينه، وربطها بالنسق الاستخلافي، وصولًا إلى بناء نماذج تفسيرية للعمران الإنساني.

والمنهج الذي سنتبعه في هذه الدراسة ليس مجرد تحليل مضمون بالمعنى المتداول في الدراسات القرآنية او الاجتماعية، وإنما هو منهجًا جديدًا يجمع بين تحليل المضمون، والتحليل النسقي، وإعادة البناء المعرفي، واستنباط النظرية العلمية.

وقد تطورت لبنات هذا المنهج منذ عملنا في مرضع الضبط الاجتماعي في الاسلام في التسعينات ثم العمل في الاصول المنهجية لمناهج البحث بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي الذي بدا ببحث صغير عن المؤشرات المنهجية في القرآن الكريم، ثم بدأت بعض جوانبه تتبلور رويدا رويدا.

وطبيعة هذه الدراسة فرضت تطوير هذا المنهج، واضافة أدوات تحليلية لأن الأدوات التقليدية على أهميتها، لا تفي بالغرض في دراسة القرآن الكريم بوصفه نظامًا معرفيًا كليًا ومنتجًا للعلوم، لأنها غالبًا ما تقف عند حدود الوصف، أو التصنيف الموضوعي، أو التفسير الجزئي للنصوص، دون أن تنفذ إلى البنية المعرفية الكلية التي تنتظمها، أو تكشف العلاقات النسقية التي تربط بين مفاهيمها وسننها ومقاصدها.

وانطلاقًا من ذلك، ابتكرنا منهجًا أطلقنا عليه:

"منهج تحليل المضمون القرآني الاستخلافي العمراني السنني في ضوء النظام المعرفي القرآني"

وهو منهج يجمع بين أدوات تحليل المضمون، والتحليل النسقي، والاستقراء السنني، وإعادة البناء النظري، بقصد الانتقال من قراءة النصوص إلى بناء النموذج المعرفي القرآني، ومن استخراج المفاهيم إلى إنتاج النظرية.

ويتميز هذا المنهج بأنه لا يتعامل مع القرآن الكريم باعتباره موضوعًا للدراسة فحسب، وإنما باعتباره المرجعية المؤسسة للمعرفة، والموجهة لمنهج البحث، والحاكمة لآليات الاستنباط والتحليل.

ومن ثم فإننا لا نكتفي بتحليل المضمون الظاهر للآيات، وإنما نسعى إلى الكشف عن البنية الداخلية للنظام المعرفي القرآني، واستخراج العلاقات المنظمة له، وتحويلها إلى نموذج معرفي قادر على تفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية والعمرانية.

ثانيًا: الأسس المنهجية للمنهج:

يقوم هذا المنهج على عدد من المرتكزات العلمية، أهمها:

١- القرآن نظام معرفي كلي:

ينطلق المنهج من أن القرآن الكريم ليس مجموعة موضوعات مستقلة، ولا مجموعة أحكام متناثرة، وإنما يمثل نظامًا معرفيًا متكاملًا، تتساند فيه العقيدة، والقيم، والسنن، والمقاصد، والتشريعات، والقصص، في بناء رؤية كلية للإنسان والكون والحياة والعمران.

وبناءً على ذلك، فإن فهم أي جزء من القرآن لا يتحقق بمعزل عن البناء الكلي الذي ينتظم جميع أجزائه.

٢- وحدة النسق المعرفي:

يعتمد المنهج على أن المفاهيم القرآنية لا تعمل بصورة منفردة، وإنما تتحرك داخل أنساق مترابطة، بحيث يفسر بعضها بعضًا، ويكمل بعضها بعضًا، وتتولد من تفاعلها الرؤية القرآنية الشاملة.

ولهذا فإن التحليل لا يتوقف عند المفهوم المفرد، وإنما ينتقل إلى دراسة شبكة العلاقات التي تربطه بالمفاهيم الأخرى داخل السورة، ثم داخل القرآن كله.

٣- السننية مدخل تفسير الظواهر:

يفترض المنهج أن السنن الإلهية هي القوانين الحاكمة لحركة الإنسان والمجتمع والتاريخ، وأن الكشف عنها يمثل المستوى الأعلى في فهم المضمون القرآني.

ولذلك ينتقل التحليل من تفسير الوقائع إلى اكتشاف القوانين التي أنتجتها، ومن دراسة الأحداث إلى تحليل العلاقات السننية التي تحكم نشأتها وتطورها ونتائجها.

٤- العمران وحدة التحليل الكبرى:

يرى المنهج أن موضوع القرآن لا يقتصر على إصلاح الفرد، ولا على تنظيم المجتمع فقط مع اهمية ذلك، وإنما يتجاوز ذلك إلى بناء العمران الإنساني كله.

ومن هنا تصبح جميع المفاهيم والسنن والقصص عناصر في بناء النظرية القرآنية للعمران، بما يشمل الإنسان، والأسرة، والمجتمع، والدولة، والأمة، والحضارة.

٥ -الاستخلاف هو الإطار الناظم:

لا تُقرأ المفاهيم والسنن في هذا المنهج قراءة مستقلة، وإنما في إطار مشروع الاستخلاف الذي جعله القرآن غاية الوجود الإنساني.

فجميع عناصر النظام المعرفي القرآني تتكامل لتكوين الإنسان المستخلف، وإقامة المجتمع المستخلف، وبناء العمران المستخلف.

ثالثًا: مستويات التحليل في المنهج:

يمر تحليل النص القرآني في هذه الدراسة عبر ستة مستويات متتابعة، يمثل كل مستوى منها انتقالًا نوعيًا في إنتاج المعرفة.

المستوى الأول: تحليل المضمون القرآني:

ويشمل استخراج المفاهيم، والقضايا، والوحدات الموضوعية، والبنية العامة للسورة، والعلاقات الأولية بين موضوعاتها.

ويمثل هذا المستوى المدخل الإجرائي للدراسة.

المستوى الثاني: التحليل النسقي:

وفيه تنتقل الدراسة من المفاهيم المفردة إلى تحليل العلاقات الداخلية التي تربط بينها، بما يكشف البنية النسقية للسورة.

وهنا لا يصبح السؤال: ماذا تقول الآية؟

بل يصبح: كيف تنتظم جميع الآيات لتكوين رؤية واحدة؟

المستوى الثالث: التحليل السنني:

وفي هذا المستوى تُستخرج السنن الإلهية التي تحكم الظواهر المدروسة، وتُميز الشروط، والأسباب، والموانع، والنتائج، ومجالات تطبيق كل سنة.

وبذلك يتحول النص من الوصف إلى تفسير حركة الواقع.

المستوى الرابع: إعادة بناء النموذج المعرفي:

بعد استخراج المفاهيم والسنن والأنساق، يعاد تركيبها في نموذج معرفي متكامل، يبين العلاقات بين العقيدة، والقيم، والعلم والاجتماع، والعمران، والاستخلاف.

وفي هذا المستوى لا يقتصر الامر على تفسير النص، بل يعيد بناء الرؤية الكلية التي يقدمها القرآن.

المستوى الخامس: بناء النظرية العمرانية الاستخلافية السننية

وهو المستوى الذي تنتقل فيه الدراسة من النموذج المعرفي إلى النظرية العلمية.

فلا تظل السنن مجرد نتائج تفسيرية، بل تتحول إلى قوانين مفسرة لحركة المجتمعات، وقادرة على تحليل الواقع واستشراف المستقبل.

ويمثل هذا المستوى الإسهام الرئيس للدراسة في مجال تأسيس علم الاجتماع الاستخلافي العمراني السنني.

المستوى السادس: التنزيل الحضاري والتطبيق المعاصر:

وينتهي المنهج بمرحلة تنزيل النتائج على الواقع المعاصر، وربط السنن القرآنية بقضايا الإنسان والمجتمع والدولة والحضارة، بما يجعل القرآن مصدرًا لإنتاج المعرفة، وبناء السياسات، وإصلاح العمران، واستشراف المستقبل.

رابعًا: أدوات التحليل:

نعتمد في هذا المنهج على مجموعة من الأدوات العلمية المتكاملة، من أهمها:

التحليل الموضوعي لمضمون السور القرآنية.

التحليل النسقي للعلاقات بين المفاهيم.

الاستقراء السنني لاستخراج القوانين الإلهية.

التحليل المقاصدي للكشف عن الغايات الكلية.

إعادة البناء المعرفي للمفاهيم والأنساق.

التحليل العمراني لتتبع أثر السنن في بناء الحضارات.

المقارنة الداخلية بين النماذج القرآنية.

التركيب النظري لبناء النموذج الاستخلافي السنني.

خامسًا: القيمة المنهجية المتوقعة للمنهج:

لا يمثل هذا المنهج تطويرًا إجرائيًا لتحليل المضمون فحسب، بل يمثل محاولة لتأسيس حقل منهجي جديد في الدراسات القرآنية، ينتقل من تحليل النص إلى بناء المعرفة، ومن استخراج المفاهيم إلى إنتاج النظرية، ومن تفسير القرآن إلى توظيف مخرجاته في تأسيس العلوم الإنسانية .

ولهذا يمكن أن منهج تحليل المضمون القرآني في ضوء النظام المعرفي القرآني إسهامًا منهجيًا أصيلًا "ونسأل الله ان يكون كذلك" استدعته طبيعة الدراسة التي نحن بصددها نفسها؛ إذ لم يكن أي منهج منفرد قادرًا على استيعاب أهدافها، فكان لزامًا تطوير منهج مركب يجمع بين التحليل النصي، والتحليل النسقي، والاستقراء السنني، وإعادة البناء المعرفي، وبناء النظرية، ضمن إطار قرآني واحد متكامل.

ونسأل الله أن نستطيع تطويره الى بحث بعنوان **التأسيس النظري لمنهج تحليل المضمون القرآني في ضوء النظام المعرفي القرآني**، ولا يقتصر على وصف خطوات المنهج، بل يناقش جذوره المعرفية، ويميّزه عن مناهج التفسير الموضوعي، وتحليل المضمون في العلوم الاجتماعية، وتحليل الخطاب، والتحليل البنيوي، والتحليل النسقي، ليصبح هذا المنهج نفسه إسهامًا علميًا يمكن للباحثين اعتماده في دراساتهم، وليس مجرد منهج خاص لمشروعنا.

وسوف نثبت هذا التعريف نفسه في مقدمة المشروع.

ثالثاً: وحدات التحليل

وبناء على المنهج الذي حددناه أعلاه سوف تكون الوحدة الأساسية للتحليل هي:

الوحدة المضمونية:

فقد تمتد الوحدة: الى ثلاث آيات، او عشر آيات، او صفحة كاملة، بحسب وحدة الموضوع، وهذا أقرب لطبيعة الخطاب القرآني.

رابعاً: مستويات التحليل

وسوف يمر كل مقطع بثمانية مستويات ثابتة.

المستوى الأول: النص القرآني.

المستوى الثاني: السياق داخل السورة.

المستوى الثالث: المضمون المباشر.

المستوى الرابع: المفاهيم الاستخلافية.

مثل:

الاستخلاف- السننية- العمران- التدافع- الإصلاح- الابتلاء- الشهود- التمكين.

المستوى الخامس: السنن المستفادة.

المستوى السادس: النموذج العمراني.

أي: ما النموذج الحضاري الذي تبنيه هذه الآيات؟

المستوى السابع: الامتداد الموضوعي.

أي: أين عالج القرآن هذا الموضوع في السور الأخرى؟

وهنا يأتي التحليل الموضوعي الذي يستلزم ما ذكرناه من تتبع موضوع معين عبر سور متعددة

المستوى الثامن: الإضافة للنظرية الاستخلافية.

أي: ماذا تضيف هذه الآيات إلى مشروعنا؟

خامساً: أنواع التحليل

وسوف نجمع بين ثلاثة أنواع.

التحليل الطولي: داخل السورة.

التحليل العرضي: بين السور.

التحليل الشبكي: أي رسم العلاقات بين الموضوعات.

سادساً: ماذا نستخرج من كل سورة؟

ليس تفسيرًا.

بل نستخرج:

المفاهيم– السنن– النماذج– القيم– المؤسسات– العلاقات– القوانين– مؤشرات العمران.

أي يصبح القرآن مصدرًا فعليا لبناء العلوم.

أولا تحليل سورة الفاتحة

المصفوفة المرجعية للنظام المعرفي القرآني

المدخل العام:

في ضوء المشروع المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني ليست سورة الفاتحة مقدمة تعبدية للمصحف فحسب، بل هي الوثيقة المرجعية التي تؤسس للرؤية الكلية التي سيبنى عليها المشروع القرآني كله.

فالقرآن لم يبدأ بالأحكام، ولا بالقصص، ولا بالعقيدة التفصيلية، ولا بالتشريعات.

بل بدأ:

ببناء الرؤية.

وهذا في حد ذاته منهج معرفي بالغ الدلالة، فالإنسان لا يستطيع أن يعمر الأرض قبل أن يعرف:

- من هو؟
- ومن هو ربه؟
- وما طبيعة الكون؟
- وما غاية وجوده؟
- وما الطريق الذي يسلكه؟

ولهذا جاءت الفاتحة قبل كل شيء.

الوظيفة المعرفية لسورة الفاتحة:

ويمكن أن نصوغ وظيفتها على النحو الآتي:

تأسيس الرؤية الكلية للنظام المعرفي القرآني، وبناء المرجعية العليا التي تنطلق منها جميع عمليات المعرفة والاستخلاف والعمران.

الوحدة الأولى

التوحيد

المرجعية المؤسسة للرؤية الكلية: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

أولاً: الفكرة المركزية: أول كلمة يعرف بها القرآن الإنسان هي:

الله.

وليس الإنسان– ولا الطبيعة– ولا المجتمع– وهذه ليست قضية عقدية فقط– بل قضية معرفية كذلك.

فالقرآن يبدأ بتحديد: المرجع الأعلى للمعرفة.

ومن هنا يبدأ اختلاف النظام المعرفي القرآني عن النظم البشرية.

ثانياً: النسق العمراني الاستخلافي:

الله

↓

الربوبية

↓

الهداية

↓

الإنسان

↓

الاستخلاف

↓

العمران.

وهذا النسق سيظل يتكرر في جميع القرآن.

ثالثاً: السنن المعرفية

سنة وحدة المرجعية، كل معرفة صحيحة ينبغي أن تنتهي إلى مرجع واحد.

ولهذا بدأت الفاتحة:

برب العالمين.

سنة عالمية الرسالة

لم يقل:

رب المؤمنين.

بل:

رب العالمين

فالقرآن منذ أول آيات في سورة الفاتحة يؤسس لعالمية المشروع.

سنة ارتباط التربية بالربوبية

فالرب– هو المربي– وهو المدبر– وهو المنمي.

ومن هنا فإن العمران في القرآن يبدأ بالتربية.

الوحدة الثانية :

الإنسان بين الرحمة والمسؤولية: ﴿الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين﴾

الفكرة المركزية: يبني القرآن الإنسان بين قطبين.

الرحمة.

والمساءلة.

فلو بدأت الرسالة بالمحاسبة وحدها.

لانكسر الإنسان.

ولو بدأت بالرحمة وحدها.

لتهاون.

فجاء الميزان.

النسق العمراني:

الرحمة

↓

الأمل

↓

العمل

↓

المسؤولية

↓

المحاسبة

↓

الإصلاح.

السنن:

لا عمران بلا رحمة– ولا رحمة بلا مسؤولية– ولا مسؤولية بلا حساب.

وهذه السنة ستظهر لاحقًا في سورتي النساء والمائدة بصورة واضحة.

الوحدة الثالثة

العبودية والاستعانة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

الفكرة المركزية

هذه الآية ليست تعبيرًا تعبديًا فحسب، بل إعلان عن فلسفة القرآن في الفاعلية الإنسانية.

فالإنسان:

ليس مستقلاً عن الله.

ولا معطلاً ينتظر كل شيء.

بل:

يعبد، ويعمل– ويستعين.

وهذا هو الإنسان الاستخلافي المعمر للارض.

النسق العمراني

الإيمان

↓

العبودية

↓

الاستعانة

↓

العمل

↓

الإنجاز

↓

الاستخلاف.

الاستنباط

ويبدو أن هذه الآية تؤسس لما يمكن أن نسميه:

نظرية الفاعلية الاستخلافية.

فالإنسان يعمل.

لكن بالله.

ولا يعمل بدلاً عن الله.

ولا يترك العمل انتظارًا للغيب.

الوحدة الرابعة

الهداية: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾

الفكرة المركزية

هذه أول دعوة في القرآن.

وليس:

ارزقنا.

ولا:

انصرنا.

ولا:

أغننا.

بل:

اهدنا.

وهذا يكشف أن الهداية هي أصل كل بناء.

عليه يتطور معنا النسق العمراني الى:

الهداية

↓

الرؤية

↓

المعرفة

↓

العمل

↓

الإصلاح

↓

العمران.

المؤشر المنهجي

كل مشروع معرفي، لا يبدأ بالأدوات، بل بالرؤية، ولهذا كانت الهداية قبل التشريع.

الوحدة الخامسة: الصراط المستقيم

النموذج الحضاري

ويبدو أن: الصراط المستقيم

ليس مجرد طريق فردي إلى الجنة.

بل هو:

النموذج الحضاري الذي يسير عليه الإنسان والأمة.

ولذلك لم يقل:

اهدني.

بل:

اهدنا

فالهداية هنا:

جماعية.

وحضارية.

وأممية.

الوحدة السادسة: النماذج الحضارية الثلاثة

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

وهنا تظهر من وجهة نظرنا أعظم لوحة حضارية في الفاتحة.

فالقرآن لا يذكر أسماء.

بل يقدم ثلاثة نماذج إنسانية كبرى.

أولاً: نموذج العمران الراشد:

الذين أنعمت عليهم

وهم النموذج الذي حقق الهداية والعلم والعمل والاستقامة.

ثانياً: نموذج الانحراف الإرادي:

المغضوب عليهم: ويمثل فساد الإرادة– مع وجود المعرفة.

ثالثاً

نموذج الانحراف المعرفي

الضالين

ويمثل حسن القصد.

مع فساد المعرفة.

وأحسب أن هذا التقسيم يمكن ان يكون من الاكتشافات المنهجية في الفاتحة.

وعليه فالقرآن يقسم الانحراف الحضاري إلى:

فساد الإرادة– وفساد المعرفة.

بينما العمران الصحيح لا يقوم إلا باجتماع:

صحة المعرفة– وصلاح الإرادة.

المفاهيم المؤسسة في سورة الفاتحة:

تؤسس الفاتحة من وجهة نظرنا ومن خلال التحليل المضموني لمجموعة من المفاهيم التي ستصبح أصولًا للمشروع كله:

الربوبية: المرجعية العليا للعالم والإنسان والتاريخ.

العالمين: العالمية والشمول، بما يتجاوز الإطار المحلي أو القومي.

الرحمة: القانون الحاكم للعلاقة بين الله وخلقه، وأحد الأسس الأخلاقية للعمران.

الدين: نظام الجزاء والمسؤولية، لا مجرد الشعائر.

العبودية: تحرير الإنسان من كل مرجعية تنافس مرجعية الله.

الاستعانة: الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

الهداية: الأصل الذي تتفرع عنه المعرفة والعمل.

الصراط: النموذج الحضاري المستقيم.

النعمة: ثمرة الهداية والاستقامة، لا مجرد العطاء المادي.

الاستنباط الذب نعده الأكبر بسورة الفاتحة
وأحسب أننا هنا أمام اكتشاف قد يكون من أهم نتائج المشروع كله.
لقد اعتدنا أن نصف الفاتحة بأنها:
أم الكتاب.
لكن بعد هذا التحليل يبدو أن هذا الوصف ليس وصفًا تعبديًا فقط، بل أيضا هو وصف بنيوي معرفي.
فالفاتحة تحتوي – بصورة مجملة – جميع الطبقات التي سيفصلها القرآن بعد ذلك:
المرجعية العليا (الله).
الرؤية الكونية (رب العالمين).
المنظومة القيمية (الرحمن الرحيم).
المسؤولية والجزاء (مالك يوم الدين).
وظيفة الإنسان (إياك نعبد).
منهج الفاعلية (وإياك نستعين).
طلب الهداية (اهدنا الصراط المستقيم).
النموذج الحضاري الراشد (الذين أنعمت عليهم).
نماذج الانحراف الحضاري (المغضوب عليهم والضالين).
ومن هنا يمكن تعديل الوظيفة المعرفية للفاتحة لتصبح أكثر دقة:
"الفاتحة هي المصفوفة المرجعية للنظام المعرفي القرآني، وفيها تُبنى الرؤية الكلية التي ستقوم عليها جميع الأنساق العقدية والمعرفية والقيمية والعمرانية في بقية القرآن".
بعد هذا التحليل يتبين أن سورة الفاتحة لم تُنزل لتكون مقدمة تعبدية للمصحف فحسب، بل لتؤسس الرؤية الكلية التي سينبني عليها المشروع المعرفي القرآني كله، فقد حددت المرجعية العليا (الله)، وغاية الوجود (العبودية)، ووسيلة الأداء (الاستعانة)، والغاية المنهجية (الهداية)، والنموذج الحضاري المنشود (الصراط المستقيم)، كما رسمت بإيجاز ملامح النموذج الراشد ونماذج الانحراف.

غير أن الفاتحة بقيت في مستوى الأصول الكلية والموجهات المرجعية، ولم تنتقل بعد إلى بناء الأمة التي تحمل هذه الرؤية، ولا إلى بيان السنن التي تحكم قيامها، ولا إلى تفصيل المنهج الذي يحول هذه الرؤية إلى واقع تاريخي وحضاري.

ومن هنا تأتي سورة البقرة بوصفها أول خطوة تنفيذية في المشروع القرآني؛ فهي لا تعيد تأسيس الرؤية، وإنما تبدأ في بناء الأمة الاستخلافية القادرة على حمل تلك الرؤية، وتحويلها إلى عمران في الواقع. فإذا كانت الفاتحة قد أجابت عن سؤال: ما الرؤية التي ينبغي أن تحكم الإنسان؟ فإن البقرة تبدأ بالإجابة عن سؤال آخر لا يقل أهمية: كيف تُبنى الأمة التي تحمل هذه الرؤية وتحقق مقتضاها في الأرض؟

ولهذا فإننا نحسب أن العلاقة بين السورتين ليست علاقة تعاقب في ترتيب المصحف فحسب، وإنما هي علاقة تدرج معرفي ومنهجي؛ فالفاتحة تؤسس الرؤية، والبقرة تؤسس حامل الرؤية، ومن اجتماعهما يبدأ البناء المتكامل للنظام المعرفي القرآني.

التطبيق على سورة البقرة

ابتداء نحسب أن سورة البقرة ليست سورة الأحكام فقط كما تُصنف غالبًا، بل هي في نظرنا: سورة تأسيس الأمة المستخلفة.

وأحسب أن هذا سيكون مفتاح قراءتها، لأنها تنتقل من:

خلق آدم– الاستخلاف– قصة بني إسرائيل– تحويل القبلة– بناء الأمة– التشريع– الاقتصاد– الأسرة– الجهاد– الإنفاق.

وكل ذلك يدور حول سؤال واحد:

كيف تُبنى الأمة المستخلفة المأمورة بالعبادة واعمار الارض؟

ونرى أن هذه ستكون الفرضية المركزية لقراءتنا.

ثامناً: الهيكل المقترح لسورة البقرة

بدل تقسيمها إلى أجزاء المصحف.

سنقسمها موضوعيًا.

القسم الأول

الاستخلاف وبناء الإنسان(39–1)

القسم الثاني

أزمة النموذج الإسرائيلي(123–40)

القسم الثالث

إبراهيم وبناء النموذج الاستخلافي(141–124)

القسم الرابع

الهوية الحضارية للأمة(152–142)

القسم الخامس

بناء المجتمع(242–153)

القسم السادس

بناء الاقتصاد والعمران(283–243)

القسم السابع

الإيمان والقيادة والاستخلاف(286–284)

ونحسب أن هذا التقسيم سيكشف عن الوحدة البنائية للسورة بصورة أوضح.

تاسعاً: ما الذي سنضيفه إلى الدراسات القرآنية؟

نحسب ان الإضافة ستكون في أننا لا نعيد كتابة تفسير، ولا دراسة موضوعية بالمعنى التقليدي، وإنما نؤسس مجالًا جديدًا يمكن تسميته:

علم التحليل المضموني للقرآن الكريم

أو بصيغة أدق:

التحليل المضموني العمراني للقرآن الكريم

ويكون هذا أحد فروع النسق المعرفي الاستخلافي.

وهذا العمل سيكون ان شاء الله مشروعًا موسوعيًا بعنوان:

التحليل المضموني للقرآن الكريم في ضوء النسق العمراني الاستخلافي السنني

وتكون سورة البقرة هي الجزء الأول، ثم آل عمران، فالنساء... حتى يكتمل القرآن كله.

ونحسب أن هذا المشروع، إذا التزمنا فيه بالانضباط المنهجي، والتمييز بين دلالة النص القرآني وما نستنبطه منه في إطار مشروع النسق المعرفي العمراني الاستخلافي يمكن أن يصبح من أبرز التطبيقات العملية لهذا النسق وأن يمدّ جميع كتبه الأخرى بالمفاهيم والسنن والنماذج المستقاة مباشرة من القرآن الكريم، بدلاً من أن تبقى تلك المفاهيم مجرد بناء نظري.

وهذا، في نظرنا سيجعل القرآن الكريم هو المصدر المؤسس للنسق، لا مجرد شاهد عليه، وهو فرق منهجي بالغ الأهمية.

وعلى ذلك فإن أول وحدة من سورة البقرة تستحق أن تُدرس بتأنٍ شديد؛ لأنها تمثل المدخل المنهجي للقرآن كله، وليس للسورة وحدها فقط، هي الآيات (١-٥)، لأنها تؤسس للمرجعية التي سيقوم عليها كل مشروع الاستخلاف والعمران.

الوحدة المضمونية الأولى: مرجعية الهداية وبناء الإنسان المستخلف:

دراسة تحليلية للآيات(5-1)

﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

أولاً: السياق البنائي

من اللافت أن القرآن، في أول خطاب مطول بعد الفاتحة، لا يبدأ بالحديث عن الإنسان، ولا عن المجتمع، ولا عن الدولة، ولا عن التشريع، وإنما يبدأ بتقرير مرجعية المعرفة.

وهذه ليست قضية شكلية، بل هي تأسيس منهجي عميق؛ إذ إن كل مشروع حضاري يحتاج أولاً إلى تحديد مصدر الهداية والمعرفة التي سيبنى عليها، ولذلك فإن أول قضية تطرحها السورة هي: من أين تستمد الأمة رؤيتها؟

إن ترتيب الآيات يوحي بأن إصلاح العمران لا يبدأ بإصلاح المؤسسات، وإنما يبدأ بإصلاح المرجعية التي تهدي الإنسان في فهم نفسه والكون والتاريخ.

ثانياً: التحليل المضموني

يمكن تقسيم هذه الآيات إلى خمس وحدات دلالية مترابطة.

(1)إعلان المرجعية: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يعرّف القرآن نفسه هنا تعريفًا لغويًا، وإنما يعلن صفته المنهجية: اليقين.

فالكتاب هو المرجعية التي لا تقوم على الظن، بل على الوحي، وليس المقصود نفي كل سؤال أو اجتهاد، وإنما تقرير أن أصل الهداية ثابت، بينما تتجدد مسارات الفهم والاجتهاد في ضوء هذا الأصل.

ومن منظور النسق الاستخلافي، فإن هذه الآية تؤسس لما يمكن تسميته:

مبدأ المرجعية المؤسسة.

أي أن كل بناء معرفي أو حضاري يحتاج إلى أصل مرجعي يحتكم إليه عند الاختلاف، وإلا تحول إلى منظومة نسبية لا ضابط لها.

(2)وظيفة المرجعية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

لم يقل القرآن: "كتاب علم "، أو "كتاب ثقافة"، أو "كتاب معلومات"، وإنما قال: هدى.

وهذا الاختيار بالغ الدلالة؛ إذ يجعل الغاية من المعرفة هي توجيه الإنسان، لا مجرد تزويده بالعلم وبالمعارف ومده بالمنظومة الثقافية فقط.

ومن هنا يمكن التمييز بين:

المعرفة الوصفية.

والمعرفة الهداية.

الأولى تصف الواقع، والثانية توجه الإنسان إلى كيفية التعامل معه.

وهذا فارق جوهري بين الرؤية القرآنية والرؤى التي تجعل المعرفة غاية في ذاتها.

(3)خصائص الإنسان المؤهل للهداية

تذكر الآيات خمس صفات:

الإيمان بالغيب– إقامة الصلاة– الإنفاق– الإيمان بالوحي كله– اليقين بالآخرة.

وليست هذه الصفات عبادات متفرقة، بل مكونات لبناء الشخصية المستخلفة.

فالإيمان بالغيب يوسع أفق الإدراك، والصلاة تؤسس الانضباط الروحي، والإنفاق يبني التضامن الاجتماعي، والإيمان بالرسالات يحقق الامتداد التاريخي للوحي، واليقين بالآخرة يربط العمل بمسؤوليته النهائية.

(4)العلاقة بين الهداية والعمل

نلاحظ في الآيات أن الهداية لا تنفصل عن السلوك، فكل وصف من أوصاف المتقين يتجلى في عمل ظاهر أو موقف عملي، وهذا يدل على أن القرآن لا يعرف الفصل بين الإيمان والعمل، أو بين العقيدة والعمران.

(5)النتيجة الحضارية ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

الفلاح هنا ليس مجرد النجاة الأخروية، بل يشمل نجاح الإنسان في أداء وظيفة الاستخلاف.

فالقرآن يربط بين الهداية والفلاح، لا بين القوة والفلاح، ولا بين الثروة والفلاح.

وهذه نقطة تحتاج إلى استحضار عند دراسة أسباب نهوض الأمم وانهيارها.

ثالثاً: المفاهيم العمرانية المستخرجة

تتولد من هذه الآيات مجموعة من المفاهيم المؤسسة:

المرجعية– الهداية– التقوى– الغيب– المسؤولية– العبادة العمرانية– التضامن– الامتداد الرسالي– الفلاح الحضاري.

وهذه المفاهيم ستكون من اللبنات الأساسية في المعجم الموسوعي للمفاهيم الاستخلافية.

رابعاً: السنن المستنبطة

يمكن استنباط السنة الآتية:

سنة أسبقية المرجعية على العمران

ومضمونها:

كل مشروع حضاري يفقد مرجعيته الهادية ينتهي إلى اضطراب في المفاهيم، ثم إلى اختلال في القيم، ثم إلى فساد في العمران، مهما امتلك من أدوات القوة المادية .

وهذه السنة لا تدعي أن المرجعية وحدها تكفي لبناء الحضارة، وإنما تقرر أنها شرط تأسيسي لا غنى عنه، مع بقاء الحاجة إلى الشروط الأخرى من العلم والعمل والعدل والتنظيم.

خامساً: النموذج العمراني

يمكن تصوير البناء الذي ترسمه الآيات على النحو الآتي:

مرجعية الوحي

↓

الهداية

↓

بناء الإنسان

↓

بناء المجتمع

↓

الفلاح والعمران

ومن اللافت أن القرآن يبدأ من الأعلى إلى الأسفل؛ أي من المرجعية إلى التطبيق، لا العكس.

سادساً: الامتداد الموضوعي في القرآن

هذه الوحدة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بآيات عديدة، منها:

افتتاح سورة آل عمران الذي يؤكد أن الله أنزل الكتاب بالحق هدىً للناس.

مطلع سورة يونس في بيان وظيفة الوحي في الإنذار والبشارة.

افتتاح سورة الكهف الذي يربط الكتاب بالاستقامة وعدم العوج.

مطلع سورة لقمان الذي يجمع بين الهداية والإحسان.

وسنعود إلى هذه المواضع عند بناء "الخريطة الموضوعية للهداية" في القرآن.

سابعاً: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني

هذه الآيات تقدم تصحيحًا منهجيًا بالغ الأهمية لعلم الاجتماع.

فكثير من المدارس الاجتماعية تبدأ تفسير المجتمع من الاقتصاد، أو السلطة، أو الثقافة، أو البنية الاجتماعية، بينما يقدم القرآن عنصرًا سابقًا على ذلك كله، هو المرجعية الهادية.

ولا يعني هذا إلغاء العوامل الأخرى، بل ترتيبها داخل نسق متكامل؛ فالمرجعية تؤثر في منظومة القيم، والقيم توجه السلوك، والسلوك يبني المؤسسات، والمؤسسات تشكل العمران.

ومن هنا يمكن اقتراح فرضية بحثية قابلة للدراسة المقارنة:

كلما ازدادت قوة المرجعية الجامعة، واتسق أثرها في تشكيل القيم والسلوك، ازدادت قدرة المجتمع على بناء عمران مستقر وعادل، ما لم تعارضها عوامل قاهرة أو اختلالات بنيوية أخرى.

وهذه الفرضية تحتاج إلى اختبار تاريخي وميداني، وهو ما ينسجم مع المنهج الذي أسسناه سابقًا، والذي يميز بين النص المؤسس وبين الفرضيات العلمية المستنبطة منه.

الوحدة المضمونية الثانية: الأنماط الإنسانية في الاستجابة للهداية:

دراسة تحليلية للآيات(20–6)

الفرضية المركزية: لا يمكن بناء المجتمع المستخلف دون فهم البنية النفسية والاجتماعية للإنسان؛ لذلك يبدأ القرآن بتصنيف أنماط الاستجابة للوحي قبل الانتقال إلى بناء الأمة.

أولاً: موقع هذه الوحدة في البناء العام للسورة

بعد أن قررت الآيات الأولى أن القرآن هو مصدر الهداية، كان السؤال المنطقي:

لماذا يهتدي بعض الناس ولا يهتدي آخرون، مع أن مصدر الهداية واحد؟

هنا يبدأ القرآن في الإجابة، وهذا يكشف عن قاعدة منهجية مهمة:

اختلاف نتائج الهداية لا يرجع إلى نقص في الوحي، وإنما إلى اختلاف القابلية الإنسانية للاستجابة له.

وهذه الفكرة ستكون لاحقًا من أهم أسس النظرية الاستخلافية في تفسير التغير الاجتماعي.

ثانياً: النموذج الأول: الكافر

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾، من الملاحظ أن القرآن لا يقدم هنا وصفًا عرقيًا أو اجتماعيًا، بل يصف موقفًا معرفيًا وإراديًا، فالكفر هنا ليس مجرد عدم المعرفة، بل رفض الحقيقة بعد قيام الحجة، ومن ثم فإن المشكلة ليست في العقل، بل في الإرادة.

الدلالة العمرانية

وهذه قضية شديدة الأهمية.

إذ إن الحضارات لا تنهار بسبب نقص المعلومات وحده، بل بسبب الإصرار على مقاومة الحق بعد ظهوره.

ومن هنا فإن القرآن يربط الانغلاق المعرفي بالانهيار الحضاري.

ثالثاً: النموذج الثاني: المنافق

يفرد القرآن للمنافقين ثلاث عشرة آية، بينما يخصص للكافرين آيتين فقط، وفي نظرنا ان هذه ليست مصادفة، فالخطر الأكبر على المجتمع الناشئ ليس العدو الظاهر، بل الخلل الداخلي.

وهنا تظهر أول قاعدة في علم الاجتماع الاستخلافي:

كلما انتقل المجتمع من مرحلة التأسيس إلى مرحلة البناء، أصبح التهديد الداخلي أخطر من التهديد الخارجي.

وهذه فرضية تستحق أن تصبح محورًا لدراسات مقارنة في تاريخ الدول والحضارات.

رابعاً: لماذا أطال القرآن الحديث عن المنافقين؟

يمكن تفسير ذلك من خلال خمسة اعتبارات:

لأنهم يعيشون داخل المجتمع.

لأنهم يفسدون منظومة الثقة.

لأنهم يعطلون العمل الجماعي.

لأنهم يشوهون القيم.

لأن اكتشافهم أصعب.

ومن هنا يتبين أن القرآن لا يعالج ظاهرة فردية، بل يقدم تحليلًا لبنية اجتماعية يمكن أن تتكرر في كل عصر.

خامساً: التحليل النفسي والاجتماعي للنفاق

من خلال الآيات يمكن استخلاص عناصر الشخصية المنافقة:

ازدواجية الهوية.

انفصال القول عن الفعل.

توظيف الخطاب لتحقيق المصالح.

ضعف اليقين.

الميل إلى الإفساد مع ادعاء الإصلاح.

قلب المعايير.

الخوف الدائم.

فقدان الثقة.

وهذا الوصف يمثل – في تقديرنا – أحد أقدم النماذج القرآنية لتحليل الشخصية الاجتماعية.

سادساً: الصور البيانية بوصفها نماذج تفسيرية

يضرب القرآن مثلين للمنافقين:

مثل النار.

ومثل المطر والظلمات والرعد والبرق.

ولا ينبغي أن تُفهم هذه الأمثال بوصفها صورًا بلاغية فقط.

بل بوصفها نماذج تفسيرية (Explanatory Models)

فالنار ترمز إلى معرفة مؤقتة لا تتحول إلى نور دائم.

والبرق يرمز إلى استجابة انتقائية للحق؛ يمشون معه ما دام يحقق لهم منفعة، فإذا واجهوا المشقة توقفوا.

وهذا يعمق فهمنا للنفاق بوصفه اضطرابًا في الثبات المنهجي، لا مجرد خلل أخلاقي.

سابعاً: السنن المستنبطة

السنة الثانية

سنة قابلية الهداية

ومضمونها:

الهداية تعرض على جميع الناس، لكن أثرها يتحدد بقدر استعداد القلب والعقل لقبولها والعمل بمقتضاها.

السنة الثالثة

سنة التهديد الداخلي

ومضمونها:

كل مشروع حضاري ناشئ يصبح أكثر عرضة للتعثر إذا نشأت داخله أنماط سلوكية تُضعف الثقة، وتفكك القيم المشتركة، وتُظهر الانتماء وتبطن مناقضه.

وهذه السنة لا تختص بالمجتمعات الإسلامية، بل يمكن اختبارها في كل التجارب التاريخية، مع مراعاة اختلاف السياقات.

ثامناً: النموذج العمراني

يمكن تصوير العلاقة كما يأتي:

الهداية

↓

الاستجابة

↓

تكوين الشخصية

↓

تكوين الثقافة

↓

تكوين المجتمع

↓

العمران أو الفساد

وهذا يكشف أن القرآن يبدأ من الإنسان بوصفه نقطة الانطلاق للعمران، لا من البناء المؤسسي وحده.

تاسعاً: الامتداد الموضوعي في القرآن

تتكرر هذه الأنماط في مواضع كثيرة، منها:

سورة التوبة، حيث يقدم القرآن أوسع عرض لظاهرة النفاق وآثارها الاجتماعية والسياسية.
سورة المنافقون، التي تحلل بنية الشخصية المنافقة وعلاقتها بالمجتمع.
سورة الصف، في الربط بين القول والعمل.
سورة الحجرات، في بناء الثقة الاجتماعية وآداب الجماعة.
وسنعود إلى هذه المواضع لاحقًا عند إعداد "الخريطة القرآنية للتماسك الاجتماعي".
عاشراً: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني
هذه الوحدة تقدم إضافة منهجية عميقة، وهي أن القرآن لا يصنف الناس وفق الطبقة، أو العرق، أو القوة الاقتصادية، بل وفق أنماط الاستجابة للحق، وهذا لا يلغي أهمية العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية، ولكنه يضيف مستوى تحليليًا سابقًا عليها، يتمثل في البنية القيمية والإرادية التي تشكل السلوك الاجتماعي.
ومن هنا يمكن اقتراح مفهوم جديد في مشروعنا، وهو:
القوة العمراني القيمية
ويُعرَّف بأنه:
مجمل القيم والهدايات والسنن والطاقات التي يغرسها الوحي في الإنسان والمجتمع، فتؤهله للقيام بوظيفة الاستخلاف، وتمكنه من بناء العمران وتحقيق الشهود الحضاري، وكذلك مجموع القيم والالتزامات الأخلاقية والثقة المشتركة التي تجعل التعاون الاجتماعي ممكنًا ومستدامًا.
وهذا المفهوم يمكن أن يصبح من المفاهيم المركزية في علم الاجتماع الاستخلافي السنني؛ لأنه يربط بين الهداية، وتكوين الشخصية، وبناء المجتمع، وفاعلية العمران، ويتيح أيضًا إجراء حوارات علمية مع مفاهيم مثل "رأس المال الاجتماعي" في الأدبيات المعاصرة، مع المحافظة على استقلال الإطار القرآني والمنهجي للمشروع.
الوحدة المضمونية الثالثة: إعلان المشروع الاستخلافي للإنسان
دراسة تحليلية للآيات(21-39)
الفرضية المركزية
الآيات (٢١-٣٩) ليست مجرد قصة خلق آدم، وإنما هي الوثيقة التأسيسية للاستخلاف الإنساني، وبذلك يتحول الحديث من التمهيد النظري إلى إعلان المشروع العمراني للقرآن .

فبعد أن عرّف القرآن المرجعية، وصنف الإنسان بحسب موقفه من الهداية، بدأ يوجه الخطاب إلى الإنسانية كلها، ثم أعلن مباشرة القضية التي سيبني عليها التاريخ الإنساني كله، وهي الاستخلاف والعمران.

وعليه تمثل هذه الآيات الإعلان القرآني الأول عن فلسفة الوجود الإنساني، إذ تنتقل من الحديث عن الهداية إلى بيان الغاية من وجود الإنسان، وهي الاستخلاف والعمران في ظل العبودية لله تعالى.

أولاً: موقع هذه الوحدة في البناء العام للسورة

ليس من قبيل المصادفة أن تأتي قصة آدم بعد الحديث عن المتقين والكافرين والمنافقين.

فالقرآن يبني منطقه الداخلي بدقة.

فبعد أن أجاب عن سؤال:

من يهتدي؟

ينتقل إلى سؤال أعمق:

ولماذا يهتدي أصلاً؟

أي:

ما الغاية من وجود الإنسان؟

يطرح القرآن منذ بداياته سؤالًا وجوديًا عميقًا: لماذا خُلق الإنسان؟ وما المقصد من وجوده؟

وتأتي الإجابة في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

فالعبادة هنا ليست مجرد أداء الشعائر، وإنما تعني الخضوع لله تعالى، والالتزام بهديه، وتحقيق العبودية له في جميع مجالات الحياة. ومن ثم فهي تمثل الغاية الوجودية العليا التي من أجلها خلق الإنسان.

غير أن القرآن لا يقف عند بيان الغاية، بل ينتقل إلى بيان الكيفية التي تتحقق بها هذه الغاية في الواقع، فيقول:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

فالخلافة ليست غاية مستقلة عن العبادة، وإنما هي الصيغة الحضارية التي تتجسد بها العبادة في حياة الإنسان. فالإنسان يعبد الله من خلال قيامه بمسؤولية الاستخلاف، وإقامة العدل، وإعمار الأرض، وإصلاح الحياة وفق هداية الوحي.

ويؤكد القرآن هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

فتصبح العلاقة بين هذه الآيات علاقة تكامل لا تعارض:

- العبادة تحدد الغاية .
- الاستخلاف يحدد الوظيفة .
- العمران يحدد مجال ممارسة هذه الوظيفة .

وعليه، فإن الفلسفة العمرانية للقرآن لا تنطلق من الاستخلاف مجردًا، وإنما من عبودية الله التي تتجسد في الاستخلاف، ويتحقق أثرها في عمران الأرض. وبهذا تصبح الخلافة وسيلة لتحقيق الغاية، وليست الغاية نفسها.

وعليه نصل للنتيجة التالية التي تمثل قاعدة بنائية:

العبادة هي الغاية الوجودية للإنسان، والاستخلاف هو وظيفته الحضارية، والعمران هو المجال الذي تتجسد فيه هذه الوظيفة، والسنن الإلهية هي القوانين التي تضبط حركتها في التاريخ والمجتمع.

ثانياً: النداء العالمي

يفتتح هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾

وهذه أول مرة في السورة يخاطب القرآن البشرية جميعًا، وهذا يكشف أن مشروع الاستخلاف والعمران ليس مشروع جماعة مغلقة، ولا مشروع أمة قومية، ولا مشروعًا سياسيًا، بل مشروع إنساني عالمي، فالعبادة هنا ليست شعيرة خاصة، بل هي الإطار الذي تنتظم داخله وظيفة الإنسان في الأرض.

ثالثاً: العبادة بوصفها أساس العمران

من أخطر الأخطاء المنهجية اختزال العبادة في الشعائر، فالآيات تجعل العبادة مقدمة مباشرة للاستخلاف، ومن هنا يمكن اقتراح تعريف عمراني للعبادة:

العبادة هي انتظام حياة الإنسان كلها في طاعة الله بما يحقق صلاح النفس والمجتمع والعمران.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الانعام ١٦٢

وهذه يعاضدها حديثٍ نبويّ شريف رواه أبو هريرة رضي الله عنه، حيث قال النبي ﷺ: (الإيمانُ بضعٌ وسَبعونَ –أو بضعٌ وسِتُّونَ– شُعبةً، اعلاها قَولُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عَنِ الطَّريقِ، والحَياءُ شُعبةٌ مِنَ الإيمان (فكأنما جعل الفعل الإنساني كله بين طرفين أعلاهما الأساس المرجعي نفسه وهو العقيدة وادناه ادنى سمة سلوكية في الفعل الإنساني وهي اماطة الاذى عن الطريق، ويصبح مفهوم العبادة شاملا لكل الأفعال الإنسانية، وكل منجزاته العمرانية:

وبذلك تصبح:

الزراعة عبادة.

والتعليم عبادة.

والبحث العلمي عبادة.

والقضاء عبادة.

والإدارة عبادة.

إذا تحققت فيها المقاصد القرآنية للاستخلاف.

وهذه إحدى أهم الإضافات التي يقدمها المشروع للنظرية العمرانية.

رابعاً: الإعلان الأول للاستخلاف

يقول تعالى:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

هذه الآية ليست مجرد خبر عن خلق آدم.

بل هي . في تقديرنا .

الإعلان الدستوري الأول للعمران الإنساني.

فهي تتضمن أربعة عناصر:

الجاعل: الله.

المجال: الأرض.

الفاعل: الإنسان.

الوظيفة: الاستخلاف.

ومن اللافت أن القرآن لم يبدأ بخلق الإنسان.

بل بدأ بوظيفته.

وكأن الوظيفة تسبق التعريف.

وهذا من أعظم أسرار البناء القرآني.

خامساً: لماذا اعترضت الملائكة؟

قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾

ليست القضية اعتراضًا على أمر الله، بل سؤال عن الحكمة.

وتبرز هنا قضية منهجية مهمة.

فالملائكة ربطت الإنسان بإمكان الفساد.

أما الله سبحانه فربطه بإمكان الاستخلاف.

أي أن القرآن يقرر منذ البداية أن الإنسان يحمل:

إمكان البناء.

وإمكان الهدم.

ولذلك فإن التاريخ كله سيكون ميدانًا للمفاضلة بين هذين الإمكانين.

سادساً: العلم قبل الاستخلاف

قال تعالى:

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وهنا نصل إلى ما أراه أحد أعظم المبادئ المؤسسة في النسق المعرفي الاستخلافي.

فالقرآن لم يقل:

خلق آدم.

ثم استخلفه.

بل قال:

علمه.

ثم أهله للاستخلاف.

إذن:

العلم شرط سابق على الاستخلاف.

وليس أي علم.
بل العلم الذي يمكّن الإنسان من فهم العالم وتسميته وإدراك علاقاته.
وهذا النص يمثل الأساس القرآني الذي سنبني عليه كتاب استخلاف المعرفة.
سابعاً: تكريم الإنسان
بعد التعليم جاء السجود.
ومن اللافت أن التكريم لم يرتبط بالقوة.
ولا بالجسد.
ولا بالمال.
بل بالعلم.
وهذا يعيد ترتيب سلم القيم الحضارية.
فالحضارة تبدأ بالعلم.
ثم تتجسد في العمران.
ثامناً: الحرية والمسؤولية
قصة الشجرة ليست مجرد قصة معصية.
بل إعلان عن:
حرية الاختيار.
والمسؤولية.
والخطأ.
والتوبة.
والعودة.
وهذه العناصر كلها ضرورية لبناء أي نظرية في الاجتماع الإنساني.
فالإنسان ليس إله.
ولا ملكًا.
بل كائن حر مسؤول.
تاسعاً: الهبوط ليس عقوبة مجردة
كثير من القراءات تجعل الهبوط نهاية القصة.

لكن من منظور الاستخلاف هو بدايتها.

فالأرض ليست مكان العقوبة.

بل ميدان الرسالة.

ومن هنا يمكن القول:

لم يهبط الإنسان إلى الأرض ليُعاقب، وإنما ليبدأ مهمته الاستخلافية.

وهذا التحول في زاوية النظر يمثل إضافة مهمة للنظرية العمرانية، فكأنما مرحلة الجنة التي كان فيها ادم هي أصلا مرحلة اعداد وتأهيل وتدريب للهبوط الى الأرض ليبدأ مهمته.

عاشراً: السنن المستنبطة

السنة الرابعة

سنة العلم قبل العمران

لا يتحقق الاستخلاف إلا بامتلاك المعرفة التي تؤهل الإنسان لفهم العالم والتعامل معه وفق هداية الله.

السنة الخامسة

سنة الحرية المسؤولة

الاستخلاف لا يقوم على الجبر، وإنما على الاختيار، ولذلك كانت المسؤولية أصلًا في التكليف والعمران.

السنة السادسة

سنة التوبة الحضارية

الخطأ لا ينهي مشروع الاستخلاف، وإنما يفتتح باب المراجعة والإصلاح إذا اقترن بالتوبة والعمل الصالح.

وهذه سنة ذات آثار حضارية عميقة؛ لأنها تفسر إمكان تجدد الأمم بعد أزماتها، إذا صححت مسارها.

الحادي عشر: النموذج العمراني

يمكن تمثيل النموذج الذي تبنيه الآيات كما يلي:

العلم

↓

العبادة

↓

الاستخلاف

↓

الحرية المسؤولة

↓

الابتلاء

↓

التوبة

↓

استئناف العمران

وهذا التسلسل – في نظرنا – قد يمثل أول نموذج قرآني متكامل لبناء الحضارة الإنسانية.

الثاني عشر: الامتداد الموضوعي في القرآن

يتكرر هذا البناء في مواضع عديدة، منها:

سورة الأعراف في عرض قصة آدم مع إبليس من زاوية الصراع والابتلاء.

سورة ص في إبراز تكريم آدم وموقف إبليس.

سورة طه في التركيز على التوبة والهداية بعد الهبوط.

سورة الحجر في بيان الخلق والنفخ في الروح.

الثالث عشر: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني

هذه الوحدة تعد هي النص المؤسس لعلم الاجتماع الاستخلافي السنني، لأنها تقدم عناصر لا تجتمع بهذا النسق في أي موضع آخر:

الإنسان كائن مستخلف لا مجرد كائن اجتماعي.

المعرفة تسبق السلطة، والوظيفة تسبق الامتياز.

العمران رسالة أخلاقية، لا مجرد تراكم مادي.

الحرية شرط للمسؤولية، والمسؤولية شرط للعمران.

التاريخ يبدأ بالهداية، ويمر بالابتلاء، ويظل مفتوحًا للإصلاح.

ومن هنا يمن اننقترح إضافة مفهوم تأسيسي جديد وهو:

"الدورة الاستخلافية للعمران"

الهداية

↓

التعليم

↓

الاستخلاف

↓

الحرية المسؤولة

↓

الابتلاء

↓

المراجعة والتوبة

↓

تجدد العمران

وهذا المفهوم قد يصبح أحد المفاهيم المركزية في النسق المعرفي الاستخلافي، لأنه لا يقتصر على تفسير قصة آدم، بل يمكن استخدامه إطارًا لتحليل مسارات الأفراد، والمؤسسات، والأمم، مع ضرورة اختباره في بقية القرآن الكريم وفي الخبرة التاريخية، حتى لا يتحول من فرضية قرآنية مستنبطة إلى تعميم غير ممحص.

وأعتقد أن هذه نقطة منهجية جديدة ينبغي أن نثبتها منذ البداية.

الوحدة المضمونية الرابعة

بنو إسرائيل: دراسة قرآنية في إخفاق المشروع الاستخلافي

تحليل الآيات(123–40)

الفرضية المركزية

لا يعرض القرآن تاريخ بني إسرائيل لمجرد العظة، وإنما يقدم أول دراسة حضارية تطبيقية لسنن قيام الأمم وانحرافها وسقوطها، حتى تتجنب الأمة المسلمة إعادة إنتاج الأخطاء نفسها. وهذه مرحلة نرى أنها تمثل أول انتقال في السورة من تأسيس النظرية إلى نقد النماذج التاريخية، فمن الآية (٤٠) يبدأ القرآن أول دراسة حضارية في التاريخ، وهي دراسة تجربة بني إسرائيل.

ومن منظور مشروعنا، فإن هذه ليست مجرد قصة أمة سابقة، وإنما دراسة حالة (Case Study) لنموذج استخلافي أخفق في الوفاء بشروط الاستخلاف.

أولاً: موقع هذه الوحدة في البناء العام للسورة

بعد أن وضع القرآن الأساس النظري للاستخلاف في قصة آدم، انتقل مباشرة إلى أول تجربة تاريخية، وهذا الانتقال بالغ الدلالة، فالقرآن لا يريد أن يبقى الاستخلاف فكرة مجردة، بل يريد أن يري الإنسان كيف يعمل هذا القانون في التاريخ.

إذن أصبح لدينا تسلسل واضح:

النظرية

↓

النموذج التاريخي

↓

بناء الأمة الجديدة

وهذا هو البناء الحقيقي لسورة البقرة.

ثانياً: لماذا اختار القرآن بني إسرائيل؟

قد يظن القارئ أن السبب هو كثرة ذكرهم في القرآن.

لكن من منظور التحليل المضموني يبدو السبب أعمق.

إن بني إسرائيل كانوا أمة حملت رسالة إلهية متكاملة، وأقيم لها مجتمع، وشريعة، وقيادة، وتجربة تاريخية طويلة.

أي أنهم يمثلون تجربة كاملة للاستخلاف الجماعي.

ولهذا أصبحت تجربتهم مرجعًا لفهم السنن.

ثالثاً: من التاريخ إلى السنن

وهنا نصل إلى قاعدة منهجية أرى أنها من أهم ما يمكن أن يقدمه مشروعنا.

فالقرآن لا يروي التاريخ، بل يستخرج منه السنن، وهذا فرق جوهري، فالحدث التاريخي ينتهي، أما السنة فتبقى، ولهذا فإن القرآن لا يريد من الأمة أن تحفظ الوقائع، بل أن تكتشف القوانين التي أنتجتها.

ويمكن أن نطلق على هذا:

المنهج السنني في قراءة التاريخ.

رابعاً: مراحل التجربة الإسرائيلية

إذا جمعنا الآيات نجد أن القرآن يرسم دورة حضارية كاملة.

المرحلة الأولى

الاصطفاء: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم...﴾

المرحلة الثانية

الميثاق.

المرحلة الثالثة

التمكين.

المرحلة الرابعة

الانحراف.

المرحلة الخامسة

العقوبة.

المرحلة السادسة

فرص الإصلاح.

المرحلة السابعة

تكرار الانحراف.

وهذا الترتيب ليس مجرد تاريخ.

بل نموذج سنني يتكرر في كل الحضارات.

خامساً: مفهوم الميثاق

من أخطر المفاهيم في هذه الوحدة:

الميثاق.

فالقرآن يكرر:

الميثاق.

العهد.

الوعد.

النقض.

وهذا يعني أن العمران لا يقوم على القوة فقط.

بل يقوم على الالتزام.

ومن هنا نقترح إدخال مفهوم جديد إلى النسق.

العقد الاستخلافي.

ويعرف بأنه:

الالتزام الأخلاقي والمعرفي الذي يربط الإنسان بالله، ويترتب عليه قيام مسؤوليته في عمارة الأرض.

ثم يمتد هذا العقد ليشمل العلاقات بين البشر.

سادساً: أخطر مظاهر الانحراف

من خلال الآيات يمكن استخراج مجموعة من أنماط الانحراف الحضاري.

منها:

نسيان النعمة.

تحريف الكلمة.

نقض العهد.

قتل المصلحين.

التلاعب بالأحكام.

تقديس الشكل على حساب المقصد.

ضعف الإرادة.

الجدل العقيم.

التعلق بالماديات.

رفض التجديد.

وهنا نلاحظ أن القرآن يركز على الانحراف الداخلي قبل العدو الخارجي.

سابعاً: السنن المستنبطة

السنة السابعة

سنة الميثاق

لا يستمر الاستخلاف إلا بالمحافظة على الميثاق الذي تقوم عليه العلاقة بين المرجعية الإلهية والسلوك الإنساني.

السنة الثامنة

سنة الانحراف التدريجي

لا تنهار الأمم دفعة واحدة، وإنما تبدأ بانحرافات صغيرة في القيم، ثم تتراكم حتى تتحول إلى أزمة حضارية شاملة.

السنة التاسعة

سنة تكرار الاختبار

إذا لم تستفد الأمة من الابتلاء الأول، أعادت السنن اختبارها في صور جديدة حتى يتحقق التعلم أو يقع الانهيار.

وهذه سنة تحتاج إلى استقراء واسع في القرآن كله.

ثامناً: النموذج العمراني

يمكن رسم الدورة الحضارية كما يلي:

النعمة

↓

الميثاق

↓

التمكين

↓

الانحراف

↓

الإنذار

↓

الإصلاح أو الانهيار

وهذا النموذج سيتكرر بصورة أو بأخرى في قصص الأمم الأخرى.

تاسعاً: الامتداد الموضوعي في القرآن

إن قصة بني إسرائيل لا تنحصر في سورة البقرة، بل تتكامل مع مواضع أخرى، منها:

سورة المائدة، في بيان نقض المواثيق وتحمل المسؤولية.
سورة الأعراف، في استعراض تاريخهم مع الأنبياء.
سورة الإسراء، في عرض سنتي الإفساد والعقوبة.
سورة الجمعة، في بيان العلاقة بين حمل الرسالة والعمل بها.
وسنجمع هذه المواضع لاحقًا في دراسة موضوعية بعنوان:
"النموذج الإسرائيلي في القرآن: دراسة سننية في صعود الأمم وانحرافها".
عاشراً: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني
هذه الوحدة تؤسس لما يمكن أن نسميه:
سوسيولوجيا الانحراف الحضاري.
فالقرآن لا يفسر سقوط الأمم بعامل واحد، بل يكشف عن تفاعل القيم، والمؤسسات، والقيادة، والوعي، والالتزام بالميثاق، وهذا يقتضي في مشروعنا بناء نموذج متعدد العوامل، يتجنب الاختزال الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي.
كما يمكن إضافة مفهوم جديد إلى المعجم الاستخلافي، هو:
"الذاكرة الحضارية"
ويُقصد بها:
الرصيد الجمعي الذي تحتفظ به الأمة من خبراتها، ومواثيقها، وقيمها، وتجاربها، والذي يوجه سلوكها عبر الزمن.
ومن منظور سورة البقرة، فإن أزمة بني إسرائيل ليست فقدان الأحداث، بل فقدان القدرة على تحويل الذاكرة إلى التزام عملي، وعندما تنفصل الذاكرة عن السلوك، يتحول التاريخ إلى سرد، ولا يعود مصدرًا للهداية.
ملاحظة منهجية قد ستشكل إضافة أصيلة للمشروع
كلما تقدمنا في سورة البقرة، يتأكد لنا أن القرآن يستخدم ثلاث أدوات متكاملة:
التأسيس النظري (قصة آدم).
دراسة الحالة التاريخية (بنو إسرائيل).
بناء النموذج البديل (إبراهيم عليه السلام والأمة الوسط).

وهذا ليس مجرد ترتيب موضوعات، بل منهج قرآني في صناعة الحضارة، ويمكن أن نطلق عليه:

المنهج التداولي للاستخلاف

حيث ينتقل الخطاب من بيان المبدأ، إلى اختباره في التاريخ، ثم إلى تقديم النموذج القادر على استئناف العمران، وهذا سيكون أحد أهم الاكتشافات المنهجية في مشروعنا، إذا أثبتناه باستقراء السورة ثم القرآن كله.

والآن نصل إلى القلب الحقيقي لسورة البقرة، بل إلى ما أحسب أنه يمثل محور السورة كلها، فمن الآية (١٢٤) يبدأ الانتقال من نقد التجربة الإسرائيلية إلى تأسيس النموذج الإبراهيمي، وهذا الانتقال ليس انتقالًا تاريخيًا، بل هو إعلان قرآني عن انتقال قيادة المشروع الاستخلافي، وأحسب أن كيفية هذا الانتقال قد تمثل أحد أهم الاكتشافات المنهجية في المشروع كله.

الوحدة المضمونية الخامسة: إبراهيم عليه السلام كمثل لبناء النموذج الاستخلافي

دراسة تحليلية للآيات(124–141)

الفرضية المركزية

تمثل هذه الوحدة إعلانًا قرآنيًا عن انتقال مركز الاستخلاف من "الوراثة التاريخية" إلى "الاستحقاق السنني"، ومن الانتماء العرقي إلى الكفاءة الإيمانية والعمرانية.

وهذه الفرضية – في تقديرنا – من أهم ما يمكن أن يقدمه مشروعنا.

أولاً: موقع هذه الوحدة في بناء السورة

إذا تأملنا بناء سورة البقرة نجد أنها تسير وفق منطق دقيق:

آدم

↓

تأسيس فكرة الاستخلاف.

بنو إسرائيل

↓

عرض تجربة أمة حملت الاستخلاف ثم أخلت بشروطه.

إبراهيم

↓

تأسيس النموذج الصحيح للاستخلاف.

إذن فالسورة لا تعرض ثلاث قصص مستقلة، بل تبني نظرية كاملة في تداول الاستخلاف الحضاري.

ثانياً: الابتلاء قبل الإمامة

قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾

وهذه الآية تؤسس لما يمكن أن يكون أول قانون في القيادة الحضارية.

فالقرآن لم يقل:

اختار إبراهيم.

بل قال:

ابتلاه... فأتم.

أي أن الإمامة جاءت بعد الاختبار، وهذا يعني أن القيادة في المنهج القرآني ليست امتيازًا، بل نتيجة لاستيفاء شروط موضوعية.

ثالثاً: هل تدل الآية على أن الإمامة مقام زائد على النبوة؟

من أدق المسائل التي ينبغي تحريرها هنا أن إبراهيم عليه السلام كان نبيًا قبل هذه الآية، ثم قال الله له: ﴿إني جاعلك للناس إمامًا﴾

ومن هنا ذهب عدد من العلماء إلى أن الإمامة هنا مقام زائد على النبوة من حيث قيادة الناس وتحقيق النموذج في الواقع، وإن اختلفوا في طبيعة هذه الزيادة.

وفي إطار مشروعنا، لا نتناول المسألة من زاوية الجدل الكلامي، بل من زاوية وظيفتها العمرانية.

فالإمامة هنا تعني:

تحول الرسالة إلى مشروع حضاري يقود الناس.

رابعاً: لاستخلاف ليس وراثة

بعد أن منح الله إبراهيم عليه السلام مقام الإمامة، توجه إلى ربه بدعاء يحمل بُعدًا فطريًا، فقال:

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

وتكشف هذه الآية عن أصل قرآني عظيم، وهو أن العهد الإلهي في القيادة والاصطفاء والاستخلاف لا يقوم على مجرد النسب أو الانتماء العائلي، وإنما على الاستقامة والعدل

وتحقيق شروط العهد. فالقرابة قد تكون سببًا في التربية والتهيئة، لكنها ليست سببًا كافيًا لنيل مقام الاستخلاف.

ويؤكد القرآن هذه السنة في مواضع متعددة، منها موقف نوح عليه السلام مع ابنه، حين ظن أن رابطة النسب تكفي لدخوله في النجاة، فجاءه البيان الإلهي:

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦).

فنفى القرآن هنا أهلية الانتماء الرسالي مع بقاء رابطة النسب، مبينًا أن المعيار هو الإيمان والعمل، لا مجرد القرابة.

وكذلك في شأن امرأة لوط عليه السلام، إذ جعلها القرآن مثالًا على أن المصاحبة الأسرية لنبي من أنبياء الله لا تمنح صاحبها النجاة إذا فقد شرط الإيمان، قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠).

وتتضافر هذه الآيات لتقرر سنة قرآنية كلية، مفادها أن الاستخلاف والاصطفاء والقيادة الرسالية لا تُورث بالدم، وإنما تُنال بالإيمان، والعدل، وتحقيق شروط العهد الإلهي. ولذلك جاء الجواب الإلهي لإبراهيم عليه السلام بصيغة عامة مطلقة:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾،

فلم ينفِ امتداد العهد في الذرية مطلقًا، وإنما نفى أن يناله من اتصف بالظلم، ليبقى الايمان والاستقامة والعدل هما معايير الاستحقاق، لا النسب وحده.

وهنا يقرر القرآن مبدأً بالغ الأهمية، إن الاستخلاف لا ينتقل بالدم، ولا بالعرق، ولا بالنسب، بل بالشروط، وهذا في تقديرنا يمثل أحد أعظم المبادئ السياسية والاجتماعية في القرآن.

وفي ضوء المشروع المعرفي القرآني، تكشف هذه الآيات عن سنة حضارية في بناء القيادات، وهي أن الشرعية لا تستند إلى الوراثة أو الامتيازات الأسرية، وإنما إلى تحقق شروط العهد الإلهي، ومن ثم فإن المجتمع العمراني الذي يقدمه القرآن هو مجتمع الكفاءة القيمية لا الامتياز الوراثي، حيث تتأسس القيادة على الأمانة والعدل والصلاح، لا على الانتماء العائلي أو الاجتماعي.

خامساً: قانون الاستحقاق الحضاري

ويمكن أن نصوغ منه القانون الآتي:

لا يستمر الاستخلاف بالانتساب، وإنما بالاستحقاق.

فالانتماء قد يمنح الإنسان فرصة، لكنه لا يمنحه الشرعية.

أما الشرعية فتقوم على:

الإيمان.

والعدل.

والوفاء بالميثاق.

والقيام بوظيفة العمران.

سادساً: الكعبة مركز العمران

بعد ذلك مباشرة ينتقل القرآن إلى بناء البيت، وليس هذا انتقالًا عارضًا، بل لأن العمران يحتاج إلى:

إنسان.

ثم قيادة.

ثم مؤسسة.

والبيت الحرام هو أول مؤسسة عمرانية عالمية.

ولذلك يصفه القرآن بأنه:

مثابة للناس وأمنًا.

فهو ليس مجرد مكان للعبادة، بل مركز لإنتاج:

الأمن، والوحدة، والهوية، والتعارف.

سابعاً: الدعاء العمراني

من اللافت أن أدعية إبراهيم كلها ذات مضمون حضاري.

فهو يدعو:

بالأمن– وبالرزق– وبعثة الرسول– وصلاح الذرية.

وليس هذا مصادفة.

إذ إن إبراهيم عليه السلام يعلم أن الحضارة لا تقوم بالدعاء المجرد، ولا بالعمل المجرد، بل بتكامل السنن المادية والسنن الإيمانية.

ثامناً: الأمة المسلمة

ثم يأتي الدعاء: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾

وهنا يظهر لأول مرة في السورة مفهوم:

الأمة.

لكنها ليست جماعة عرقية، بل جماعة رسالة، أي أن الأمة في القرآن مفهوم حضاري، وليست مفهومًا إثنيًا.

تاسعاً: ملة إبراهيم

تختم الوحدة بقوله تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أن:

الملة.

ليست مجرد العقيدة.

بل هي:

الطريق الحضاري الكامل، الذي يجمع:

العقيدة– والقيم والعبادة– والعمران– والقيادة.

عاشراً: السنن المستنبطة

السنة العاشرة

سنة الابتلاء قبل التمكين

لا يُؤهَّل الإنسان أو الأمة لحمل أمانة الاستخلاف إلا بعد اجتياز ابتلاءات تُظهر صدقها وكفاءتها.

السنة الحادية عشرة

سنة الاستحقاق

استمرار الاستخلاف مرهون بتحقق شروطه، ولا يضمنه نسب، ولا تاريخ، ولا انتساب ديني مجرد.

السنة الثانية عشرة

سنة المؤسسة العمرانية

لا يستقر المشروع الاستخلافي حتى يتحول إلى مؤسسات تحفظ رسالته وتحقق وظائفه عبر الأجيال.

الحادي عشر: النموذج العمراني

يمكن تمثيل البناء الذي ترسمه هذه الوحدة كما يأتي:

الابتلاء

↓

الاستحقاق

↓

القيادة (الإمامة)

↓

المؤسسة (البيت)

↓

الأمة

↓

استمرار الرسالة

وهذا النموذج قد يمثل أول نظرية قرآنية في بناء الحضارات من منظورنا.

الثاني عشر: الامتداد الموضوعي في القرآن

تتكامل هذه الوحدة مع مواضع عديدة، منها:

سورة إبراهيم، التي تبرز دعاء إبراهيم ومشروعه الرسالي.

سورة الحج، في بيان وظيفة البيت الحرام وشعائره.

سورة الأنعام، في تأكيد اتباع ملة إبراهيم الحنيفية.

سورة الممتحنة، في تقديم إبراهيم أسوة في الولاء لله والثبات على الرسالة.

وسنجمع هذه النصوص لاحقًا في دراسة موضوعية بعنوان:

"إبراهيم عليه السلام: النموذج المؤسس للعمران الاستخلافي".

الثالث عشر: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني

وأحسب أننا هنا أمام أحد أهم النصوص المؤسسة للنظرية كلها، فهي تنقلنا من سوسيولوجيا الانحراف الحضاري (في قصة بني إسرائيل) إلى سوسيولوجيا البناء الحضاري.

ومن هذه الآيات يمكن استخراج خمسة مبادئ كبرى:

الشرعية تقوم على الاستحقاق لا على الوراثة.

القيادة تُبنى بالابتلاء والوفاء، لا بالادعاء.
المؤسسات تحفظ الرسالة عبر الزمن.
الأمة رابطة قيمية ورسالية قبل أن تكون رابطة نسب أو جغرافيا.
الهوية الحضارية تُبنى حول رسالة مشتركة ومؤسسات جامعة.
ونقترح هنا مفهومًا جديدًا للمشروع، وهو:
"التداول الاستخلافي"
ويُقصد به:
انتقال مسؤولية الاستخلاف وقيادة العمران بين الجماعات والأمم وفق سنن الاستحقاق والوفاء بالميثاق، لا وفق الامتيازات الموروثة أو التفوق العرقي.
ونحسب أن هذا المفهوم أعمق من مفهوم "تداول الأيام"؛ لأنه يفسر انتقال الرسالة الحضارية نفسها، ويصلح أن يكون أحد المفاهيم المركزية في النسق المعرفي الاستخلافي، مع ضرورة استكمال استقرائه في بقية القرآن قبل اعتماده بوصفه مفهومًا مؤسسًا.
علما بان هذا المشروع يميز – بوصفه فرضية بحثية قيد الاستقراء – بين مفهوم «تداول الأيام» الوارد في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، الذي يدل على تعاقب أحوال القوة والضعف والنصر والهزيمة في حركة المجتمعات، وبين مفهوم أوسع يُستفاد من مجموع القصص القرآني، يتمثل في انتقال العهد والقيادة والرسالة الحضارية من جماعة إلى أخرى وفق سنن إلهية تحكمها معايير الإيمان والعدل والاستقامة، كما يظهر في انتقال الإمامة من إبراهيم إلى من استحقها من ذريته، وفي انتقال الرسالة بين الأمم، ونزع الاصطفاء ممن أخلّ بشروطه ، ويقترح المشروع إطلاق مصطلح «التداول الحضاري الاستخلافي» على هذه السنة، مع التأكيد أن اعتمادها بوصفها مفهومًا مؤسسًا يقتضي استقراءً موضوعيًا لجميع الآيات ذات الصلة قبل إقرارها نهائيًا ضمن البناء الاصطلاحي للمشروع .
وتطويرًا لمنهجنا، بدءًا من الوحدات القادمة، سنضيف في نهاية كل وحدة قسمًا ثابتًا بعنوان:
"الحوار مع الأدبيات المعاصرة"
لا نقصد بذلك إخضاع القرآن للنظريات الحديثة، وإنما لمقارنة ما نستنبطه من السنن والمفاهيم مع ما توصلت إليه العلوم الاجتماعية والسياسية والإدارية. فمثلًا، عند حديثنا عن الاستحقاق يمكن مقارنته بمفاهيم الشرعية السياسية، وعند حديثنا عن المؤسسة العمرانية بمباحث بناء

المؤسسات، مع إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف، هذا سيجعل المشروع أكثر قدرة على الدخول في الحوار الأكاديمي العالمي، مع المحافظة على استقلال مرجعيته القرآنية.

والآن نصل – من وجهة نظري – إلى المحور الذي تدور حوله سورة البقرة كلها، وهو الآيات (١٤٢-١٥٢)، آيات تحويل القبلة. وأود أن أسجل هنا ملاحظة منهجية أرى أنها ستكون من أهم إضافات مشروعنا.

إن معظم كتب التفسير تناولت هذه الآيات باعتبارها تتحدث عن حكم تحويل القبلة وأسبابه، وهذا صحيح، لكنها – من وجهة نظري – لا تمثل القضية المركزية في هذا المقطع، وإنما القضية المركزية هي:

إعلان استقلال الأمة المستخلفة وبناء هويتها الحضارية.

فإذا كانت قصة آدم قد أسست فلسفة الاستخلاف، وقصة بني إسرائيل كشفت أسباب إخفاق الاستخلاف، وقصة إبراهيم أرست معايير الاستحقاق، فإن تحويل القبلة يمثل لحظة ميلاد الأمة الجديدة، وأحسب أننا هنا أمام أحد أهم مفاصل القرآن كله.

الوحدة المضمونية السادسة

تحويل القبلة وإعلان الهوية الحضارية للأمة المستخلفة: دراسة تحليلية للآيات(142–152)

الفرضية المركزية

لا تتحدث هذه الآيات في نظرنا عن تغيير اتجاه الصلاة فحسب، بل عن انتقال الأمة من مرحلة التكوين إلى مرحلة الاستقلال الحضاري، وبناء شخصيتها الرسالية التي تؤهلها لحمل أمانة الاستخلاف.

أولاً: موقع هذه الوحدة في البناء العام للسورة

يمكن أن نرسم البناء الكلي حتى هذه المرحلة على النحو الآتي:

آدم

↓

الاستخلاف

↓

بنو إسرائيل

↓

اختبار النموذج

↓
إبراهيم
↓
النموذج المؤسس
↓
تحويل القبلة
↓
ولادة الأمة

إذا نحن لسنا أمام موضوع جديد، بل أمام اكتمال الحلقة الأولى من مشروع الاستخلاف.

ثانياً: لماذا كانت القبلة قضية كبرى؟

لو كان المقصود مجرد الاتجاه الجغرافي لما احتل هذا الحدث هذا القدر من الآيات.

فالقرآن يربط القبلة بـ:

السفهاء– الابتلاء– الشهادة– الوسطية– الهداية– النعمة.

وهذا يدل على أن القبلة رمز لحقيقة أكبر.

إنها تعلن:

من أين تستمد الأمة مركزها؟

فكل حضارة تحتاج إلى: مرجعية ومركز ورمز جامع، ذاكرة مشتركة.

والقبلة تجمع هذه الوظائف جميعًا.

ثالثاً: القبلة بوصفها مؤسسة رمزية

ونقترح هنا مفهومًا جديدًا في النسق المعرفي، هو:

المؤسسة الرمزية.

ويقصد بها:

المؤسسة التي لا تؤدي وظيفة عملية فحسب، بل توحد المعاني، وتصنع الهوية، وتحفظ الذاكرة الحضارية، وتربط الجماعة برسالتها.

فالبيت الحرام ليس مجرد مكان للصلاة، بل مركز لوحدة الأمة.

كما أن اللغة، والرموز الجامعة، والشعائر الكبرى، تدخل ضمن المؤسسات الرمزية التي تحفظ تماسك المجتمع.

رابعاً: الوسطية

قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾، وهذه الآية من أكثر الآيات تعرضًا للاختزال.

فالوسطية ليست الاعتدال السلوكي فقط بل هي:

الموقع الحضاري الذي يؤهل الأمة للشهادة على الناس.

فالوسط هنا يعني:

التوازن- العدل- التكامل- القدرة على الربط بين الدنيا والآخرة- الجمع بين الروح والمادة- الجمع بين الفرد والجماعة.

إذا الوسطية وظيفة حضارية، وليست مجرد خلق فردي.

خامساً: الشهادة على الناس

تقول الآية: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، وهذه من أعظم آيات المشروع الاستخلافي، فالشهادة ليست مجرد تبليغ، ولا مجرد رقابة.

بل هي:

تقديم نموذج حضاري يستطيع الناس أن يقيسوا به نجاحهم أو إخفاقهم.

فالأمة تشهد:

بعلمها- وبعدلها- وبقيمها- وبعمرانها.

قبل أن تشهد بكلامها.

سادساً: الابتلاء بالتحول

قال تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول...﴾، إذا التحول نفسه كان اختبارًا.

وهنا نكتشف سنة جديدة.

فكل انتقال حضاري يسبقه امتحان.

ولذلك لا تنتقل الأمم إلى مرحلة جديدة إلا إذا أثبتت قدرتها على تجاوز اختبارات التحول.

سابعاً: العلاقة بين الهوية والطاعة

لم يعلل القرآن تحويل القبلة باعتبارات سياسية، ولا قومية، ولا تاريخية.

بل ربطها بطاعة الرسول.

وهذا يعني أن هوية الأمة تبنى على:

الوحي، لا على ردود الأفعال، ولا على الصراع مع الآخرين، وهذا يمكن أن يكون مفهوم بالغ الأهمية.

ثامناً: السنن المستنبطة

السنة الثالثة عشرة

سنة الاستقلال الحضاري

لا تنهض الأمة برسالتها حتى تمتلك هويتها المستقلة، ومنظومتها المرجعية، ورموزها الجامعة، دون أن تنعزل عن الإنسانية أو تتنكر لمشتركها الإنساني.

السنة الرابعة عشرة

سنة الاختبار عند التحول

كل انتقال من مرحلة حضارية إلى أخرى يسبقه ابتلاء يكشف صدق الالتزام واستعداد الجماعة لتحمل مسؤولياتها الجديدة.

السنة الخامسة عشرة

سنة الشهادة الحضارية

لا تتحقق الشهادة على الناس بمجرد الانتماء، وإنما بإقامة نموذج عملي يجسد قيم العدل والرحمة والصدق والعمران.

تاسعاً: النموذج العمراني

يمكن تصور النموذج العمراني كما يأتي:

المرجعية

↓

الهوية

↓

الاختبار

↓

الطاعة الواعية

↓

الوسطية

↓

الشهادة

↓

القيادة الحضارية

وهذا النموذج يبين أن القيادة ليست بداية الطريق، بل ثمرة اكتمال بناء الأمة.

عاشراً: الامتداد الموضوعي في القرآن

هذه المعاني ترد وتتسع في مواضع متعددة، منها:

سورة الحج، في الربط بين الاجتباء والشهادة على الناس.

سورة المائدة، في بيان العدل بوصفه شرطًا للشهادة.

سورة آل عمران، في وصف الأمة بأنها خير أمة لإقامتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سورة الأنفال، في بناء الجماعة المؤمنة ووحدتها.

وسنعود إلى هذه المواضع عند إعداد دراسة موضوعية بعنوان:

"الهوية والشهادة في القرآن الكريم: دراسة سننية عمرانية".

الحادي عشر: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني

إن هذه الوحدة في نظرنا قد تؤسس لمجال جديد يمكن أن نطلق عليه:

سوسيولوجيا الهوية الحضارية.

فالقرآن لا يعامل الهوية بوصفها انتماءً جامدًا، بل يعدها بنية مركبة تتكون من:

مرجعية وذاكرة ورموز وقيم ورسالة وممارسة.

وبذلك تصبح الهوية قوة دافعة للعمران، لا مجرد علامة تمييز عن الآخرين، وتؤسس مجموعة الرموز والشعائر والمؤسسات والمعاني المشتركة التي تمنح الأمة تماسكها الداخلي، وتدعم قدرتها على أداء رسالتها الاستخلافية، وتبين أن المهمة الاساسية ليست إنتاج المكانة الاجتماعية فقط، بل بناء الجماعة الرسالية وحفظ قدرتها على الشهادة والعمران.

الحوار مع الأدبيات المعاصرة

وهنا أرى أن نبدأ بالفعل في إدخال القسم الذي أربناه سابقًا، فمن المفيد مقارنة هذه الرؤية بما طرحته نظريات الهوية في علم الاجتماع والعلوم السياسية، فبعض الأدبيات تفسر الهوية تفسيرًا ثقافيًا، أو قوميًا، أو بنائيًا، بينما تكشف هذه الآيات عن تصور أكثر تركيبًا؛ إذ تجعل الهوية ناتجة عن تفاعل المرجعية، والميثاق، والرموز الجامعة، والرسالة، والممارسة.

ولا يعني ذلك رفض ما أنتجته الدراسات الحديثة، بل إدخاله في حوار نقدي، بحيث نستفيد من أدواته التحليلية، مع إعادة تأطيرها داخل النسق القرآني الاستخلافي، وأرى أن هذا المسار سيمنح المشروع قدرة على مخاطبة الباحثين في العلوم الإنسانية، لا بوصفه خطابًا وعظيًا، بل بوصفه نموذجًا معرفيًا قابلًا للنقاش والاختبار والتطوير.

والآن نصل إلى القسم الذي تبدأ فيه سورة البقرة بتحويل المبادئ الكبرى التي أرستها في الوحدات السابقة إلى برنامج عملي لبناء المجتمع المستخلف، وهذه نقطة في غاية الأهمية؛ إذ إن القرآن بعد أن أسس المرجعية، والاستخلاف، والنموذج الإبراهيمي، والهوية الحضارية، ينتقل إلى بناء الإنسان والمجتمع القادرين على حمل هذه الرسالة.

وهنا يتبين لنا إن سورة البقرة ليست سورة أحكام، وإنما سورة بناء الحضارة، فالأحكام الواردة فيها ليست متجاورة بلا رابط، وإنما تشكل منظومة مؤسساتية للعمران، فإذا صح هذا الفهم، فإنه سيغير طريقة قراءتنا للسورة كلها.

الوحدة المضمونية السابعة

بناء المجتمع المستخلف: دراسة تحليلية للآيات(153–242)

الفرضية المركزية

تنتقل السورة في هذه الوحدة من تأسيس الهوية إلى بناء المجتمع، فتقدم منظومة متكاملة لإعداد الإنسان، والأسرة، والمؤسسات، والعلاقات الاجتماعية، باعتبارها البنية التحتية للعمران الاستخلافي.

أولاً: موقع هذه الوحدة في البناء الكلي للسورة

يمكن الآن أن نرى مسار السورة بوضوح من خلال الرسم التالي:

الهداية

↓

الاستخلاف

↓

النموذج التاريخي

↓

النموذج الإبراهيمي

↓

الهوية الحضارية

↓

بناء المجتمع

↓

العمران

فلم يعد الحديث عن المبادئ المجردة، بل عن كيفية تحويلها إلى واقع اجتماعي.

ثانياً: لماذا يبدأ البناء بالصبر والصلاة؟

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾

وهنا تبرز اسئلة منهجية:

لماذا لم يبدأ القرآن بالتشريعات؟

أو بالتنظيم الإداري؟

أو بالاقتصاد؟

لأن بناء المجتمع يبدأ ببناء الإنسان.

فالإنسان هو حامل المؤسسة، وإذا انهار الإنسان، انهارت المؤسسة مهما بلغت دقة أنظمتها، ولهذا يقرر القرآن أن أول حاجات المجتمع المستخلف ليست الموارد الاقتصادية، بل الحاجات النفسية والروحية، وتعد هذه الحاجات بمثابة الطاقة الروحية والأخلاقية التي تمنح المجتمع القدرة على الصمود، والتعاون، والاستمرار في أداء رسالته.

ثالثاً: الابتلاء بوصفه قانوناً عمرانياً

تقول الآيات: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع...﴾، وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أن القرآن لا يقدم الابتلاء باعتباره حادثًا استثنائيًا، بل قانونًا من قوانين العمران، فالاستقرار الدائم ليس هو السنة.

بل التداول والاختبار والتحدي.

ومن هنا فإن إدارة الأزمات تصبح جزءًا من البناء الحضاري.

رابعاً: تحويل المحنة إلى مورد حضاري

لا يكتفي القرآن بذكر الابتلاء، بل يبين كيف تتحول المحنة إلى فرصة للنمو.

من خلال:

الصبر والذكر والاسترجاع والثقة بوعد الله، وهذا يعني أن القرآن يقدم نظرية في إدارة الصمود الحضاري، وهذه تعد إضافة مهمة إلى مشروعنا.

خامساً: الشعائر وبناء المجتمع

بعد ذلك تأتي آيات:

الصفا والمروة والحج.

وليست هذه مجرد عبادات فردية، بل مؤسسات اجتماعية.

إذ تحقق:

وحدة الأمة– التعارف– تداول الخبرات– تجديد الهوية– ترسيخ الذاكرة الجماعية.

ومن هنا ينبغي أن نقرأ الشعائر باعتبارها جزءًا من البنية المؤسسية للمجتمع.

سادساً: القصاص

ثم تأتي آيات القصاص.

والسؤال: لماذا جاءت هنا؟

لأن المجتمع لا يقوم على الأخلاق وحدها، بل يحتاج إلى العدالة، فالقصاص ليس مجرد عقوبة، بل مؤسسة لحماية الحياة، ولهذا يقول القرآن: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، فالعدالة ليست نهاية العمران، بل شرط بقائه.

سابعاً: الوصية والأسرة

ثم ينتقل القرآن إلى:

الوصية– والصيام– والدعاء– والجهاد– والإنفاق– والزواج– والطلاق– والرضاعة.

وإذا نظرنا إليها متفرقة ضاع الرابط، أما إذا نظرنا إليها ضمن النسق وجدنا أنها تبني مؤسسات المجتمع الأساسية:

مؤسسة الأسرة– مؤسسة الاقتصاد– مؤسسة العدالة– مؤسسة التكافل– مؤسسة العبادة– مؤسسة الدفاع.

وهكذا يتحول التشريع إلى هندسة اجتماعية.

ثامناً: السنن المستنبطة

السنة السادسة عشرة

سنة بناء الإنسان قبل المؤسسة

لا تؤدي المؤسسات وظائفها الحضارية إلا إذا قام عليها إنسان مؤهل إيمانيًا وأخلاقيًا ومعرفيًا .

السنة السابعة عشرة

سنة الابتلاء البنائي

الأزمات ليست نقيض العمران، بل قد تكون وسيلة لإعادة بنائه وتقوية عناصره إذا أُديرت وفق الهداية والسنن.

السنة الثامنة عشرة

سنة التكامل المؤسسي

العمران لا يبنى بمؤسسة واحدة، بل بتكامل الأسرة، والعبادة، والاقتصاد، والقضاء، والتكافل، والدفاع في إطار مرجعية واحدة.

تاسعاً: النموذج العمراني

يمكن تمثيل البناء الذي تقدمه هذه الوحدة كما يأتي:

بناء الإنسان

↓

بناء الأسرة

↓

بناء المجتمع

↓

بناء المؤسسات

↓

تحقيق العدالة

↓

استقرار العمران

وهذا التسلسل يعبر عن منطق السورة في الانتقال من الفرد إلى الحضارة.

عاشراً: الامتداد الموضوعي في القرآن

تتكامل هذه الوحدة مع مواضع كثيرة، منها:

سورة النساء، في بناء الأسرة والعدالة الاجتماعية.

سورة المائدة، في بناء النظام القانوني والأخلاقي.
سورة الأنفال، في إعداد المجتمع والدفاع عنه.
سورة الحجرات، في تنظيم العلاقات الاجتماعية وبناء الثقة.
ويمكن ان تجمع هذه المواضع لاحقًا في دراسة موضوعية بعنوان:
"المؤسسات العمرانية في القرآن الكريم".
الحادي عشر: الإضافة إلى علم الاجتماع الاستخلافي السنني
أحسب أن هذه الوحدة تقدم تصورًا مختلفًا عن كثير من النظريات الاجتماعية الحديثة؛ فهي لا تجعل المؤسسة كيانًا قانونيًا مجردًا، ولا تنظر إلى الفرد بمعزل عن الجماعة، وإنما تبني المجتمع من خلال دوائر متداخلة:
الإنسان– الأسرة– الجماعة– المؤسسة– الأمة.
ولا يمكن فصل أي دائرة عن الأخرى دون الإخلال بالبناء كله.
ومن هنا يبدو لنا تشكل مفهوم جديد في المشروع، هو:
"التكامل المؤسسي الاستخلافي"
ويُعرَّف بأنه:
الترابط الوظيفي بين مؤسسات المجتمع المختلفة بحيث يؤدي كل منها دوره في تحقيق مقاصد الاستخلاف، دون أن تعمل بمعزل عن المرجعية أو عن بقية المؤسسات.
وهذا المفهوم يمكن أن يصبح أساسًا لفرع جديد من المشروع هو الإدارة الاستخلافية للمؤسسات، لأن سورة البقرة لا تقدم أحكامًا منفصلة، بل تقدم تصميمًا متكاملًا لبناء المجتمع.
الحوار مع الأدبيات المعاصرة
سنطور حوارنا مع العلوم الاجتماعية هنا بصورة أعمق.
فهذه الوحدة تتيح مقارنة مثمرة مع أدبيات بناء المؤسسات، والمرونة المجتمعية، والحوكمة.
غير أن القراءة القرآنية تضيف بعدًا لا يظهر غالبًا في تلك الأدبيات، وهو أن فاعلية المؤسسة لا تتوقف على التنظيم والكفاءة فحسب، بل على سلامة الإنسان الذي يديرها، وعلى المرجعية القيمية التي توجهها.

وهذا يدعونا إلى عدم تقديم المشروع بوصفه بديلًا يرفض كل ما في العلوم الإنسانية المعاصرة، بل بوصفه إطارًا تفسيريًا أوسع يستوعب ما ثبتت فائدته، ويعيد ترتيب عناصره في ضوء الرؤية القرآنية للاستخلاف والعمران.

ملاحظة منهجية مهمة

ومن خلال ما تم حتى الآن، أرى أننا نقترب من اكتشاف بنية أعمق لسورة البقرة، فهي لا ترتب موضوعاتها بحسب التسلسل الزمني أو الفقهي، بل بحسب مراحل تكوين الحضارة:

تأسيس المرجعية.

بناء الإنسان– تحليل التجارب السابقة– اختيار النموذج المؤسس– بناء الهوية– بناء المجتمع– بناء الاقتصاد والمؤسسات– ترسيخ الإيمان الذي يحفظ المشروع.

وإذا ثبت هذا النسق عند استكمال السورة، فسيكون من أقوى الأدلة على وحدة بنائها الموضوعية، وسيمنح مشروع التحليل المضموني العمراني للقرآن الكريم أساسًا منهجيًا راسخًا يمكن تعميمه على بقية السور.

الوحدة المضمونية الثامنة

ترسيخ الأمة المستخلفة واكتمال البناء العمراني للأمة المستخلفة: (تحليل الآيات ٢٤٣–٢٨٦)

تمهيد الوحدة

تحمل هذه الوحدة عنوانًا يعكس حقيقة البناء الذي تنتهي إليه سورة البقرة، فالآيات (٢٤٣–٢٨٦)، أحسب أنها لا تدور حول أحكام متفرقة، وإنما تبني المجال العام للأمة المستخلفة؛ أي كيف تتحول الجماعة المؤمنة إلى أمة قادرة على إدارة القوة، والمال، والعقيدة، والميثاق.

وبعد أن فرغت سورة البقرة من بناء الإنسان المؤمن، والأسرة المسلمة، والمجتمع المتماسك، تنتقل في هذا المقطع الأخير إلى مستوى أعلى من البناء، هو بناء الأمة المستخلفة بوصفها جماعة تاريخية تحمل رسالة العمران والهداية.

ولذلك فإن الآيات الأخيرة لا تمثل خاتمة وعظية للسورة، وإنما تمثل اكتمال المشروع العمراني الذي بدأ منذ قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾

فإذا كانت الوحدات السابقة قد أسست:

الرؤية الكلية.

والإنسان المؤمن.

والاستخلاف.

والعمران.

والأسرة.

والمجتمع.

فإن هذه الوحدة تؤسس لخمسة أركان كبرى لا يكتمل المجتمع المستخلف إلا بها:

إدارة القوة والتحرير من الخوف.

إدارة المال وبناء الاقتصاد الأخلاقي.

التكافل والإنفاق باعتبارهما ضمانة لاستدامة العمران.

توثيق الحقوق والعلاقات المؤسسية.

الميثاق الإيماني الذي يربط الأمة بالله ويجعلها قادرة على حمل الرسالة.

ومن هنا فإن خاتمة سورة البقرة ليست خاتمة للسورة فحسب، بل هي إعلان اكتمال المنهج الذي يؤهل الأمة للشهادة على الناس، وللانتقال من مرحلة التكوين إلى مرحلة الاستخلاف الحضاري.

الفكرة المركزية للوحدة

يمكن تلخيص الفكرة المركزية لهذه الوحدة في القضية الآتية:

إن الأمة لا تبلغ مرتبة الاستخلاف الحضاري إلا إذا تكامل فيها الأمن، والقوة، والاقتصاد، والعدل، والميثاق الإيماني، بحيث تصبح قادرة على حفظ العمران وتحقيق مقاصد الرسالة.

وبهذا تنتقل سورة البقرة من بناء الفرد إلى بناء الحضارة.

البناء الداخلي للوحدة

الآيات (٢٤٣–٢٨٦) يمكن تقسيمها إلى ستة محاور مترابطة:

أولاً: سنن القوة والتحرير من الخوف:(252–243)

قصة الذين خرجوا من ديارهم– الإحياء بعد الموت– طالوت وجالوت– معايير القيادة– النصر والسنن العسكرية.

المفهوم المركزي: المجتمع لا يحفظ عمرانه إلا بالقوة المنضبطة بالوحي.

ثانياً: الاستخلاف السياسي ونظرية القيادة:(252–247)

اختيار طالوت– شرعية القيادة– معايير الكفاءة– العلاقة بين العلم والقوة.

المفهوم المركزي: القيادة تكليف قائم على الكفاءة والشرعية، لا على الامتياز الطبقي أو الوراثي.

ثالثاً: الاستخلاف الاقتصادي:(274–254)

الإنفاق– مضاعفة الأجر– أخلاق المال– البناء الاقتصادي للأمة.

المفهوم المركزي: المال وظيفة عمرانية، لا غاية استهلاكية.

رابعاً: حماية النظام الاقتصادي:(283–275)

تحريم الربا– كتابة الدين– التوثيق– الشهادة.

المفهوم المركزي: الاقتصاد العادل لا يقوم على الأخلاق وحدها، بل على مؤسسات تحفظ الحقوق وتمنع الظلم.

خامساً: سيادة الله على الكون والمجتمع:(284)

الملك– العلم– المسؤولية.

المفهوم المركزي: العمران كله يجري تحت سلطان الله، ومن هذه المرجعية تستمد الأمة شرعيتها وأخلاقها.

سادساً: الميثاق الختامي للأمة:(286–285)

الإيمان– السمع والطاعة– المسؤولية– الدعاء– طلب العون.

المفهوم المركزي: لا يكتمل الاستخلاف بالقوة والاقتصاد وحدهما، بل يحتاج إلى ميثاق إيماني يجدد صلة الأمة بربها ويضبط حركتها الحضارية.

وأرى أن هذه الوحدة ستكون من أهم وحدات البحث؛ لأنها تمثل الخاتمة النظرية لسورة البقرة، وفيها تتبلور بوضوح معالم النموذج القرآني للأمة المستخلفة، كما أنها ستكون جسرًا منهجيًا للانتقال إلى سورة آل عمران، التي ستنتقل من بناء الأمة إلى اختبار ثباتها أمام التحديات الداخلية والخارجية، وهو انتقال طبيعي في النسق العمراني الذي يسعى هذا المشروع إلى الكشف عنه.

وبذلك تعود السورة إلى النقطة التي بدأت منها؛ وهي الهداية، لتبين أن بناء الأمة المستخلفة يبدأ بالوحي، وينتهي بالوحي، وأن جميع مؤسسات العمران تستمد قوتها من هذا الميثاق الإيماني.

أهم النتائج:

الإيمان هو الضامن لوحدة الأمة.

الطاعة الواعية أساس الالتزام الحضاري.

التوازن بين التكليف والرحمة من خصائص المنهج القرآني.

الدعاء يمثل بعدًا تربويًا واستراتيجيًا في استمرار الرسالة.

خلاصة الوحدة

تكشف هذه الوحدة أن خاتمة سورة البقرة لا تقدم موضوعات متفرقة، بل ترسم النموذج القرآني المتكامل للأمة المستخلفة؛ فهي تبني القوة لحماية الرسالة، والقيادة لإدارة المجتمع، والاقتصاد لتحقيق العدالة، والمؤسسات لحفظ الحقوق، والمرجعية الإلهية لضبط الحركة الحضارية، ثم تختم ذلك كله بميثاق الإيمان والطاعة. وهكذا يكتمل البناء العمراني الذي بدأ منذ مطلع السورة، لتصبح الأمة مهيأة للانتقال في سورة آل عمران إلى مرحلة اختبار هذا البناء في الواقع ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

النتائج العامة للتحليل المضموني لسورة البقرة

في ضوء التحليل المضموني لسورة البقرة يتبين أنها ليست مجرد سورة جامعة للأحكام والعقائد والقصص، وإنما تمثل الوثيقة القرآنية المؤسسة لبناء الأمة المستخلفة، إذ تنتظم موضوعاتها في نسق معرفي متكامل ينتقل بالإنسان من الهداية إلى الاستخلاف، ومن الإيمان الفردي إلى العمران الحضاري.

وقد كشف التحليل عن جملة من النتائج، من أبرزها:

أن سورة البقرة تقوم على وحدة موضوعية كلية تتمثل في تأسيس مقومات الأمة المستخلفة، وأن تنوع موضوعاتها يخدم هذا المقصد الجامع ولا يخرجه عن وحدته.

أن البناء القرآني يسير وفق تدرج سنني يبدأ بتصحيح الرؤية الكلية، ثم بناء الإنسان، فالأسرة، فالمجتمع، ثم الدولة، حتى يكتمل البناء الحضاري للأمة.

أن الأحكام التشريعية في السورة ليست غايات مستقلة، وإنما أدوات لبناء منظومة عمرانية تحقق العدل، وتصون الحقوق، وتنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

أن السنن الاجتماعية والتاريخية تمثل الإطار الحاكم لحركة المجتمع، وأن فهمها يعد شرطًا لتحقيق الاستخلاف واستمرار العمران.

أن القوة، والاقتصاد، والقيادة، والمرجعية الإيمانية ليست مجالات منفصلة، وإنما منظومة متكاملة يتوقف عليها قيام الأمة بوظيفتها الحضارية.

أبرز المفاهيم المستنبطة من السورة

أسفر التحليل عن استنباط عدد من المفاهيم التي يمكن أن تسهم في تطوير معجم المشروع العمراني الاستخلافي، من أهمها:

الرؤية الكلية– الإنسان المستخلف– العمران الاستخلافي– المجتمع الرسالي– التدافع العمراني– الشرعية الاستخلافية– الكفاءة القيادية– الأمن العمراني– الاقتصاد العمراني– الميثاق الحضاري– الأمة المستخلفة.

وتحتاج هذه المفاهيم إلى مزيد من الاستقراء في بقية سور القرآن الكريم، للتحقق من امتدادها ودقتها بوصفها مفاهيم مؤسسة في النسق القرآني.

القيمة العلمية للتحليل المضموني

يبرز هذا التطبيق أن التحليل المضموني الكلي للسور يمثل مدخلًا منهجيًا يمكن أن يضيف بعدًا جديدًا إلى الدراسات القرآنية؛ إذ لا يقتصر على جمع الموضوعات أو تفسير الآيات منفردة، وإنما يسعى إلى الكشف عن البنية الداخلية للسورة، والعلاقات التي تربط بين موضوعاتها، والسنن والمقاصد التي تنتظمها في نسق واحد.

ومن ثم فإن هذا المنهج لا ينافس مناهج التفسير المعتبرة، بل يستفيد منها، ويضيف إليها بعدًا بنائيًا يركز على وحدة السورة ووظيفتها الحضارية.

وعليه تكشف سورة البقرة – في ضوء التحليل المضموني وفق المشروع العمراني الاستخلافي السنني – عن أنها ليست مجرد سورة للأحكام والتشريعات، بل هي الوثيقة التأسيسية الأولى لبناء الأمة المستخلفة. فقد بدأت بتقرير المرجعية العليا للهداية، ثم انتقلت إلى بناء الإنسان المؤمن، وتكوين الجماعة المؤمنة، وإرساء الأسرة، وتنظيم المجتمع، وإقامة منظومة العدل والاقتصاد، وانتهت بتأسيس الميثاق الإيماني الذي يربط الأمة بربها ويحملها مسؤولية الاستخلاف والشهادة على الناس. وبهذا تكتمل في سورة البقرة المقومات المعرفية والقيمية والمؤسسية للأمة، لتبدأ في سورة آل عمران مرحلة جديدة، هي مرحلة اختبار ثبات الأمة المستخلفة في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، والمحافظة على وحدتها ورسالتها الحضارية.

تحليل سورة آل عمران

بعد الانتهاء من سورة البقرة، فإن سورة آل عمران هي الامتداد الطبيعي لها، وليس مجرد السورة التالية في ترتيب المصحف. فهناك وحدة موضوعية عميقة بين السورتين؛ حتى إن بعض العلماء أطلق عليهما معًا اسم الزهراوين. ومن منظور المشروع المعرفي القرآني، يبدو أن السورتين تمثلان مرحلتين متكاملتين في بناء الأمة.

سورة آل عمران

المدخل العام للسورة في ضوء المشروع المعرفي القرآني

إذا كانت سورة البقرة قد انشغلت ببناء الأمة الاستخلافية من حيث العقيدة، والشريعة، والهوية، والمؤسسات، فإن سورة آل عمران تنتقل إلى مرحلة أخرى أكثر تقدماً، هي حماية الأمة بعد تأسيسها، وضمان استمرار رسالتها الحضارية في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

ومن ثم يمكن النظر إلى السورتين بوصفهما وحدة عمرانية متكاملة:

- سورة البقرة: مرحلة التأسيس.
- سورة آل عمران: مرحلة التثبيت والحماية والاستمرار.

ومن هنا يبدو أن القضية المركزية للسورة ليست مجرد الحديث عن آل عمران أو أهل الكتاب أو غزوة أحد، وإنما:

سنن بقاء الأمة الرسالية واستمرارها في أداء وظيفتها الاستخلافية.

وهذا يمثل انتقالاً مهماً في المشروع المعرفي؛ إذ ينتقل من بناء المجتمع إلى إدارة المجتمع، ومن إقامة العمران إلى المحافظة عليه.

الوحدة الأولى

قوله تعالى

**﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

أولاً: الفكرة المركزية

تبدأ السورة بإرساء مرجعية المعرفة قبل الدخول في أي حوار أو جدل أو تشريع.

فالقرآن لا يبدأ بالأحداث.

ولا يبدأ بالمجتمع.

ولا يبدأ بالسياسة.

بل يبدأ بالسؤال الأهم:

من أين تستمد المعرفة؟

وهذا يؤكد أن كل مشروع حضاري يبدأ بتحديد المرجعية المعرفية.

ثانياً: النسق المعرفي القرآني

تكشف هذه الآيات عن بناء معرفي متدرج:

الحق المطلق

↓

الوحي

↓

الكتاب

↓

الهداية

↓

التمييز (الفرقان)

↓

بناء الإنسان

↓

بناء المجتمع

↓

العمران.

وهذا الترتيب ليس عفوياً.

بل يمثل أحد قوانين المعرفة في القرآن.

فالتمييز بين الحق والباطل لا يسبق الوحي.

والهداية لا تسبق الكتاب.

والعمران لا يقوم إلا بعد استقامة المرجعية.

ثالثاً: السنن الاجتماعية والعمرانية

يمكن استنباط عدد من السنن:

-1سنة وحدة مصدر الهداية

مصدر الهداية واحد وإن تعددت الرسالات.

ولهذا جاء:

التوراة

ثم

الإنجيل

ثم

القرآن

فالرسالات حلقات متصلة.

-2سنة تصحيح الانحراف الحضاري

كلما انحرفت البشرية عن الوحي جاء وحي جديد يصحح المسار.

وهذه سنة تاريخية.

-3سنة مرجعية الوحي

الأمة التي تجعل الوحي مرجعها الأعلى تمتلك معياراً ثابتاً للحكم على الأفكار والوقائع.

أما إذا فقدت المرجعية فإنها تدخل مرحلة السيولة المعرفية والتفسيرية.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

تؤسس هذه الآيات عدداً من المبادئ المنهجية المهمة.

أولاً

تحديد المرجعية قبل البحث.

فلا يجوز البدء بتحليل أي ظاهرة قبل تحديد المرجعية التي سيتم الاحتكام إليها.

ثانياً

التمييز بين مصدر المعرفة وأداة المعرفة.

فالقرآن مصدر للهداية.

أما العقل فهو أداة للفهم.

وأما الواقع فهو مجال للتطبيق.

وهذا من أهم المبادئ التي يقوم عليها المشروع المعرفي القرآني.

ثالثاً

الفرقان شرط لكل معرفة صحيحة.

فالقرآن لا يقدم المعلومات فقط.

بل يمنح الباحث معيار التمييز بين:

- الحق والباطل.
- الصواب والخطأ.
- الإصلاح والإفساد.
- العمران والفساد.

وهذا يجعل "الفرقان" ليس مجرد اسم من أسماء القرآن، بل وظيفة معرفية تؤسس لعملية التقويم والنقد وإصدار الأحكام.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

يمكن أن نستنبط من هذه الآيات عدداً من المفاهيم التي تستحق مزيداً من الدراسة في المشروع، مثل:

- مرجعية الوحي.
- وحدة الرسالة الحضارية.
- الفرقان المعرفي: ويقصد به المعيار القرآني الذي يميز بين التصورات والمناهج والنتائج، ويمنح الباحث القدرة على تقويم المعرفة وتقويم الواقع في ضوء الوحي.
- الاستمرار الرسالي: وهو تعاقب الرسالات في بناء الهداية الإنسانية حتى اكتمالها بالقرآن الكريم.

سادساً: التطبيقات المعاصرة

تقدم هذه الآيات أساساً لمعالجة إحدى أكبر أزمات الفكر المعاصر، وهي أزمة المرجعية. فكثير من المدارس الفكرية المعاصرة تتنازعها مرجعيات متعددة ومتعارضة، مما يؤدي إلى اضطراب تفسير الإنسان والمجتمع والقيم. أما القرآن فيؤسس لوحدة المرجعية الإلهية بوصفها المنطلق الذي تنتظم في ضوئه بقية أدوات المعرفة، فيتحقق الاتساق بين التصور والواقع، وبين القيم والحركة الحضارية.

ملاحظة منهجية جديدة

أرى أن سورة آل عمران ستضيف بعدًا جديدًا لم يكن بارزًا في سورة البقرة، وهو فقه المرجعيات. فإذا كانت البقرة قد ركزت على بناء الأمة، فإن مطلع آل عمران يبدأ ببناء المرجعية التي تضبط فهم الأمة. ومن المناسب أن نتابع السورة مع رصد هذا الخيط الناظم، لنرى كيف ينتقل القرآن من تقرير مرجعية الوحي، إلى الحوار مع أهل الكتاب، ثم إلى اختبار الأمة في غزوة أحد، وكل ذلك في إطار سنن حفظ الرسالة واستمرارها. أظن أن هذا سيكون أحد المحاور الرئيسة التي ستثري المشروع المعرفي القرآني في هذه السورة.

، وأرى أن نستمر بنفس العمق، مع الحرص على ألا يتحول التحليل إلى تفسير تقليدي، بل يبقى وفياً لمنهج المشروع المعرفي القرآني؛ أي البحث عن البنية المعرفية، والسنن، والمؤشرات المنهجية، لا مجرد بيان المعاني.

الوحدة الثانية

مرجعية المعرفة وضبط التأويل

قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...﴾ (آل عمران: ٧)

أولاً: الفكرة المركزية

تمثل هذه الآية أحد أهم النصوص المؤسسة للنظام المعرفي القرآني؛ لأنها لا تتحدث عن مضمون المعرفة فحسب، وإنما تتحدث عن كيفية التعامل مع المعرفة نفسها.

فالقرآن لا يكتفي بإنزال الحق، وإنما يبين منهج تلقيه، وضوابط فهمه، وأسباب الانحراف في تفسيره.

ومن هنا فإن أول معركة حضارية ليست معركة المعلومات، وإنما معركة المنهج.

ثانياً: النسق المعرفي القرآني

تكشف الآية عن بنية معرفية دقيقة تقوم على أربعة مستويات:

الوحي

↓

المحكمات (الأصول المؤسسة)

↓

المتشابهات (المجالات التي تحتاج إلى ردها إلى المحكم)

↓

الاجتهاد المنضبط.

وهذا النسق يمنع تحول المعرفة إلى فوضى تفسيرية.

فالقرآن لا يجعل جميع النصوص في مرتبة واحدة.

ولا يجعل جميع الدلالات متساوية.

ولا يترك باب التأويل مفتوحاً بلا ضوابط.

ثالثاً: السنن المعرفية والاجتماعية

يمكن استنباط عدد من السنن المهمة.

١ –سنة رد الجزئي إلى الكلي

من أخطر أسباب الانحراف أن يُفهم الجزء بمعزل عن الكل.

ولهذا جعل القرآن:

المحكمات هن أم الكتاب.

أي أن المرجعية دائماً للأصول الكلية.

وهذه سنة معرفية عامة لا تقتصر على التفسير.

بل تشمل جميع العلوم.

٢ –سنة العلاقة بين الانحراف المعرفي والانحراف القلبي

تلفت الآية النظر إلى حقيقة دقيقة:

لم تقل:

أخطأوا في الفهم.

بل قالت:

﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾

فالانحراف المنهجي يبدأ غالباً من خلل في المقاصد قبل أن يظهر في أدوات التفكير.

وهذا يقرر أن المعرفة ليست عملية عقلية مجردة، وإنما ترتبط بالبناء القيمي والأخلاقي للباحث.

٣ –سنة الفتنة التأويلية

كلما انفصل التأويل عن المحكمات نشأت الفتن.

فالفتنة هنا ليست نتيجة الاختلاف.

وإنما نتيجة تحرير التأويل من مرجعيته.

وهذه سنة اجتماعية تتكرر في تاريخ الأمم.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

تؤسس الآية لعدد من المبادئ المنهجية الكبرى.

أولاً

مبدأ مركزية المحكمات

كل مشروع علمي يحتاج إلى أصول مرجعية ثابتة.

كما أن كل تفسير جزئي يجب أن يعود إلى تلك الأصول.

وهذا أصل منهجي ينبغي أن يضاف إلى المشروع المعرفي.

ثانياً

مبدأ تكامل النص

القرآن يفسر بعضه بعضاً.

ولا يجوز بناء النتائج على نص منفرد مع إهمال بقية النصوص.

ومن هنا فإن الوحدة الموضوعية والوحدة السُّورية ليستا مجرد وسيلتين في التفسير، بل هما مقتضى النظام المعرفي للقرآن.

ثالثاً

مبدأ سلامة القصد العلمي

تربط الآية بين مقصد الباحث وصحة المعرفة.

فالحياد المنهجي وحده لا يكفي.

بل لا بد من إخلاص طلب الحق، والتجرد عن الأهواء، والالتزام بأمانة العلم.

وبذلك يضيف القرآن بعداً أخلاقياً إلى منهج البحث العلمي، يجعل القيم جزءاً من العملية المعرفية نفسها.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

يمكن استنباط عدد من المفاهيم الجديدة، منها:

١ –أم الكتاب

ليس بوصفها وصفاً لآيات معينة فقط، بل بوصفها مركز الثقل المعرفي الذي تنتظم حوله بقية المعاني.

٢ –المحكمات المرجعية

وهي القضايا الكلية التي تمثل الإطار الحاكم لفهم القرآن، ومنها تنطلق عملية الاستنباط.

٣ –الانضباط التأويلي

ويقصد به رد جميع الاجتهادات إلى المحكمات والمقاصد الكلية، وعدم استقلال المتشابهات بإنتاج المعنى.

وأرى أن هذا المفهوم أجود من مصطلحات مثل "الضبط التفسيري"، لأنه يشمل التفسير والتأويل والاستنباط معاً.

٤ –السيولة التأويلية

السيولة التأويلية.

وهي:

تحرير النص من مرجعياته المحكمة، وإطلاق التأويل دون ضوابط معرفية أو لغوية أو مقاصدية، بما يؤدي إلى تعدد المعاني المتناقضة وانهيار المرجعية التفسيرية.

ويبدو أن هذه الآية تعد من أهم الأصول القرآنية المؤسسة لنقد هذه الظاهرة.

سادساً: التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن كثيراً من الأزمات الفكرية المعاصرة ليست ناشئة عن نقص المعلومات، بل عن اضطراب قواعد الفهم. وعندما تُفقد مرجعية المحكمات، أو يُفصل الجزئي عن الكلي، أو يُتخذ التأويل وسيلة لتبرير المواقف المسبقة، تنتج حالة من التفكك المعرفي تنعكس على الفكر والاجتماع والعمران. ومن ثم فإن إعادة بناء العلوم الإنسانية في ضوء القرآن تقتضي أن تبدأ بإعادة بناء منهج الفهم قبل إعادة بناء موضوعات العلم.

إضافة أراها مهمة للمشروع

أثناء تحليل سورة البقرة كان يظهر لنا أن القرآن يؤسس للنظام الاجتماعي، أما في مطلع سورة آل عمران فيتضح أن القرآن يؤسس قبل ذلك لنظام إنتاج المعرفة. وهذا يدعونا إلى توسيع الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني بإضافة محور مستقل بعنوان:

نظرية المعرفة في القرآن الكريم

يتناول قضايا مثل:

- مصادر المعرفة.
- مراتب المعرفة.
- ضوابط الفهم.
- العلاقة بين المحكم والمتشابه.
- أخلاقيات الباحث.
- سنن الانحراف المعرفي.
- معايير الترجيح.

وسيكون هذا المحور بمثابة الأساس الإبستمولوجي الذي تنبني عليه بقية العلوم الإنسانية المستمدة من القرآن، وهو ما ينسجم مع الهدف الذي رسمتموه للمشروع: بناء مدرسة معرفية قرآنية، لا مجرد إنتاج قراءات تفسيرية جديدة.

أرى أن السورة بعد أن أرست مرجعية المعرفة وضوابط التأويل، تنتقل مباشرة إلى قضية تمثل التطبيق العملي لذلك، وهي موقف الإنسان من الوحي. وهذا يؤكد أن ترتيب موضوعات السورة ليس ترتيبًا تاريخيًا، بل هو ترتيب معرفي مقصود؛ إذ يبدأ ببناء المرجعية، ثم يبين أسباب رفضها، ثم ينتقل إلى كيفية المحافظة عليها.

الوحدة الثالثة

سنة الاصطفاء وبناء القيادة الرسالية

قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

) آل عمران: ٣٣-٣٤(

أولاً: الفكرة المركزية

يُفهم الاصطفاء في كثير من الكتابات على أنه امتياز إلهي، بينما يكشف القرآن هنا عن معنى أعمق؛ فالاصطفاء في حقيقته اختيار للقيام بوظيفة الرسالة والاستخلاف.

فالقرآن لا يتحدث عن تفضيل عرقي أو نسبي، وإنما عن إعداد نماذج بشرية تحمل مشروع الهداية عبر التاريخ.

ومن ثم فإن الاصطفاء ليس غاية، وإنما تكليف حضاري.

ثانياً: النسق المعرفي القرآني

تكشف هذه الآيات عن نسق بالغ الأهمية يمكن تسميته:

نسق الامتداد الرسالي.

فالهداية لا تبدأ مع كل نبي من الصفر.

بل تنتقل عبر سلسلة متصلة:

آدم

↓

نوح

↓

إبراهيم

↓

آل عمران

↓

محمد ﷺ

↓

الأمة الشاهدة.

وهذا يكشف أن المشروع القرآني لا يعرف الانقطاع الحضاري.

بل يعرف التراكم الرسالي.

ثالثاً: السنن الاجتماعية والعمرانية

١ –سنة الاصطفاء الوظيفي

الاختيار الإلهي مرتبط بالقيام بالرسالة.

وليس بالانتماء.

ولهذا لم يكن الاصطفاء نهاية الطريق.

بل بداية المسؤولية.

وهذه سنة تتكرر في جميع الرسالات.

٢ –سنة الامتداد الحضاري

قول الله تعالى:

﴿ذرية بعضها من بعض﴾

لا يقتصر على النسب.

بل يشير إلى انتقال:

- الإيمان.
- الرسالة.
- المنهج.
- القيم.
- العلم.

أي أن الحضارة الرسالية لا تنشأ فجأة.

بل تبنى عبر التراكم.

٣ –سنة بناء الإنسان قبل بناء الحضارة

بدأت الآيات بالأشخاص.

ولم تبدأ بالمجتمعات.

وهذا يؤكد أن العمران يبدأ بإعداد الإنسان.

ثم الأسرة.

ثم الجماعة.

ثم الأمة.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ التتبع التاريخي للظواهر

لا يجوز دراسة أي ظاهرة بمعزل عن امتدادها التاريخي.

فالقرآن لا يعرض الأحداث منفصلة.

بل يربطها بسلسلة طويلة من السنن.

ثانياً

مبدأ التراكم المعرفي

كل معرفة صحيحة تبنى على معرفة صحيحة سبقتها.

ولا يبدأ الباحث من الفراغ.

وهذا يرفض القطيعة المعرفية التي تتكرر في كثير من المدارس الحديثة.

ثالثاً

مبدأ وحدة المشروع الإلهي

تعدد الأنبياء لا يعني تعدد المشاريع.

بل مشروع واحد.

ورسالة واحدة.

وسنن واحدة.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

أرى أن هذه الآيات تمنح المشروع عدداً من المفاهيم الجديدة.

الامتداد الرسالي

ويقصد به:

استمرار المشروع الإلهي عبر الأجيال، مع ثبات الأصول وتجدد التطبيقات.

التراكم الرسالي

ويقصد به:

التكامل بين الرسالات في بناء المعرفة والهداية والعمران، بحيث تمثل كل رسالة مرحلة في استكمال المشروع الإلهي.

القيادة الاستخلافية

وهي القيادة التي تستمد مشروعيتها من أداء وظيفة الهداية وتحقيق مقاصد الاستخلاف، لا من النسب أو القوة أو الهيمنة.

سادساً: التطبيقات الحضارية

من أخطر الأزمات التي تعانيها كثير من مشاريع النهضة المعاصرة أنها تبدأ من لحظتها الراهنة، فتتعامل مع التاريخ بوصفه عبئًا أو مرحلة منقطعة. أما القرآن فيرسخ مبدأ الامتداد الرسالي؛ فكل مشروع إصلاحي لا يكتسب عمقه من حداثته، وإنما من اتصاله بالوحي، واستيعابه لتجارب الأنبياء، وإدراكه للسنن التي حكمت مسيرة الهداية عبر التاريخ.

وفي ضوء ذلك، فإن تجديد العلوم الإنسانية في المشروع المعرفي القرآني لا يقوم على القطيعة مع التراث، ولا على الجمود عنده، بل على إعادة قراءته في إطار الامتداد الرسالي، حيث تتكامل الخبرة التاريخية مع هداية الوحي لإنتاج معرفة متجددة قادرة على معالجة قضايا العصر.

)وفي أثناء تقدمنا في سورة آل عمران بدأت تتكشف سمة تختلف عن سورة البقرة.

- في البقرة كان المحور الرئيس هو بناء الأمة.
- أما في آل عمران، فأرى أن المحور الأعمق هو بناء المرجعية الحافظة للأمة.

ولذلك سنضيف من هنا ولاحقا في نهاية تحليل كل سورة عنصرًا ثابتًا بعنوان:

القضية المحورية للسورة في المشروع المعرفي القرآني

حتى لا يظل التحليل مقتصرًا على الوحدات الجزئية.

وحتى الآن يمكن صياغتها على النحو الآتي:

- سورة البقرة: تأسيس الأمة الاستخلافية.
- سورة آل عمران: بناء المرجعية، والقيادة، والسنن التي تحفظ الأمة من الانحراف والتفكك، وتضمن استمرار رسالتها الحضارية.

وهذا العنصر سيصبح لاحقًا مفتاحًا لربط جميع سور القرآن في إطار نسق معرفي واحد، بحيث يسهم كل تحليل سوري في الكشف عن موقع السورة ووظيفتها ضمن البناء الكلي للمشروع المعرفي القرآني.(

ونقترب من أحد أهم المحاور في سورة آل عمران، وهو قصة آل عمران ومريم عليهما السلام. ومن منظور المشروع المعرفي القرآني، لا ينبغي أن تُقرأ هذه القصة بوصفها قصة تاريخية أو معجزة فحسب، بل بوصفها نظرية قرآنية في صناعة الإنسان الرسالي. وهذه – في تقديري – إضافة لم تظهر بوضوح في سورة البقرة.

الوحدة الرابعة

صناعة الإنسان الرسالي

)قصة امرأة عمران ومريم عليها السلام(

الآيات(51–35)

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...﴾

أولاً: الفكرة المركزية

لا تتحدث هذه الآيات عن ميلاد مريم وعيسى عليهما السلام فحسب، وإنما تعرض المرحلة السابقة على صناعة القائد الرسالي.

فالبناء الحضاري في القرآن لا يبدأ بالمؤسسات.

ولا يبدأ بالدولة.

ولا يبدأ بالاقتصاد.

بل يبدأ ببناء الإنسان منذ اللحظة الأولى لتكوينه.

وهذه إحدى القضايا الكبرى في النظام المعرفي القرآني.

ثانياً: النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآيات عن تسلسل عمراني بالغ الدقة:

الإخلاص لله

↓

صلاح الأسرة

↓

التربية المبكرة

↓

الرعاية الإيمانية

↓

العلم

↓

الاصطفاء

↓

القيادة الرسالية

↓

إصلاح المجتمع.

وهذا النسق يبين أن القيادة ليست حادثاً تاريخياً.

بل نتيجة بناء طويل.

ثالثاً: السنن الاجتماعية والعمرانية

١ –سنة أن الإنسان يُصنع ولا يولد قائداً

من أخطر ما تكشفه الآيات أن القيادة الرسالية ليست موهبة مجردة.

بل صناعة تربوية متدرجة.

ولهذا بدأت القصة قبل الميلاد.

ولم تبدأ عند البعثة.

٢ –سنة مركزية الأسرة

امرأة عمران.

ثم مريم.

ثم زكريا.

ثم يحيى.

ثم عيسى.

كل ذلك داخل شبكة تربوية واحدة.

وكأن القرآن يريد أن يقول:

الأمة تبدأ من الأسرة.

وهذا يتكامل مع ما ظهر في سورة البقرة حول بناء المجتمع.

٣ –سنة البيئة الصالحة

يقول تعالى:

﴿وكفلها زكريا﴾

فالقرآن لا يكتفي بصلاح الفرد.

بل يهتم بالمحيط الذي ينمو فيه.

وهذا أصل اجتماعي مهم.

٤ –سنة التكامل بين التربية والعلم

كلما دخل عليها زكريا المحراب...

كان التعليم.

وكان السؤال.

وكان الحوار.

وكانت التربية.

فالقرآن يربط بين التربية والمعرفة.

ولا يفصل بينهما.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ البناء قبل التكليف

لا يكلف القرآن الإنسان بالمهمة قبل إعداده لها.

وهذا أصل منهجي ينبغي أن يستفيد منه التخطيط التربوي والمؤسسي.

ثانياً

مبدأ دراسة المقدمات

كثير من الدراسات تنشغل بالنتائج.

أما القرآن فيرجع دائماً إلى البدايات.

فهو يبحث عن الجذور.

لا عن المظاهر فقط.

وهذا يثري منهج تحليل الظواهر الاجتماعية؛ إذ يدعو الباحث إلى تتبع مقدمات الظاهرة وشروط تشكلها قبل تفسير نتائجها.

ثالثاً

مبدأ البيئة الحاضنة

الإنسان لا ينمو في فراغ.

بل داخل منظومة:

- الأسرة.
- المسجد (المحراب).
- المعلم.
- المجتمع.

وهذا يجعل تحليل الظواهر الاجتماعية قائماً على دراسة العلاقات لا الأفراد فقط.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

يمكن أن يضيف المشروع عدة مفاهيم.

البيئة الاستخلافية

ويقصد بها:

البيئة الإيمانية والتربوية والاجتماعية التي تهيئ الإنسان للقيام بوظيفة الاستخلاف.

الحاضنة الرسالية

وهي:

المنظومة الأسرية والتربوية والاجتماعية التي تتكامل في إعداد الإنسان لحمل الرسالة.

البناء الرسالي

وهو:

العملية المتدرجة التي ينتقل بها الإنسان من الاستعداد الفطري إلى الكفاءة الإيمانية والعلمية والأخلاقية التي تؤهله للقيام بوظيفة الاستخلاف.

سادساً: التطبيقات الحضارية

تواجه المجتمعات المعاصرة تحديًا يتمثل في السعي إلى معالجة مظاهر الأزمات بعد وقوعها، بينما يكشف القرآن في هذه الآيات عن منهج وقائي يبدأ من تكوين الإنسان وإعداد البيئة التي ينشأ فيها. ومن ثم فإن الاستثمار الحقيقي في مستقبل الأمة ليس في معالجة الانحراف بعد ظهوره، وإنما في بناء الحواضن التربوية والعلمية والأسرية التي تمنع نشوء الانحراف من أساسه.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أرى أنه قد يكون من الإضافات المهمة للمشروع المعرفي القرآني.

لاحظ أن القرآن لا يكتفي بعرض السنن الاجتماعية أو السنن العمرانية، بل يعرض قبلها سنن التكوين؛ أي السنن التي تُنشئ الإنسان القادر على التفاعل مع تلك السنن الاجتماعية والعمرانية.

وهذا يدعونا إلى التمييز بين ثلاثة مستويات مترابطة:

1. سنن التكوين: وهي السنن المتعلقة بإعداد الإنسان إيمانيًا وعلميًا وأخلاقيًا.
2. سنن العمران: وهي السنن التي تحكم بناء المجتمع والدولة والحضارة.

3. سنن التداول الحضاري: وهي السنن التي تحكم صعود الأمم وتراجعها وانتقال الشهود الحضاري بينها.

وأرى أن هذا التقسيم ليس تصنيفًا شكليًا، بل قد يمثل أحد الأطر الكبرى التي يُبنى عليها المشروع كله. وهو يحتاج إلى استقراء بقية سور القرآن؛ فإن ثبت اتساقه عبر النص القرآني، فإنه سيكون إضافة منهجية ذات قيمة، أما إن ظهرت نصوص تستدعي تعديل هذا التقسيم، فينبغي تطويره في ضوء الاستقراء الشامل، التزامًا بالمنهج الذي اعتمدناه في عدم تعميم أي مفهوم قبل استكمال استقراء القرآن الكريم.

. وأرى أننا الآن نصل إلى أحد أعظم المقاطع في سورة آل عمران، والذي أظن أنه سيكون من أكثر المقاطع إغناءً للمشروع المعرفي القرآني، لأنه يتناول الحوار المعرفي بين الوحي والاتجاهات العقدية المختلفة. ومن اللافت أن القرآن لا يبدأ بالرد، وإنما يبدأ بعرض القضية، ثم إقامة الحجة، ثم الدعوة إلى المشترك، ثم بيان مواضع الافتراق. وهذه ليست طريقة في الدعوة فحسب، بل منهج معرفي.

الوحدة الخامسة

الحوار المعرفي وبناء المرجعية المشتركة

)آل عمران: ٥٢–٦٤(

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾

ثم تنتهي بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾

أولاً: الفكرة المركزية

تؤسس هذه الآيات لنظرية قرآنية في إدارة الاختلاف المعرفي.

فالقرآن لا ينطلق من افتراض أن الاختلاف ينبغي أن يؤدي إلى الصراع، ولا من افتراض أن الاتفاق الكامل شرط للحوار، وإنما يجعل البحث عن الحقيقة هو الغاية، ويضع للحوار قواعد تضبطه.

ومن ثم فإن السورة تنتقل من تأسيس مرجعية المعرفة إلى كيفية التفاعل مع المرجعيات الأخرى.

ثانياً: النسق المعرفي القرآني

يمكن استنباط النسق الآتي:

الحق

↓

البيان

↓

الحوار

↓

إقامة الحجة

↓

التمييز

↓

الاختيار

↓

تحمل المسؤولية.

فالقرآن لا يفرض الإيمان بالإكراه، ولا يكتفي بعرض الدعوى، بل يبني المعرفة من خلال البيان والحجة، ثم يترك للإنسان مسؤولية الاختيار.

ثالثاً: السنن الاجتماعية والعمرانية

١ –سنة أن الحوار يسبق المفاصلة

يلفت القرآن النظر إلى أن الأصل هو البيان والدعوة وإقامة الحجة، وليس المبادرة إلى القطيعة. فالحوار ليس تنازلًا عن الحق، وإنما وسيلة لإظهاره.

٢ –سنة البحث عن المشترك

قوله تعالى:

﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾

يؤسس لقاعدة حضارية مهمة، وهي أن الحوار يبدأ من المشترك الصحيح، ثم ينتقل إلى معالجة مواضع الاختلاف.

لكن هذا المشترك ليس أي مشترك، وإنما مشترك مؤسس على التوحيد، لا على التسويات الفكرية.

٣ –سنة استقلال المرجعية

الحوار لا يعني ذوبان المرجعيات، بل يقتضي وضوحها. فالقرآن يدعو إلى الكلمة السواء من موقع الثبات على الوحي، لا من موقع التنازل عنه.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

أولاً: مبدأ إقامة الحجة قبل إصدار الحكم

لا يصدر القرآن حكمًا على المخالف قبل بيان الحق وإقامة الدليل. وهذا أصل منهجي في البحث والنقاش، يقتضي فهم الرأي الآخر وعرضه بدقة قبل نقده.

ثانياً: مبدأ البدء بالمشترك المؤسس

يبدأ الحوار من الأصول التي يمكن الاتفاق عليها إذا كانت صحيحة، ثم يُبنى عليها النقاش. وهذا يختلف عن البحث عن أي قاسم مشترك ولو كان على حساب الحقيقة.

ثالثاً: مبدأ الفصل بين نقد الفكرة واحترام المخاطب

تشتد الآيات في نقد التصورات الباطلة، لكنها تحافظ على خطاب يدعو ويحتج ويبين، دون أن يتحول إلى تجريح أو تهوين من كرامة الإنسان. وهذه قاعدة منهجية يحتاجها الخطاب العلمي والدعوي معًا.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

يمكن أن يضيف هذا المقطع عدة مفاهيم إلى المشروع، منها:

الحوار المعرفي

وهو: التفاعل المنظم بين المرجعيات المختلفة بقصد الوصول إلى الحق من خلال الحجة والبرهان، في إطار من الالتزام بالمرجعية القرآنية.

الكلمة السواء

ولا تُفهم على أنها مجرد نقطة اتفاق، بل هي الأصل المرجعي الذي يمكن أن يُبنى عليه الحوار. فهي مفهوم معرفي قبل أن تكون صيغة دعوية.

الشهادة بالحجة

ويقصد بها أداء وظيفة الشهود الحضاري من خلال البيان والبرهان، لا بمجرد الانتماء أو الادعاء.

سادساً: التطبيقات الحضارية

في عالم تتزايد فيه المرجعيات الفكرية والثقافية، يقدم القرآن نموذجًا للحوار يجمع بين الثبات والانفتاح؛ ثبات المرجعية، وانفتاح التواصل. وهذا النموذج يمكن أن يسهم في بناء ثقافة علمية وحضارية قادرة على إدارة الاختلاف دون تفريط في الثوابت أو انغلاق عن الآخرين.

استنباط منهجي جديد للمشروع

وأثناء تحليل هذا المقطع ظهر لي أمر أرى أنه يستحق الاستقراء في بقية القرآن.

لقد لاحظنا حتى الآن أن السورة تبني المعرفة وفق تسلسل متكرر:

1. تأسيس المرجعية.
2. ضبط منهج الفهم.
3. إعداد الإنسان الحامل للرسالة.
4. تعليمه كيف يحاور الآخرين.

وهذا يعني أن القرآن لا يعدّ الحوار وسيلة دعوية فحسب، بل يجعله مرحلة من مراحل بناء المعرفة نفسها. فلا تكتمل شخصية الباحث أو الداعية أو المصلح حتى يتقن آداب الحوار وقواعد الاحتجاج والإنصاف.

وأرى أن هذا يقود إلى اقتراح مفهوم جديد في المشروع المعرفي القرآني، وهو "التداول المعرفي"، ويُقصد به: العملية القرآنية المنظمة لتبادل الحجة والبيان بين المرجعيات المختلفة بقصد إظهار الحق، مع الالتزام بضوابط الوحي وأخلاقيات الحوار. وأؤكد أنه لا ينبغي اعتماد هذا المفهوم الآن بوصفه مفهومًا مؤسسًا، بل يُدرج ضمن المفاهيم المرشحة إلى أن يُستكمل استقراؤه في بقية سور القرآن، التزامًا بالمنهج الذي اتفقنا عليه في عدم تعميم أي مفهوم قبل اكتمال شواهده القرآنية.

أحسنت. والآن نصل إلى قلب سورة آل عمران من الناحية العمرانية والسننية، وهو غزوة أحد. وأرى أن هذا المقطع يمثل في المشروع المعرفي القرآني ما مثلته قصة بني إسرائيل في سورة البقرة، ولكن من زاوية مختلفة.

ففي سورة البقرة كان التركيز على سنن إنشاء الأمة، أما في سورة آل عمران فإن غزوة أحد تقدم سنن إدارة الأزمات الحضارية وتصحيح مسار الأمة بعد وقوع الخطأ.

وهذه – في تقديري – من أهم الإضافات التي ستقدمها هذه السورة للمشروع.

الوحدة السادسة

غزوة أحد: السنن القرآنية في إدارة الأزمات الحضارية

)آل عمران: ١٢١-١٨٠(

أولاً: الفكرة المركزية

لا يقدم القرآن غزوة أحد باعتبارها مجرد حدث عسكري، ولا بوصفها سجلًا تاريخيًا، وإنما يحولها إلى مختبر قرآني لدراسة السنن الاجتماعية والعمرانية.

فالحدث نفسه يصبح وسيلة لاستخراج القوانين التي تحكم نجاح الأمم وإخفاقها.

ومن هنا فإن القرآن لا يسأل:

من انتصر؟

بل يسأل:

لماذا وقع ما وقع؟

وهذا هو السؤال المنهجي الذي ينبغي أن تتبناه العلوم الإنسانية.

ثانياً: النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآيات عن نسق دقيق لإدارة الأزمات:

الإيمان

↓

الطاعة

↓

وحدة القيادة

↓

الأخذ بالأسباب

↓

الابتلاء

↓

المراجعة

↓

التصحيح

↓

استعادة الفاعلية.

وهذا النسق يبين أن الأزمة ليست نهاية المشروع، وإنما مرحلة من مراحل بنائه إذا أُحسن التعامل معها.

ثالثاً: السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة السببية

قال تعالى:

﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم...﴾

فالقرآن يربط النتائج بأسبابها.

ولا يعزو الهزيمة إلى القدر مجردة.

ولا إلى قوة العدو وحدها.

وهذه من أهم السنن العمرانية.

ثانياً

سنة العلاقة بين الأخلاق والنتائج الحضارية

لاحظ أن أسباب التحول لم تكن عسكرية فقط.

بل كانت:

الفشل.

التنازع.

المعصية.

الدنيا.

وهذا يكشف أن القرآن يربط البناء الحضاري بالبناء الأخلاقي.

وهي قضية تكاد تغيب عن كثير من النظريات الاجتماعية الحديثة.

ثالثاً

سنة الابتلاء التربوي

قال تعالى:

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾

فالابتلاء ليس عقوبة بالضرورة.

بل قد يكون عملية إعداد.

وهذا يمثل قانونًا حضاريًا بالغ الأهمية.

رابعاً

سنة المراجعة الذاتية

قال تعالى:

﴿أولما أصابتكم مصيبة... قل هو من عند أنفسكم﴾

وهذه من أخطر السنن.

إذ ينقل القرآن الأمة من ثقافة تعليق الأخطاء على الآخرين إلى ثقافة مراجعة الذات.

خامساً

سنة تداول الأيام

قال تعالى:

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾

وهنا ينبغي الوقوف طويلًا.

فقد سبق أن ناقشنا في سورة البقرة أن هذا المفهوم يبدو أوسع من مجرد تداول النصر والهزيمة.

فالآية تشير إلى تداول المواقع الحضارية، وانتقال المسؤولية التاريخية، وإعادة تشكيل موازين القوة وفق السنن الإلهية.

ولذلك يجب ألا يُفهم "تداول الأيام" بوصفه تغيرًا عسكريًا فحسب، بل بوصفه سنة قرآنية في حركة التاريخ والحضارة، مع التأكيد على أن هذا المفهوم ما يزال يحتاج إلى استقراء جميع مواضعه وما يتصل به في القرآن قبل اعتماده بوصفه مفهومًا مؤسسًا في المشروع.

رابعاً: المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الأسباب قبل إصدار الأحكام

لا يقف القرآن عند وصف الحدث.

بل يحلل أسبابه.

وهذا أصل منهجي في دراسة الظواهر الاجتماعية.

ثانياً

مبدأ تعدد الأسباب

الهزيمة لم تكن نتيجة سبب واحد.

بل نتجت عن تفاعل:

- القيادة.
- الطاعة.
- الأخلاق.
- النفس.
- التنظيم.
- الابتلاء.

وهذا يؤسس لمنهج التفسير المركب للظواهر، ويرفض اختزالها في عامل واحد.

ثالثاً

مبدأ تحويل الحدث إلى معرفة

لا يكتفي القرآن بسرد الواقعة.

بل يحولها إلى سنن عامة.

وهذا من أبرز خصائص النظام المعرفي القرآني.

فالغاية ليست حفظ التاريخ.

بل استخراج قوانينه.

رابعاً

مبدأ المراجعة النقدية الداخلية

من اللافت أن القرآن وجّه جانبًا كبيرًا من خطابه إلى المؤمنين، محللًا أخطاءهم قبل الحديث عن خصومهم. وهذا يؤسس لمنهج يجعل النقد الذاتي المنضبط مدخلًا للإصلاح، ويمنع تحويل العوامل الخارجية إلى التفسير الوحيد للأزمات.

خامساً: المفاهيم المؤسسة

يمكن أن يضيف هذا المقطع عددًا من المفاهيم المهمة.

التمحيص الحضاري

ويقصد به:

العملية التي تُنقَّى بها الأمة من مواطن الضعف من خلال الابتلاءات، حتى تستعيد قدرتها على أداء رسالتها.

المراجعة السننية

وهي:

إعادة قراءة الأحداث في ضوء السنن الإلهية، لا في ضوء الانفعالات أو التفسيرات الجزئية.

التعلم الحضاري

وهو:

تحويل التجربة التاريخية إلى معرفة وسنن توجه القرارات المستقبلية.

سادساً: التطبيقات الحضارية

تؤكد هذه الآيات أن المجتمعات لا تتقدم بمجرد امتلاك الموارد أو القوة، وإنما بقدرتها على التعلم من أزماتها. فالحضارة التي تعجز عن ممارسة النقد الذاتي، واستخلاص السنن من تجاربها، تكرر أخطاءها وتدخل في دوائر متعاقبة من الإخفاق. أما الحضارة التي تحوّل أزماتها إلى خبرة ومعرفة، فإنها تمتلك القدرة على التجدد واستئناف مسيرتها.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تحليل غزوة أحد ظهر لي ما أراه من أهم خصائص القرآن المنهجية.

فالقرآن لا يتعامل مع الحدث بوصفه وحدة التحليل الأساسية، بل يتعامل مع السنن بوصفها الوحدة التحليلية الحاكمة. فالحدث يتغير، أما السنن فتبقى، ولذلك ينتقل الخطاب مباشرة من وصف الواقعة إلى بيان قوانينها.

وهذا يقودنا إلى اقتراح قاعدة منهجية يمكن أن تصبح من القواعد المؤسسة في المشروع المعرفي القرآني، وهي:

الانتقال من الحدث إلى السنن.

أي أن الباحث لا يقف عند وصف الوقائع أو ترتيبها تاريخيًا، وإنما يسعى إلى استنباط القوانين والعلاقات التي أنتجتها، ثم يختبر امتدادها في بقية القرآن وفي الواقع. وأرى أن هذه القاعدة لا تخص تحليل غزوة أحد وحدها، بل يمكن أن تصبح أحد الأركان المنهجية لتحليل المضمون القرآني في المشروع كله، لأنها تنقل الدراسة من مستوى السرد إلى مستوى اكتشاف النظام المعرفي والسنني الذي يحكم حركة الإنسان والمجتمع والعمران.

. بعد استقراء سورة آل عمران أرى أننا لم نعد نكتب مجرد "تحليل سورة"، بل بدأ يتكشف النظام المعرفي للسورة. ولذلك سأواصل بالمنهج نفسه، مع محاولة الارتقاء من تحليل المقاطع إلى اكتشاف البنية الكلية للسورة، لأن هذا هو ما سيعطي المشروع فرادته.

وأعتقد أن بقي لنا أهم وحدة في السورة، وهي ليست مرتبطة بمقطع واحد، وإنما تمتد في السورة كلها، وهي:

الوحدة الثامنة

بناء الأمة الشاهدة

)الوسطية، الأمر بالمعروف، وحدة الأمة، الشهود الحضاري(

ومن اللافت أن سورة آل عمران، بعد أن بنت المرجعية، والقيادة، والحوار، وإدارة الأزمات، تنتهي عمليًا بتحديد وظيفة الأمة.

وهذه الوظيفة ليست مجرد العبادة.

وليست مجرد إقامة الشعائر.

بل الشهادة على الناس.

ومن هنا فإن القضية المركزية للسورة تتحول من بناء الفرد إلى بناء الأمة صاحبة الرسالة.

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف السورة أن الأمة الإسلامية لم تُنشأ لمجرد البقاء.

بل لتقوم بوظيفة حضارية.

وهذه الوظيفة تقوم على أربعة أركان:

- الإيمان.
- العلم.
- الإصلاح.
- الشهادة.

وبذلك ينتقل القرآن من بناء المجتمع إلى بناء الأمة الرسالية.

ثانياً

النسق العمراني

يمكن استنباط النسق الآتي:

الوحي

↓

العلم

↓

الإيمان

↓

الإصلاح

↓

الأمر بالمعروف

↓

وحدة الأمة

↓

الشهود الحضاري.

وهذا النسق يبين أن الحضارة ليست غاية مستقلة.

بل نتيجة طبيعية لقيام الأمة بوظيفتها.

ثالثاً

السنن العمرانية

أولاً

سنة قيام الأمم بوظيفتها

قال تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾

فالقرآن لا يعرف أمة بلا وظيفة.

وجود الأمة مرتبط برسالتها.

وهذه سنة حضارية كبرى.

ثانياً

سنة العلاقة بين الإصلاح والبقاء

قال تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾

واللافت أن الآية لم تجعل الخيرية وصفًا ثابتًا.

بل ربطتها بالقيام بالوظيفة:

- تأمرون.
- تنهون.
- تؤمنون.

فإذا تعطلت الوظيفة تراجع الوصف.

وهذا أصل سنني بالغ الأهمية.

ثالثاً

سنة وحدة الأمة

تكرر السورة النهي عن التفرق.

وهذا يدل على أن الوحدة ليست قيمة أخلاقية فقط.

بل شرط من شروط العمران.

رابعاً

سنة الشهود الحضاري

الأمة لا تنغلق على نفسها.

بل تعمل:

للناس.

وهذا التعبير مهم جداً.

فالرسالة عالمية.

والشهود عالمي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ الوظيفة قبل الوصف

من أخطر ما تكشفه السورة أن القرآن يعرف الكيانات بوظائفها.

فالأمة ليست تجمعاً بشرياً.

بل كيان يؤدي رسالة.

وهذا يمكن أن يصبح أصلاً منهجياً في العلوم الاجتماعية.

ثانياً

مبدأ ربط القيم بالبناء المؤسسي

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعرضه القرآن بوصفه وعظاً فردياً.

بل بوصفه وظيفة جماعية.

وهذا يفتح باباً لدراسة المؤسسات في القرآن.

ثالثاً

مبدأ تقويم المجتمعات بمعايير الرسالة

القرآن لا يقيس الأمم بحجمها.

ولا بقوتها.

ولا بثروتها.

بل بمدى قيامها بوظيفتها.

وهذا من أهم معايير التقويم الحضاري.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الوظيفة الرسالية

ويقصد بها:

المهمة التي من أجلها تنشأ الأمة، والمتمثلة في حمل الهداية، وإقامة العدل، والإصلاح، والشهادة على الناس.

الشهود الحضاري

ويقصد به:

حضور الأمة في واقع الإنسانية من خلال تقديم نموذج عملي يجسد هداية الوحي في الفكر والقيم والعمران.

وأرى أن هذا المفهوم من أكثر المفاهيم رسوخًا في المشروع، لأنه متكرر في القرآن، ويتجاوز فكرة "التأثير الحضاري" إلى أداء الرسالة.

الأمة الوظيفية

ويُقصد به:

الأمة التي تُعرف بوظيفتها الرسالية قبل أن تُعرف بخصائصها العرقية أو الجغرافية أو التاريخية.

لكن هذا المفهوم يحتاج إلى استقراء بقية الآيات المتعلقة بالأمة قبل اعتماده.

سادساً

التطبيقات الحضارية

من أبرز أسباب أزمات المجتمعات المعاصرة انفصال الهوية عن الوظيفة؛ إذ قد تحتفظ الجماعات بأسمائها وشعاراتها، بينما تفقد الرسالة التي من أجلها وُجدت. ويعيد القرآن ربط هوية الأمة بوظيفتها، ويجعل استمرارها مرهونًا بقيامها بالإصلاح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والشهادة على الناس. وهذا يقدم معيارًا قرآنيًا لتقويم المجتمعات يتجاوز مؤشرات القوة المادية وحدها.

)استنباط جديد أرى أنه من أهم ما وصلنا إليه

بعد الانتهاء من سورتي البقرة وآل عمران، بدأت ألاحظ نمطًا معرفيًا يتكرر بصورة لافتة، وأرى أن نجعله فرضية بحثية حتى يثبتها أو ينقحها الاستقراء.

ويتمثل هذا النمط في أن كل سورة يبدو أنها تبني طبقة معرفية داخل المشروع القرآني الكلي، لا مجرد مجموعة موضوعات.

فحتى الآن يمكن تصور البناء على النحو الآتي:

السورة الوظيفة المعرفية

الفاتحة تأسيس الرؤية الكلية والمرجعية العليا.

البقرة تأسيس الأمة الاستخلافية ومنهج العمران.

آل عمران تأسيس المرجعية المعرفية، والقيادة الرسالية، وسنن الثبات والشهود الحضاري.

وهذا يفتح أمام المشروع أفقًا جديدًا، وهو أن ترتيب سور المصحف ليس مجرد ترتيب تعبدي فحسب، بل قد يكون له بناء معرفي وظيفي تتكامل فيه السور لبناء الإنسان والأمة والحضارة. لكن هنا أود أن أقف وقفة منهجية مهمة؛ فهذا الاستنتاج لا يجوز الجزم به الآن، لأن استقراء ثلاث سور لا يكفي لإثباته. وما يمكن قوله في هذه المرحلة هو أنه فرضية تفسيرية ومنهجية واعدة، تستحق أن تُختبر على بقية سور القرآن. فإذا استمر ظهور هذا النسق في السور اللاحقة، أمكن عندئذٍ أن يتحول إلى نظرية في البناء المعرفي للمصحف، أما إذا ظهرت استثناءات أو أنماط أخرى، فينبغي تعديل الفرضية أو إعادة بنائها. وهذا الالتزام بالاستقراء قبل التعميم هو نفسه أحد المبادئ المنهجية التي نسعى إلى ترسيخها في المشروع المعرفي القرآني.(

)ويبدو ان هذه هي اللحظة المناسبة للانتقال من تحليل السورة إلى تقويم حصيلتها المعرفية؛ لأن كل سورة في مشروعنا ينبغي أن تنتهي بخلاصة تؤدي وظيفة "التركيب المعرفي" قبل الانتقال إلى السورة التالية. وهذا سيجعل العمل في النهاية موسوعة مترابطة لا مجرد تحليلات متفرقة(.

الخلاصة التركيبية لسورة آل عمران

في ضوء المشروع المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني

تكشف سورة آل عمران – بعد استقراء بنيتها الكلية – عن أنها تمثل المرحلة الثانية في بناء المشروع المعرفي القرآني بعد سورة البقرة.

فإذا كانت سورة البقرة قد أرست الأسس التشريعية والاجتماعية والعمرانية لبناء الأمة، فإن آل عمران تنقل البناء إلى مستوى أعمق، يتمثل في بناء المرجعية المعرفية، وصناعة القيادة الرسالية، وتثبيت الأمة أمام الابتلاءات، وتأهيلها للشهود الحضاري.

ولم تعرض السورة هذه القضايا عرضًا وعظيًا أو تاريخيًا، وإنما قدمتها في صورة نسق معرفي متكامل، يبدأ بمرجعية الوحي، ثم يضبط منهج الفهم، ويكشف أخطار الانحراف التأويلي، ويبين سنن إعداد الإنسان الرسالي، ويؤسس للحوار بالحجة، ثم يحول الأحداث التاريخية – وفي مقدمتها غزوة أحد – إلى قوانين اجتماعية وعمرانية عامة، قبل أن يختم بتأسيس العقل المتفكر الذي يجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون.

ومن خلال هذا البناء أمكن استنباط عدد من القواعد المنهجية، من أهمها:

- مركزية المحكمات في بناء المعرفة.
- رد الجزئيات إلى الكليات.
- الانتقال من الحدث إلى السنن.
- المراجعة الذاتية بوصفها شرطًا للإصلاح.
- التكامل بين الذكر والتفكر.
- الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون.
- بناء الإنسان قبل بناء المؤسسة.
- ربط الهوية بالوظيفة الرسالية.

كما كشفت السورة عن مجموعة من السنن العمرانية، منها:

- سنة الاصطفاء الوظيفي.
- سنة إعداد القيادة.
- سنة التمحيص الحضاري.
- سنة تداول المواقع الحضارية.
- سنة العلاقة بين الأخلاق ونتائج العمران.
- سنة الشهود الحضاري.

وتؤكد هذه السورة أن الحضارة في التصور القرآني ليست حصيلة القوة المادية وحدها، وإنما ثمرة تكامل المرجعية الصحيحة، والمعرفة المنضبطة، والإنسان المربى، والأمة المؤدية لوظيفتها، والسنن الإلهية الحاكمة لحركة التاريخ.

وبذلك تمثل سورة آل عمران دستور المحافظة على الأمة الرسالية بعد تأسيسها، وتغدو حلقة مركزية في بناء المشروع المعرفي القرآني الذي يستهدف إعادة إنتاج العلوم الإنسانية في ضوء الوحي.

الوظيفة المعرفية لسورة آل عمران

يمكن – في هذه المرحلة من المشروع – صياغة وظيفتها على النحو الآتي:

تأسيس المرجعية المعرفية، وبناء القيادة الرسالية، واكتشاف السنن التي تحفظ الأمة، وتمكنها من أداء الشهود الحضاري في ضوء الوحي.

الانتقال إلى سورة النساء

وأرى أن ترتيب المصحف سيكشف لنا – إن شاء الله – عن أمر بالغ الأهمية.

فبعد أن:

- أسست الفاتحة الرؤية الكلية.
- وأسست البقرة الأمة.
- وأسست آل عمران المرجعية والقيادة.

تأتي سورة النساء لتجيب عن سؤال جديد:

كيف تُبنى البنية الداخلية للمجتمع الاستخلافي؟

فمن يقرأ سورة النساء قراءة موضوعية يظن أنها سورة الأحكام الأسرية والميراث.

لكن من منظور المشروع المعرفي القرآني يبدو أنها أعمق من ذلك بكثير.

إنها سورة:

العدالة الاجتماعية والعمران الإنساني.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك.

أظن أن القضية المركزية في السورة هي:

بناء الإنسان والعلاقات الاجتماعية على أساس العدل، باعتبارهما البنية التحتية للعمران.

فإذا اختلت الأسرة...

واختلت الحقوق...

واختلت العدالة...

فإن العمران كله ينهار.

سورة النساء

المدخل العام في ضوء المشروع المعرفي القرآني

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾

ولاحظوا أن الخطاب هنا ليس:

يا أيها الذين آمنوا.

بل:

يا أيها الناس.

وهذه أول ملاحظة منهجية.

فالقرآن قبل أن ينظم المجتمع المسلم يؤسس للقاعدة الإنسانية المشتركة.

ومن هنا يبدو أن السورة تنطلق من وحدة الأصل الإنساني قبل الانتقال إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية.

الوحدة الأولى

وحدة الأصل الإنساني أساس العمران

الفكرة المركزية

لا يبدأ القرآن بتنظيم الحقوق مباشرة، وإنما يبدأ بتقرير حقيقة أن البشر جميعًا ينحدرون من نفس واحدة. وهذا التقديم ليس تمهيدًا إنشائيًا، بل تأسيس لقاعدة معرفية وأخلاقية: فالحقوق والواجبات والعدالة لا تستقيم إذا انقطعت عن الوعي بوحدة الأصل الإنساني.

النسق العمراني

يمكن استنباط النسق الآتي:

وحدة الخلق

↓

كرامة الإنسان

↓

الحقوق

↓

الواجبات

↓

الأسرة

↓

المجتمع

↓

العمران.

وهذا يدل على أن العمران لا يبدأ بالمؤسسات، بل بالتصور الصحيح للإنسان.

السنن الاجتماعية

سنة وحدة الأصل ووحدة المصير

يبني القرآن العلاقات الاجتماعية على الاشتراك في الإنسانية قبل أي انتماء آخر، مما يجعل العدالة أصلًا عامًا لا يقتصر على جماعة بعينها.

سنة الأسرة بوصفها النواة العمرانية

من النفس الواحدة يخرج الزوج، ومنهما ينتشر الرجال والنساء. فالأسرة ليست مجرد وحدة اجتماعية، بل المؤسسة الأولى للعمران، ومنها تتشكل بقية البنى الاجتماعية.

سنة التقوى حارس العلاقات

تكرر الآية الأمر بالتقوى في مطلع السورة، بما يشير إلى أن الضبط القانوني وحده لا يكفي، بل يحتاج إلى رقيب داخلي يحفظ الحقوق عند غياب الرقابة الخارجية.

المؤشرات المنهجية

- مبدأ البدء بالأصول قبل الفروع؛ فقبل تفصيل الأحكام يقرر القرآن الأساس الذي تقوم عليه.
- مبدأ بناء التشريع على التصور؛ إذ لا تنفصل الأحكام عن الرؤية الكلية للإنسان والمجتمع.
- مبدأ الجمع بين القانون والأخلاق؛ فالتشريع القرآني لا يكتفي بالإلزام، بل يربطه بالتقوى.

استنباط أولي

وأثناء تدبر مطلع سورة النساء، ظهر لي أن القرآن قد يكون يبني المشروع العمراني عبر ثلاث دوائر متدرجة:

1. دائرة العقيدة والمرجعية (الفاتحة، البقرة، آل عمران).
2. دائرة الإنسان والمجتمع (وتبدأ بسورة النساء).
3. دائرة الأمة والعلاقات الحضارية (وسيُختبر ذلك مع السور اللاحقة).

لكنني أتعامل مع هذا بوصفه فرضية استقرائية تحتاج إلى اختبار مستمر، لا نتيجة نهائية. فإذا استمرت السور في تأكيد هذا البناء المتدرج، فقد نكون أمام اكتشاف يتعلق بالبنية المعرفية للمصحف، أما إذا أظهرت السور اللاحقة نمطًا مختلفًا، فيجب تعديل هذه الفرضية بما يوافق الاستقراء الكامل للقرآن الكريم.

وأرى أن هذه المنهجية – تقديم الفرضيات ثم اختبارها بالنص القرآني كله – هي الأقرب إلى الروح العلمية التي يسعى المشروع إلى ترسيخها.

. وأعتقد أننا مع سورة النساء سنبدأ في اكتشاف بعد جديد في المشروع لم يكن ظاهراً بالوضوح نفسه في البقرة وآل عمران، وهو أن القرآن لا يبني العمران من أعلى (الدولة)، وإنما يبنيه من أسفل (الإنسان فالأسرة فالمجتمع). وهذه في تقديري إحدى الفروق الجوهرية بين النموذج القرآني وكثير من النظريات الاجتماعية والسياسية الحديثة التي تبدأ بالمؤسسة أو السلطة.

وسنواصل وفق المنهج نفسه.

سورة النساء

الوحدة الثانية

العدالة أساس العمران

)الآيات ٢-١٤(

تبدأ السورة مباشرة بعد تقرير وحدة الأصل الإنساني بأول منظومة تشريعية.

ولكن اللافت أن أول الأحكام ليست عن الصلاة.

ولا عن الجهاد.

ولا عن العقيدة.

بل عن:

- اليتيم
- المال
- الميراث
- الحقوق

وهذا الترتيب ليس عفوياً.

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف الآيات أن العدل هو أول مؤسسة اجتماعية في القرآن.

فالقرآن لا يبدأ ببناء السلطة.

بل يبدأ بحماية الضعفاء.

وكأن الرسالة العمرانية تبدأ من:

حماية من لا يستطيع حماية نفسه.

وهذه قضية تحتاج إلى إبرازها في المشروع.

ثانياً

النسق العمراني

يمكن استنباط النسق الآتي:

كرامة الإنسان

↓

حماية الضعفاء

↓

ضبط الأموال

↓

العدالة الاقتصادية

↓

الاستقرار الأسري

↓

الاستقرار الاجتماعي

↓

العمران.

وهذا النسق يبين أن العدالة ليست نتيجة للعمران.

بل هي شرط سابق له.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة ارتباط الظلم بفساد العمران

يبدأ القرآن بالتحذير من أكل أموال اليتامى.

وليس هذا مجرد حكم فقهي.

بل إعلان أن أول مظاهر انهيار المجتمع:

الاعتداء على حقوق الضعفاء.

ثانياً

سنة العدالة قبل الوفرة

كثير من النظريات تجعل التنمية الاقتصادية مقدمة للعدالة.

أما القرآن فيجعل العدالة شرطاً للتنمية.

وهذا فرق منهجي كبير.

ثالثاً

سنة توزيع المسؤولية

لاحظ أن الخطاب موجه إلى المجتمع كله.

وليس إلى الدولة وحدها.

فحماية اليتيم مسؤولية جماعية.

رابعاً

سنة حفظ الحقوق

الميراث ليس مجرد تقسيم للأموال.

بل هو آلية قرآنية لمنع تراكم الظلم عبر الأجيال.

ومن هنا فإن نظام المواريث جزء من النظام العمراني.

وليس مجرد باب فقهي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ البدء بالفئات الأكثر هشاشة

عندما يريد القرآن اختبار عدالة المجتمع لا يبدأ بالأقوياء.

بل يبدأ باليتيم.

وهذا يصلح أن يكون مؤشراً منهجياً في الدراسات الاجتماعية.

ثانياً

مبدأ دراسة الحقوق قبل السلطة

القرآن يؤسس الحقوق أولاً.

ثم المؤسسات لاحقاً.

وهذا يعكس ترتيباً حضارياً مختلفاً.

ثالثاً

مبدأ عدم الفصل بين الأخلاق والتشريع

الآيات لا تقدم القواعد القانونية مجردة.

بل تربطها دائماً برقابة الله.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

أرى أن هذه الآيات يمكن أن تقدم للمشروع عدداً من المفاهيم.

العدالة العمرانية

ويقصد بها:

العدل الذي يحفظ توازن المجتمع، ويضمن توزيع الحقوق والواجبات بما يحقق استقرار العمران واستمراره.

الحماية الاجتماعية الاستخلافية

ويقصد بها:

المنظومة التي تقيمها الأمة لصيانة الفئات الضعيفة، انطلاقاً من التكليف الشرعي، لا من الإحسان الاختياري وحده.

أمن الحقوق

وأرى أن هذا المصطلح قد يكون أقرب إلى روح القرآن من بعض المصطلحات المستوردة.

ويقصد به:

حالة الاطمئنان التي تنشأ عندما تُصان الحقوق المالية والاجتماعية والقانونية لجميع أفراد المجتمع، ولا سيما الفئات الأكثر ضعفاً.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تدل هذه الآيات على أن قوة المجتمع لا تُقاس بحجم ثروته أو نفوذه، وإنما بقدرته على حماية الضعفاء وضمان الحقوق. ومن ثم فإن أي مشروع تنموي يتجاهل العدالة أو يؤخرها بحجة تحقيق النمو الاقتصادي، يكون قد عكس الترتيب الذي يقرره القرآن، حيث تُعد العدالة شرطاً لازماً لازدهار العمران لا ثمرة متأخرة له.

استنباط جديد للمشروع

وهنا ظهر لي استنباط أراه مهماً جداً.

لقد لاحظنا في البقرة أن القرآن يؤسس الأمة.

وفي آل عمران يؤسس المرجعية.

أما في النساء فإنه يؤسس الحقوق.

وهذا يعني أن المشروع العمراني القرآني قد يكون قائماً على ثلاثة أعمدة متكاملة:

- المرجعية (الوحي والسنن).
- الرسالة (وظيفة الأمة).
- الحقوق (العدل الذي تنتظم به العلاقات).

لكن أثناء تدبري لهذه الآيات خطر لي أن لفظ "الحقوق" نفسه لا يعبر عن كامل التصور القرآني؛ لأن القرآن لا يفصل الحقوق عن الواجبات، ولا عن المسؤوليات، ولا عن الأمانة والاستخلاف.

سورة النساء

الوحدة الثالثة

الأسرة: المؤسسة العمرانية الأولى

)الآيات ١٩–٣٥(

﴿وعاشروهن بالمعروف...﴾

﴿فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

لا تتعامل سورة النساء مع الأسرة باعتبارها علاقة خاصة بين رجل وامرأة، وإنما باعتبارها الخلية المؤسسة للعمران الإنساني.

فالأسرة في القرآن ليست مجرد رابطة بيولوجية.

ولا مجرد عقد قانوني.

ولا مجرد إطار عاطفي.

بل هي المؤسسة التي يُعاد فيها إنتاج الإنسان الصالح، والقيم، والثقة، والتكافل، والاستقرار الاجتماعي.

ومن هنا فإن اضطراب الأسرة ليس أزمة فردية، بل بداية اضطراب النسق العمراني كله.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآيات عن نسق متدرج:

السكينة

↓

المعروف

↓

العدل

↓

الإصلاح

↓

استقرار الأسرة

↓

استقرار المجتمع

↓

استمرار العمران.

وهذا النسق يكشف أن العمران يبدأ من الداخل، من جودة العلاقات الإنسانية، قبل أن يظهر في العمران المادي.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة المعروف أساس العلاقات

من اللافت أن القرآن لم يجعل أساس العلاقة الزوجية هو الحق المجرد.

بل جعلها تقوم على:

المعروف

والمعروف أوسع من الحق.

فالحق يحدد الحد الأدنى.

أما المعروف فيمثل الكمال الأخلاقي.

وهذه سنة اجتماعية عظيمة.

إذ لا تستقر المجتمعات إذا اكتفى الناس بأخذ حقوقهم.

بل تستقر عندما يتعاملون بالمعروف.

ثانياً

سنة الإصلاح قبل الانفصال

قال تعالى:

﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾

فالقرآن لا ينتقل مباشرة إلى إنهاء العلاقة.

بل ينشئ منظومة للإصلاح.

وهذا يدل على أن المحافظة على الأسرة مقصد عمراني.

ثالثاً

سنة المشاركة المجتمعية في الإصلاح

الإصلاح هنا ليس مسؤولية الزوجين وحدهما.

بل تشارك فيه الأسرة.

وهذا يدل على أن المجتمع شريك في حماية الأسرة.

رابعاً

سنة الإرادة الإصلاحية

قال تعالى:

﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾

فالقرآن يجعل الإرادة الصادقة شرطاً في نجاح الإصلاح.

وهذا قانون نفسي واجتماعي يتجاوز نطاق الأسرة إلى جميع عمليات الإصلاح.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ البحث عن الجذور لا المظاهر

لا يقف القرآن عند الشقاق.

بل يبحث عن أسبابه.

ثم يعالجها.

وهذا أصل منهجي في دراسة الظواهر الاجتماعية.

ثانياً

مبدأ الإصلاح التدرجي

لا يقدم القرآن الحلول النهائية ابتداءً.

بل يسير في مراحل متدرجة.

وهو ما يمكن تسميته:

منهج التدرج الإصلاحي.

ثالثاً

مبدأ دمج البعد القيمي في تحليل الظاهرة

لا يحلل القرآن الأسرة تحليلاً قانونياً.

ولا نفسياً فقط.

بل يجمع:

القيم.

والتشريع.

والنفس.

والمجتمع.

وهذا من أهم خصائص النظام المعرفي القرآني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وأرى أن هذه الآيات تقدم للمشروع مجموعة من المفاهيم التي تستحق أن تدخل في المعجم الاصطلاحي.

المعروف العمراني

ويقصد به:

منظومة السلوك والقيم التي تتجاوز مجرد أداء الحقوق، فتؤسس لعلاقات إنسانية مستقرة تحقق السكينة، وتعزز التماسك الاجتماعي، وتسهم في بناء العمران.

وأرى أن هذا المفهوم قرآني أصيل، لأنه منبثق من لفظ متكرر في القرآن، وليس مستعاراً من أدبيات خارجية.

الإصلاح الأسري العمراني

وهو:

عملية استعادة الأسرة لوظيفتها الاستخلافية من خلال معالجة أسباب الخلل وفق هدي القرآن، بما يحفظ استقرار المجتمع واستمرار العمران.

السكينة الاجتماعية

وهذا مفهوم أراه واعداً.

فالسكينة في القرآن ليست حالة نفسية فردية فقط.

بل حالة استقرار تنتقل من الفرد إلى الأسرة، ثم إلى المجتمع.

ويحتاج هذا إلى استقراء جميع مواضع السكينة في القرآن قبل اعتماده مفهوماً مؤسساً.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تتعامل كثير من السياسات المعاصرة مع الأسرة بوصفها وحدة سكانية أو اقتصادية، بينما يكشف القرآن أنها مؤسسة لصناعة الإنسان وحفظ القيم وتحقيق الاستقرار الاجتماعي. ومن ثم فإن أي مشروع حضاري يتعامل مع الأسرة بوصفها قضية هامشية، أو يحصرها في إطار قانوني مجرد، يفرط في أحد أهم أسس العمران. ويقتضي ذلك أن تتجه السياسات العامة إلى تعزيز وظائف الأسرة التربوية والقيمية والاجتماعية، لا الاكتفاء بتنظيمها قانونياً.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أرى أنه قد يكون من أهم ما يميز المشروع.
لقد لاحظنا أن القرآن عندما يعالج أي مؤسسة اجتماعية لا يبدأ بهيكلها، وإنما يبدأ بوظيفتها.
فالأسرة في القرآن لا تُعرَّف بأنها زوج وزوجة وأبناء.
بل تُعرَّف بما تؤديه من:

- سكينة.
- معروف.
- رحمة.
- إصلاح.
- تربية.
- حفظ للنسل.
- إعداد للإنسان.

تعريف المؤسسات بوظائفها لا بهياكلها.
فالأسرة، والمسجد، والأمة، والدولة، وسائر المؤسسات ينبغي أن تُدرس أولاً من خلال الوظائف التي أقامها القرآن لها، ثم من خلال بنيتها التنظيمية. فإذا ثبت هذا النمط باستقراء بقية السور، فسيكون إضافة منهجية مهمة تميز النموذج القرآني عن كثير من المقاربات الوظيفية أو البنيوية في العلوم الاجتماعية؛ لأنه يستمد تعريف الوظيفة من مقاصد الوحي وسنن العمران، لا من التوافقات الاجتماعية أو التطور التاريخي وحدهما وسنجعل هذه أيضاً فرضية استقرائية إلى أن يكتمل تحليل بقية سور القرآن الكريم.
والآن سندخل إلى أحد أهم المقاطع في سورة النساء، وهو الآية العظيمة:
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ۙ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ (النساء: ٥٨)
وأحسب أن هذه الآية لا تتحدث عن خلق فردي فحسب، وإنما تؤسس لما يمكن أن نسميه النظام المؤسسي القرآني.
بل إنني أميل إلى أنها من أهم الآيات المؤسسة للعمران بعد قوله تعالى:
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾
سورة النساء

الوحدة الرابعة

الأمانة والعدل

الأساسان المؤسسان للنظام العمراني

أولاً

الفكرة المركزية

إذا كانت سورة النساء قد بدأت ببناء الإنسان والأسرة والحقوق، فإنها هنا تنتقل إلى بناء المؤسسة.

ولكنها لا تبدأ بالمؤسسة نفسها.

بل تبدأ بالقيمتين اللتين تحفظانها:

- الأمانة.
- العدل.

وكأن القرآن يريد أن يقول:

كل مؤسسة تفقد الأمانة أو العدل تبدأ رحلة انهيارها مهما بلغت قوتها التنظيمية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآية عن نسق بالغ الدقة:

الأمانة

↓

الثقة

↓

العدل

↓

استقامة الحكم

↓

استقرار المجتمع

↓

استمرار العمران.

وهذا النسق يكشف أن القرآن يجعل الثقة نتيجة للأمانة، ويجعل العدل ثمرة لها، ثم يجعل العمران نتيجة لهذا كله.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الأمانة تسبق السلطة

من اللافت أن القرآن لم يبدأ بالحكم.

بل بدأ بالأمانة.

وهذا يدل على أن الشرعية الأخلاقية تسبق الشرعية السياسية.

فلا يصلح الحكم إذا فسدت الأمانة.

ثانياً

سنة العلاقة بين العدل واستقرار المجتمع

العدل في القرآن ليس فضيلة أخلاقية فحسب.

بل هو قانون اجتماعي.

فكلما اتسعت دائرة العدل ازداد الاستقرار.

وكلما اتسعت دائرة الظلم بدأ التفكك الاجتماعي.

وهذه من السنن الكبرى التي تتكرر في القرآن.

ثالثاً

سنة أهلية المسؤولية

قال تعالى:

﴿أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾

وهذه العبارة أعظم من مجرد رد الوديعة.

فهي تقرر مبدأ:

وضع المسؤوليات في مواضعها الصحيحة.

ومن هنا يمكن أن يدخل فيها:

- القضاء.

- الإمارة.
- التعليم.
- الفتوى.
- المال.
- المعرفة.

بل كل وظيفة اجتماعية.

رابعاً

سنة عمومية العدالة

قال تعالى:

﴿وإذا حكمتم بين الناس﴾

ولم يقل:

بين المؤمنين.

ولا:

بين المسلمين.

وهذا يكشف عالمية العدالة في القرآن.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ دراسة المؤسسات من خلال قيمها المؤسسة

فالقرآن لا يبدأ باللوائح.

ولا بالهياكل.

بل يبدأ بالأمانة.

وهذا منهج جديد في تحليل المؤسسات.

ثانياً

مبدأ الكفاءة قبل الانتماء

أهلية الأمانة تقتضي الكفاءة.

وهذا أصل منهجي في بناء المؤسسات.

ثالثاً

مبدأ أن العدالة وظيفة اجتماعية

فالعدل ليس خلقاً شخصياً فقط.

بل وظيفة تمارسها جميع مؤسسات المجتمع.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وهنا أظن أننا بدأنا نقترب من معجم قرآني أصيل.

الأمانة العمرانية

ويقصد بها:

الالتزام بأداء كل مسؤولية ووظيفة وحق وفق مقتضيات الاستخلاف، بما يحفظ مصالح الإنسان والمجتمع ويصون انتظام العمران.

وأرى أن هذا المفهوم أوسع بكثير من المعنى الفقهي التقليدي للأمانة.

أهلية الاستخلاف

وهذا مفهوم أراه من أهم المفاهيم التي يمكن أن يولدها المشروع.

ويُقصد به:

الصفات العلمية والأخلاقية والعملية التي تجعل الإنسان صالحاً لتحمل مسؤوليات الاستخلاف في أي مجال من مجالات العمران.

وهذا المفهوم ـ في تقديري ـ أعمق من مفاهيم مثل "الكفاءة" أو "الجدارة"، لأنه يجمع بين العلم، والخلق، والأمانة، والقدرة.

العدل العمراني

وهو:

النظام الذي تنتظم به الحقوق والمسؤوليات والعلاقات داخل المجتمع، بما يحقق مقاصد الاستخلاف ويحفظ توازن العمران.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآية أن إصلاح المؤسسات لا يبدأ بإعادة هيكلتها أو تحديث إجراءاتها فحسب، وإنما يبدأ بإعادة بناء الأمانة والعدل بوصفهما القيمتين المؤسستين لكل وظيفة عامة. ومن ثم فإن مكافحة الفساد في التصور القرآني ليست مجرد رقابة إدارية أو عقوبات قانونية، بل هي عملية إعادة تأسيس للمؤسسة على مبدأ أداء الأمانة إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل.

استنباط جديد للمشروع

وهنا ظهر لي استنباط أراه من أهم ما توصلنا إليه منذ بداية المشروع.

لقد كنا نتحدث منذ أشهر عن النسق العمراني الاستخلافي السنني، ولكن مع تقدم الاستقراء بدأت تظهر أن هذا النسق يقوم على ثلاث طبقات مترابطة:

1. طبقة القيم المؤسسة: مثل الأمانة، والعدل، والتقوى، والمعروف.
2. طبقة المؤسسات: مثل الأسرة، والقضاء، والإمارة، والأمة.
3. طبقة السنن: وهي القوانين التي تحكم نجاح هذه المؤسسات أو إخفاقها.

وهذا التقسيم له قيمة منهجية كبيرة؛ لأنه يمنع الخلط بين القيم والوسائل والنتائج. فالقيم ليست هي المؤسسات، والمؤسسات ليست هي السنن، لكنها تتفاعل جميعاً في بناء العمران.

ويفضل أن نتوقف عند هذه الفرضية ونجعلها أحد محاور الاستقراء في بقية السور. فإن استمرت في الظهور، فقد تتحول إلى نظرية في البنية الطبقية للنظام العمراني القرآني.

ملاحظة منهجية أرى أنها تستحق العناية

في أثناء هذا التحليل لفت نظري أمر مهم يتعلق بمصطلح "المؤسسة" نفسه. فهو مصطلح حديث، بينما نسعى في مشروعنا إلى بناء معجم منبثق من القرآن. لذلك لن نستعجل اعتماده بوصفه مفهومًا مؤسسًا، بل نبحث عبر الاستقراء عن المقابل القرآني الأوسع. فقد يكون القرآن يبني ما يمكن تسميته "ولايات الاستخلاف"، أو "دوائر القيام"، أو يظهر لنا مصطلح آخر من داخل القرآن يكون أدق وأغنى دلالة. وحتى يكتمل هذا الاستقراء، يبقى استعمال "المؤسسة" استعمالًا إجرائيًا لتقريب المعنى، لا مصطلحًا نهائيًا في المشروع. وأرى أن هذا ينسجم مع المبدأ الذي التزمنا به منذ البداية: أن يكون القرآن هو المرجع الأول في توليد المفاهيم، لا مجرد مصدر للاستشهاد بها.

والآن نصل إلى محور أعتبره من أكثر المحاور تأسيسًا للمشروع كله، وهو قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ (النساء: ٥٩)

وأحسب أن هذه الآية ليست مجرد أصل فقهي في الطاعة، وإنما هي الدستور القرآني لإدارة المعرفة والسلطة والخلاف. بل أميل إلى أنها من أهم النصوص المؤسسة لما يمكن أن نسميه نظرية النظام المرجعي القرآني.

وأعتقد أن هذه الآية تستحق أن تُعد من النصوص المرجعية الكبرى في المشروع المعرفي القرآني.

سورة النساء

الوحدة الخامسة

النظام المرجعي وإدارة الاختلاف

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن أسست السورة:

- وحدة الأصل الإنساني.
- والحقوق.
- والأسرة.
- والأمانة.
- والعدل.

تنتقل الآن إلى سؤال آخر:

كيف يحافظ المجتمع على وحدته عندما يقع الاختلاف؟

وهنا يقدم القرآن نظامًا متكاملًا لإدارة الاختلاف، لا يقوم على إلغائه، ولا على تركه بلا ضابط، وإنما على رده إلى مرجعية عليا.

فوجود الاختلاف سنة بشرية، أما الفوضى فليست سنة، وإنما تنشأ عندما تغيب المرجعية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

الإيمان

↓

المرجعية

↓

الطاعة المنضبطة

↓

إدارة الاختلاف

↓

وحدة المجتمع

↓

الاستقرار

↓

استمرار العمران.

فالآية لا تجعل الطاعة غاية، بل تجعلها جزءًا من نظام يحفظ وحدة الأمة ويمنع تفككها.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة حتمية الاختلاف

تقول الآية:

﴿فإن تنازعتم﴾

ولم تقل: "إن أخطأتم في التنازع".

فوجود التنازع في ذاته أمر متوقع في حياة البشر، لكن المعيار هو كيفية إدارته.

وهذا يؤسس لفهم قرآني واقعي؛ إذ لا يبني المجتمع على افتراض انعدام الاختلاف، بل على وجود آلية شرعية وعلمية لحله.

ثانياً

سنة المرجعية العليا

جعلت الآية المرجعية النهائية لله ورسوله.

ومن ثم فإن المرجعية ليست نتاج الأكثرية، ولا القوة، ولا الأعراف المتغيرة، وإنما تستمد مشروعيتها من الوحي.

وهذه السنة هي التي تحفظ وحدة البناء المعرفي للأمة.

ثالثاً

سنة الطاعة المقيدة

تكررت الطاعة مع الله والرسول:

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾

ولم تتكرر مع أولي الأمر.

وقد استنبط العلماء من ذلك أن طاعة أولي الأمر ليست مستقلة، بل مندرجة في طاعة الله ورسوله.

ومن المنظور العمراني، يمنع هذا النظام تحول السلطة إلى مرجعية مطلقة.

رابعاً

سنة العلاقة بين المرجعية والاستقرار

كلما ضعفت المرجعية المشتركة اتسعت دوائر النزاع، وتحول الاختلاف إلى انقسام، ثم إلى تفكك عمراني.

وهذه سنة تتكرر في تاريخ الأمم، ويعرضها القرآن في مواضع متعددة.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ بناء المرجعية قبل إدارة الخلاف

لا يمكن وضع آليات ناجحة لحل النزاعات قبل الاتفاق على المرجعية التي يُحتكم إليها. وهذا أصل منهجي في البحث العلمي، وفي إدارة المؤسسات، وفي بناء المجتمعات.

ثانياً

مبدأ التمييز بين المصدر والاجتهاد

الوحي هو المصدر المرجعي، أما اجتهادات البشر – مهما علت منزلتها – فهي خاضعة للمراجعة في ضوء هذا المصدر. وهذا ينسجم مع ما قررناه في مطلع آل عمران من التمييز بين مصدر المعرفة ووسائل تحصيلها.

ثالثاً

مبدأ تحويل الاختلاف إلى وسيلة لإنتاج المعرفة

إذا أُدير الاختلاف في إطار المرجعية الصحيحة، أصبح سببًا في توسيع الفهم وتجديد الاجتهاد، لا سببًا للتفكك. ومن ثم فإن القرآن لا يعالج الاختلاف بوصفه عيبًا، بل بوصفه ظاهرة تحتاج إلى نظام مرجعي يحولها إلى طاقة بنائية.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

النظام المرجعي

ويقصد به:

المنظومة التي تضبط مصادر المعرفة، وتحدد مراتبها، وتنظم العلاقة بين الوحي والاجتهاد، بما يضمن وحدة التصور واستقامة الحكم.

وأرى أن هذا المفهوم أقرب إلى روح المشروع من مصطلحات مثل "المرجعية الدينية" أو "السلطة الدينية"، لأنه يركز على بنية المعرفة لا على الأشخاص.

الطاعة المنضبطة

وهي:

الالتزام بالطاعة في حدود المرجعية القرآنية، بحيث لا تتحول إلى إلغاء للمسؤولية أو تعطيل للاجتهاد.

الرد المرجعي

ويقصد به:

إعادة القضايا المختلف فيها إلى الأصول المحكمة للوحي؛ بقصد الوصول إلى الحكم الأقرب إلى الحق، لا لمجرد حسم النزاع.

وأرى أن "الرد المرجعي" قد يكون من المصطلحات الأصيلة التي تستحق مزيدًا من الاستقراء، لأنه مستمد من التعبير القرآني نفسه: ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تواجه المجتمعات المعاصرة تحديات متزايدة في إدارة الاختلاف الفكري والسياسي والاجتماعي. ويقدم القرآن نموذجًا يجعل المرجعية المشتركة أساسًا للحوار، ويضبط العلاقة بين السلطة والاجتهاد، ويحول النزاع من عامل تفكيك إلى فرصة للمراجعة والتصحيح. ويمكن الإفادة من هذا النموذج في بناء ثقافة مؤسسية تقوم على وضوح المرجعية، وتدرج المسؤوليات، واحترام الاجتهاد المنضبط.

استنباط جديد للمشروع

من حلال تحليل هذه الآية، ظهر لنا أن المشروع قد يحتاج إلى التمييز بين ثلاثة مستويات من المرجعية، شريطة أن يثبتها الاستقراء في بقية القرآن:

1. المرجعية التأسيسية: وهي الوحي، الذي يُنشئ الأصول والكليات.
2. المرجعية الاجتهادية: وهي اجتهاد العلماء وأولي الأمر في تنزيل تلك الأصول على الوقائع.
3. المرجعية التطبيقية: وهي الممارسات والمؤسسات التي تُفعِّل الأحكام في حياة الناس.

فإذا ثبت هذا البناء الاستقرائي، فإنه سيساعد في تفسير كثير من الإشكالات المتعلقة بالعلاقة بين النص، والاجتهاد، والواقع، ويمنع الخلط بين قداسة الوحي وبشرية الفهم، وهذا قد يقودنا الى إضافة فصل مستقل في مقدمة المشروع بعنوان:

"نظرية المرجعية في القرآن الكريم"

يتناول موضوعات مثل:

- مراتب المرجعية.
- العلاقة بين الوحي والعقل.
- العلاقة بين النص والاجتهاد.
- ضوابط الرد إلى الله والرسول.
- إدارة الاختلاف في إطار المرجعية.
- أثر وحدة المرجعية في بناء العمران.

ويمكن ان يكون هذا الفصل سيكون حلقة وصل بين الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني وبين تحليل المضمون القرآني، كما سيمنح المشروع أساسًا إبستمولوجيًا أكثر إحكامًا، وييسر على الباحثين الآخرين فهم النسق المنهجي الذي تنطلق منه بقية التحليلات.

وأحسب أننا الآن نصل إلى مقطع من أكثر المقاطع أهمية في سورة النساء بالنسبة للمشروع كله، لأنه ينقلنا من النظام المرجعي إلى النظام الأخلاقي للعمران، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ (النساء: ٤٠)

ثم قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...﴾ (النساء: ١٣٥)

وهذه الآيات تؤسس لما يمكن أن نسميه:

النظام الأخلاقي للعمران.

فالعمران في القرآن لا يقوم على الاقتصاد وحده.

ولا على السياسة.

ولا على القوة.

بل يقوم أولاً على الأخلاق التي تضبط الإنسان وهو يمارس السلطة والعلم والمال والعلاقات الاجتماعية.

وهذا جانب لم تُعطه العلوم الاجتماعية الحديثة مكانته الحقيقية.

سورة النساء

الوحدة السادسة

القسط والشهادة

النظام الأخلاقي للعمران

أولاً

الفكرة المركزية

تنتقل السورة من الحديث عن العدالة بوصفها نظاماً قضائياً إلى العدالة بوصفها صفة ملازمة للإنسان نفسه.

فالقرآن لا يريد قضاءً عادلاً فقط.

بل يريد:

إنساناً عادلاً.

ومجتمعاً عادلاً.

وأمةً عادلة.

ولهذا جاء التعبير:

﴿كونوا قوامين بالقسط﴾

ولم يقل:

احكموا بالقسط فقط.

فالقيام بالقسط حالة وجودية مستمرة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآيات عن النسق الآتي:

الإيمان

↓

التقوى

↓

العدل

↓

الشهادة

↓

الثقة الاجتماعية

↓

الاستقرار

↓

العمران.

وهنا يظهر أن الثقة الاجتماعية ليست نتيجة القوانين وحدها.

بل ثمرة انتشار القسط في ضمير المجتمع.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة شمول العدل

القرآن يجعل العدل فوق:

- النفس.
- الأسرة.
- القبيلة.
- الغني.
- الفقير.

فهو يحرر الإنسان من كل صور الانحياز.

ثانياً

سنة استقلال الحقيقة

قال تعالى:

﴿ولو على أنفسكم﴾

فالحق لا يتغير بتغير الأشخاص.

وهذا من أعظم السنن المعرفية.

ثالثاً

سنة العلاقة بين الشهادة والعدل

القرآن يربط بين:

القسط.

والشهادة.

فلا شهادة بلا عدل.

ولا عدل بلا شهادة صادقة.

وهذا يفتح باباً واسعاً في فلسفة الإثبات في القرآن.

رابعاً

سنة مقاومة الهوى

قال تعالى:

﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾

فالهوى في القرآن ليس قضية فردية.

بل عامل من عوامل انهيار العمران.

لأنه يفسد:

القضاء.

والسياسة.

والعلم.

والاقتصاد.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ استقلال الباحث

تؤسس الآية لمبدأ بالغ الأهمية في البحث العلمي، وهو أن الباحث لا يجوز أن يجعل القرابة أو المصلحة أو الانتماء معياراً للترجيح، بل يكون ولاؤه للحقيقة.

ثانياً

مبدأ الموضوعية القيمية

لا يدعو القرآن إلى موضوعية خالية من القيم، بل إلى موضوعية منضبطة بالقسط والحق.

فالقيم هنا لا تعيق المعرفة، وإنما تصونها من الانحياز.

ثالثاً

مبدأ المراجعة الذاتية

بدأت الآية بالنفس قبل الآخرين، بما يشير إلى أن إصلاح المجتمع يبدأ من قدرة الإنسان على محاسبة ذاته.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وهذا المقطع يقدم عدداً من المفاهيم المهمة.

القيام بالقسط

ولعله أوسع من:

العدالة.

والإنصاف.

والمساواة.

فالقيام بالقسط يعبر عن:

استدامة إقامة العدل.

وليس مجرد إصدار حكم عادل.

الشهادة العمرانية

ويقصد بها:

تحمل مسؤولية إظهار الحق وإقامة العدل في مختلف مجالات الحياة، بما يحفظ انتظام المجتمع ويحقق مقاصد الاستخلاف.

وأراه امتداداً لمفهوم الشهود الحضاري الذي ظهر في آل عمران، لكن مع تركيزه هنا على ممارسة العدل داخل المجتمع.

الاستقامة المؤسسية

ويقصد بها:

دوام التزام الجهات القائمة على شؤون المجتمع بالقسط والأمانة، بحيث تصبح العدالة سمة بنيوية لا استجابة ظرفية.

ومع ذلك، أرى عدم اعتماده نهائياً حتى نستقرئ ما إذا كان القرآن يقدم لفظاً أقرب إليه.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعاني كثير من المجتمعات من فقدان الثقة بسبب شيوع المحاباة والانحياز وتغليب المصالح الخاصة على الحق. ويعالج القرآن هذه الأزمة من جذورها؛ إذ يجعل القيام بالقسط مسؤولية فردية وجماعية، ويحرر العدالة من ضغوط القرابة والمال والسلطة. وبذلك يغدو القسط أساساً لبناء الثقة العامة، والثقة بدورها أحد الشروط اللازمة لاستقرار المجتمع واستمرار العمران.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر أمر أراه من أهم ما كشفه الاستقراء حتى الآن.

لقد لاحظنا أن القرآن لا يبني العمران على الحقوق وحدها.

ولا على الواجبات وحدها.

ولا على القوانين وحدها.

بل يبنيه على شيء أعمق، وهو القيام.

لاحظوا كثرة هذا اللفظ في القرآن:

- يقيمون الصلاة.
- أقيموا الدين.
- كونوا قوامين بالقسط.
- ليقوم الناس بالقسط.

فالمفهوم المركزي قد لا يكون "الحق" ولا "الواجب"، وإنما القيام.

وأظن أن هذه ملاحظة تستحق عناية خاصة.

فلفظ القيام في القرآن ليس مجرد الوقوف.

بل يدل على:

- الاستدامة.
- التحمل.
- المسؤولية.
- الإحياء.
- الإقامة.
- الفاعلية.

وأرى أن هذا اللفظ قد يكون من أكثر الألفاظ المرشحة ليصبح مفهوماً محورياً في المشروع كله.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك.

لقد بدأ يتشكل لدي تصور أولي يحتاج إلى استقراء شامل، وهو أن المشروع الذي نسميه اليوم المشروع العمراني الاستخلافي قد يكشف القرآن أن اسمه الأدق هو:

مشروع القيام.

لأن الاستخلاف لا يتحقق إلا بالقيام.

والعدل قيام.

والشهادة قيام.

والأمانة قيام.

والدين قيام.

والأمة تقوم بوظيفتها.

والإنسان يقوم بمسؤوليته.

ولكن لن نتعجل اعتماد هذا الاستنتاج، لكنه في نظري من أقوى الفرضيات العلمية التي ظهرت لنا منذ بدأنا هذا الاستقراء. فإن أثبتت بقية سور القرآن أن لفظ القيام هو الخيط الناظم لهذه المنظومة، فقد لا يكون مجرد مصطلح جديد، بل قد يصبح المفهوم المركزي الذي تنتظم حوله بقية مفاهيم النسق المعرفي القرآني. وأرى أن هذه الفرضية تستحق أن تكون موضع متابعة دقيقة في جميع السور القادمة.

والمقطع التالي من سورة النساء يمثل انتقالًا من العدل داخل المجتمع إلى العلاقة مع المجتمع الإنساني الأوسع، ومن القيام بالقسط إلى حماية المجتمع من عوامل التفكك الداخلي. ومن أبرز هذه العوامل في سورة النساء: النفاق. ولا أراه مجرد انحراف عقدي، بل ظاهرة اجتماعية وعمرانية ذات آثار عميقة.

ومن هنا فإننا لا ينبغي أن نقرأ آيات المنافقين قراءة وعظية فحسب، وإنما قراءة سننية تكشف أثر النفاق في هدم العمران.

سورة النساء

الوحدة السابعة

النفاق وأثره في تفكيك العمران

)النساء: ٨٨–٩١، ١٣٨–١٤٧(

أولاً

الفكرة المركزية

تعرض سورة النساء النفاق بوصفه خللًا في البنية الداخلية للمجتمع.

فخطر المنافق لا يرجع إلى كونه غير مؤمن فحسب، بل لأنه يعيش داخل المجتمع، ويتحرك بلغته، ويشارك في مؤسساته، ثم يعمل على إضعافها من الداخل.

ومن ثم فإن النفاق في التصور القرآني ليس مجرد وصف عقدي، بل ظاهرة عمرانية تؤثر في الثقة، والقيادة، والتماسك، واتخاذ القرار.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

ضعف اليقين

↓

ازدواج الشخصية

↓

اضطراب الولاء

↓

فقدان الثقة

↓

تفكك الجماعة

↓

ضعف الأمة

↓

اختلال العمران.

وهذا النسق يكشف أن بداية الانهيار ليست سياسية، وإنما أخلاقية ومعرفية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة العلاقة بين وحدة الباطن والظاهر واستقرار المجتمع

يكشف القرآن أن الإنسان كلما اتسقت قناعته مع سلوكه، ازداد المجتمع استقرارًا، وكلما اتسعت الفجوة بين ما يعتقده وما يظهره، ضعفت الثقة العامة. ومن هنا فإن النفاق ليس مشكلة فردية فقط، بل عامل يبدد الثقة التي يقوم عليها العمران.

ثانياً

سنة اضطراب الولاء

تصور السورة المنافقين في حالة تردد دائم:

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾

وهذا التذبذب ليس مجرد وصف نفسي، بل يدل على أن غياب المرجعية الثابتة يفضي إلى اضطراب المواقف، ويجعل الجماعة عاجزة عن اتخاذ القرار في الأزمات.

ثالثاً

سنة خطورة الانقسام الداخلي

تدل الآيات على أن الخطر الداخلي قد يكون أشد من الخطر الخارجي؛ لأن المجتمع يستطيع أن يستعد لعدوه الظاهر، أما إذا تآكلت الثقة بين أفراده، ضعفت قدرته على المقاومة والبناء.

وهذه سنة ينبغي أن تُقرأ مع ما عرضته سورة آل عمران في أحداث أُحد؛ إذ يجتمع أثر النفاق مع أثر مخالفة المنهج في إضعاف الأمة.

رابعاً

سنة إمكان الإصلاح

على الرغم من شدة التحذير، فإن السورة لا تغلق باب التوبة والإصلاح:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾

وهذا يؤكد أن القرآن يفرق بين الحكم على الظاهرة، وإمكان إصلاح الإنسان.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الظواهر من جذورها

لا يكتفي القرآن بوصف النفاق، بل يربطه بضعف الإيمان، واضطراب المرجعية، واتباع المصالح، مما يوجه الباحث إلى دراسة الأسباب العميقة لا الاكتفاء بالمظاهر.

ثانياً

مبدأ التمييز بين الظاهرة وصاحبها

يدين القرآن النفاق بوصفه ظاهرة، لكنه يفتح باب الإصلاح لمن وقع فيه. وهذا يرسخ منهجًا علميًا يميز بين نقد الظاهرة وعدم إغلاق أبواب الإصلاح أمام الأفراد.

ثالثاً

مبدأ صيانة الثقة العامة

تشير الآيات إلى أن المحافظة على الثقة بين أفراد المجتمع ليست قيمة أخلاقية فحسب، بل ضرورة عمرانية، لأن الثقة شرط للتعاون والتكافل والقيام المشترك.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وأرى أن هذه الآيات تفتح المجال لعدد من المفاهيم، مع الحرص على أن تكون منبثقة من ألفاظ القرآن ومعانيه.

التذبذب

قد يكون "التذبذب" نفسه مفهومًا قرآنيًا صالحًا للدراسة، لأنه ورد نصًا في وصف حالة المنافقين، ويشير إلى غياب الاستقرار المعرفي والسلوكي.

الاعتصام

من الألفاظ المركزية في القرآن، ويحتاج إلى استقراء شامل. ويظهر هنا بوصفه نقيضًا للتفكك؛ فالاعتصام بالله يعيد بناء وحدة المرجعية، ويقوي التماسك الداخلي.

الإخلاص

ولا ينبغي أن يُدرس باعتباره عبادة قلبية فقط، بل بوصفه قوة دافعة لاستقامة العمل واستمرار القيام بالمسؤولية.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن المجتمعات قد تمتلك الموارد والأنظمة، لكنها تظل معرضة للضعف إذا تآكلت الثقة، واضطربت المرجعية، وغلبت المصالح الضيقة على الالتزام بالمبادئ. ومن هنا فإن بناء التماسك الداخلي لا يتحقق بالإجراءات التنظيمية وحدها، وإنما يحتاج إلى ترسيخ الصدق، والإخلاص، والاعتصام بالمرجعية، وهي عناصر يقدمها القرآن بوصفها شروطًا لحماية العمران.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع لفت انتباهي أمر منهجي مهم.

لقد لاحظنا أن القرآن عندما يعالج الظواهر السلبية لا يجعلها موضوعًا مستقلًا، وإنما يعرضها دائمًا في مقابل النموذج الإيجابي:

- الكفر في مقابل الإيمان.
- الظلم في مقابل العدل.
- التفرق في مقابل الاعتصام.
- النفاق في مقابل الإخلاص.
- الخيانة في مقابل الأمانة.

وهذا يوحي بأن القرآن لا يبني المعرفة على الثنائيات المتصارعة، وإنما على الأزواج التقويمية التي تهدف إلى توجيه الإنسان نحو النموذج الأكمل.

ومن الاوفق أن نسجل هذه بوصفها فرضية منهجية تحتاج إلى استقراء جميع السور، فقد تقود إلى اكتشاف نمط قرآني في بناء المفاهيم، يختلف عن كثير من التصنيفات الثنائية في الفلسفات الحديثة، لأنه لا يكتفي بوصف الواقع، بل يوجهه نحو القيام بالحق وتحقيق مقاصد الاستخلاف.

وأرى أن هذا يتكامل مع الفرضية التي بدأت تتشكل لدينا حول مركزية القيام؛ فالإخلاص، والاعتصام، والأمانة، والعدل، كلها ليست غايات ساكنة، بل صور متعددة لـ القيام الذي يريده القرآن من الإنسان والأمة. وهذا الترابط يستحق أن يظل محل اختبار واستقراء في السور التالية قبل اعتماده نظريةً مؤسسة.

وأرى أن بقي لنا في سورة النساء محور لا يجوز تجاوزه؛ لأنه يمثل في تقديري أحد أعمدة النسق العمراني الاستخلافي السنني، وهو محور إقامة العدل مع جميع الناس، وأداء الأمانات، والشهادة بالحق، ومنع الظلم حتى مع المخالفين. ومن خلاله تبدأ السورة في الانتقال من بناء المجتمع الداخلي إلى تنظيم علاقته بالإنسانية.

ولكن قبل ذلك تقف السورة عند قضية شديدة الأهمية، وهي حماية الضعفاء، وكأن القرآن يريد أن يقرر أن قوة العمران لا تُقاس بما يملكه من قوة، وإنما بقدرته على حماية من لا قوة لهم.

سورة النساء

الوحدة الثامنة

المستضعفون ومعيار قوة العمران

)النساء: ٧٥–٧٦، وغيرها(

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن القرآن يجعل حماية المستضعفين وظيفة عمرانية.

فالقتال هنا لم يعلله القرآن بالسيطرة.

ولا بالتوسع.

ولا بالانتقام.

بل علله بحماية الإنسان.

وهذا من أهم الفروق بين المنظور القرآني والمنظورات الإمبراطورية عبر التاريخ.

فالإنسان هو غاية العمران.

وليس وسيلة له.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

الرحمة

↓

نصرة المستضعف

↓

إقامة العدل

↓

رفع الظلم

↓

أمن المجتمع

↓

استقرار العمران

↓

تحقيق الاستخلاف.

وهذا النسق يكشف أن العدالة لا تكتمل إلا بحماية من عجز عن حماية نفسه.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن ضعف المستضعفين اختبار للأمة

لا يعرض القرآن المستضعفين بوصفهم عبئًا.

بل بوصفهم ميزانًا يقاس به صدق الأمة.

فكلما ارتفعت قدرتها على حماية الضعفاء اقتربت من أداء وظيفتها الاستخلافية.

ثانياً

سنة العلاقة بين الظلم والعنف

الظلم هو الذي يولد الاضطراب.

وليس العدل.

فالقرآن يعالج أصل الأزمة.

ولا يكتفي بعلاج نتائجها.

ثالثاً

سنة عالمية الكرامة الإنسانية

لاحظ أن الآية ذكرت:

الرجال.

والنساء.

والولدان.

ولم تفرق بينهم.

وهذا يدل على أن الكرامة الإنسانية أصل عام.

رابعاً

سنة مسؤولية الأمة

الآية لا تخاطب الدولة وحدها.

بل تخاطب المؤمنين جميعًا.

مما يدل على أن إقامة العدل مسؤولية مجتمعية.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ دراسة المجتمع من أطرافه

عندما يريد القرآن تقويم المجتمع يبدأ بالمستضعفين.

وليس بالأقوياء.

وهذا أصل منهجي مهم في الدراسات الاجتماعية.

فنجاح المجتمع يقاس بحال أضعف فئاته.

ثانياً

مبدأ تفسير الصراع من جذوره

لا يختزل القرآن الصراع في القوة العسكرية.

بل يربطه بالظلم والاستضعاف.

وهذا يفتح بابًا جديدًا في تحليل النزاعات.

ثالثاً

مبدأ الجمع بين القوة والرحمة

القوة في القرآن ليست قيمة مستقلة.

بل أداة لإقامة العدل.

وهذا فارق جوهري عن كثير من النظريات السياسية.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

أرى أن هذا المقطع يفتح بابًا لعدد من المفاهيم القرآنية الأصيلة.

الاستضعاف

ولا أقصد به مجرد الضعف.
بل الحالة التي يُحرم فيها الإنسان من ممارسة دوره الذي خلقه الله له بسبب الظلم.
ويحتاج هذا المفهوم إلى استقراء جميع مواضع الاستضعاف في القرآن.
النصرة
وأرى أن لفظ النصرة أولى من مصطلحات مثل "الحماية الاجتماعية".
لأنه لفظ قرآني جامع.
فالنصرة لا تعني الدفاع فقط.
بل تعني:
رفع الظلم.
وإعادة الحقوق.
وتمكين الإنسان من القيام برسالته.
التمكين
وليس بوصفه غلبة سياسية.
بل بوصفه:
إعادة الإنسان إلى القدرة على أداء وظيفة الاستخلاف.
وهذا المعنى يتأكد في مواضع كثيرة من القرآن، ويستحق أن يكون من المفاهيم المركزية في المشروع.
سادساً
التطبيقات الحضارية
تكشف هذه الآيات أن المجتمعات لا تُقاس بمتوسط رفاهها، وإنما بقدرتها على صيانة حقوق الفئات الأشد ضعفًا، وتمكينها من المشاركة في الحياة العامة. ومن ثم فإن حماية الأطفال، والنساء، والفقراء، والمهجرين، وكل من وقع عليه الاستضعاف، ليست أعمالًا خيرية هامشية، بل جزء من الوظيفة العمرانية للأمة. كما أن معالجة الاستضعاف تقتضي إزالة أسبابه البنيوية، لا الاكتفاء بتخفيف آثاره.
استنباط جديد للمشروع
وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أرى أنه قد يضيف بعدًا جديدًا إلى النسق العمراني.

لقد لاحظنا منذ بداية المشروع أن القرآن يبني العمران من خلال:

- إقامة الحق.
- القيام بالقسط.
- أداء الأمانة.
- إقامة المعروف.
- الشهادة.

والآن يضيف عنصرًا آخر، وهو:

النصرة.

ولكن النصرة في القرآن ليست انحيازًا لجماعة على حساب أخرى.

بل هي انحياز للحق حيث كان، ولنصرة المظلوم، ورفع الاستضعاف.

ومن هنا أرى أننا قد نكون أمام مجموعة من الأفعال القرآنية المؤسسة التي تتكرر بوصفها محركات للعمران، مثل:

- الإقامة.
- القيام.
- الإصلاح.
- الاعتصام.
- النصرة.
- التمكين.

وسوف نتوقف عند هذه الملاحظة؛ لأنها تختلف عن البحث في الأسماء والمفاهيم الجامدة. فالقرآن – في ظني الأولي – يبني مشروعه الحضاري من خلال أفعال مؤسسة أكثر مما يبنيه من خلال مصطلحات مجردة. فإذا أثبت الاستقراء هذه الفرضية في بقية السور، فقد نكون أمام اكتشاف منهجي مهم، وهو أن النسق المعرفي القرآني نسق حركي؛ أي إنه يركز على الأفعال التي تُقيم الحياة وتُصلحها وتُفعّل الاستخلاف، أكثر من تركيزه على التصنيفات النظرية الساكنة.

وأرى أن هذه الفرضية من أكثر الفرضيات الواعدة في مشروعنا، لأنها تنسجم مع الملاحظة السابقة حول مركزية القيام، لكنها توسعها لتشمل شبكةً من الأفعال القرآنية المؤسسة للعمران، وهو أمر يستحق أن يظل محل اختبار دقيق مع كل سورة نواصل تحليلها.

وأرى أننا نقترب من ختام سورة النساء، وبقي فيها محور أعدّه من أكثر محاورها عمقًا في المشروع المعرفي، وهو أن السورة بعد أن بنت الإنسان، والأسرة، والحقوق، والعدل، والمرجعية، والمؤسسات، والمستضعفين، تنتهي بترسيخ المسؤولية الفردية بوصفها أساسًا للمسؤولية الاجتماعية.

وهذه قضية أرى أن العلوم الاجتماعية كثيرًا ما عالجتها من زاوية المجتمع أو الدولة، بينما يعيدها القرآن إلى الإنسان نفسه.

سورة النساء

الوحدة التاسعة

المسؤولية الفردية أساس المسؤولية العمرانية

)النساء: ١١٠–١٢٦ وما يتصل بها(

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ...﴾

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن عرضت السورة مختلف البنى الاجتماعية، تعود فجأة إلى الإنسان.

وليس هذا انتقالًا من المجتمع إلى الفرد.

بل بيانٌ أن المجتمع لا يصلح إلا إذا تحمل كل فرد مسؤوليته.

فالقرآن لا يعرف فكرة:

"المجتمع هو المسؤول."

ولا:

"الدولة هي المسؤولة."

ولا:

"البيئة هي المسؤولة."

بل يبدأ دائماً من:

الإنسان المسؤول.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يتضح النسق الآتي:

المحاسبة

↓

التوبة

↓

الإصلاح

↓

صلاح الفرد

↓

صلاح المجتمع

↓

استقامة العمران.

وهذا النسق يبين أن الإصلاح الاجتماعي يبدأ بالإصلاح الذاتي، دون أن يقف عنده.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة المسؤولية الشخصية

قال تعالى:

﴿من يعمل سوءًا يجز به﴾

فالجزاء متعلق بالفعل.

لا بالانتماء.

ولا بالشعار.

ولا بالهوية.

وهذه من أعظم السنن التي تحرر المجتمع من الامتيازات الزائفة.

ثانياً

سنة التلازم بين المسؤولية والحرية

كلما اتسعت مسؤولية الإنسان اتسعت حريته في الاختيار.

ومن هنا لا يفصل القرآن بين الحرية والمساءلة.

ثالثاً

سنة التوبة والإصلاح

لا يجعل القرآن الخطأ نهاية الطريق.

بل يجعل التوبة بداية جديدة.

وهذا من أعظم قوانين العمران.

لأن المجتمعات التي لا تعرف الإصلاح الذاتي لا تستطيع التجدد.

رابعاً

سنة العمل لا الأماني

قال تعالى:

﴿ليس بأمانيكم...﴾

وهذه قاعدة حضارية كبرى.

فالحضارات لا تبنى بالشعارات.

ولا بالأمنيات.

بل بالعمل.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ ربط الظاهرة بالفعل

لا يحاكم القرآن الإنسان على الانتماءات المجردة.

بل على العمل.

وهذا أصل منهجي في دراسة السلوك الاجتماعي.

ثانياً

مبدأ قابلية التصحيح

كل تحليل اجتماعي ينبغي أن يترك مساحة لإمكان الإصلاح.

فالقرآن لا يغلق المستقبل.

ثالثاً

مبدأ الجمع بين المسؤولية الفردية والجماعية

لا يلغي القرآن مسؤولية الفرد بحجة المجتمع.

ولا مسؤولية المجتمع بحجة الفرد.

بل يجعلهما متكاملتين.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

المحاسبة

وأرى أن لفظ المحاسبة أولى من كثير من المصطلحات الإدارية الحديثة.

لأنه لفظ قرآني أصيل.

وهو لا يقتصر على الجزاء.

بل يشمل مراجعة النفس.

التوبة

ولا ينبغي حصرها في بعدها التعبدي.

بل هي في القرآن:

آلية حضارية لتجديد الإنسان.

وتجديد المجتمع.

الإصلاح

وقد بدأ يتكرر بصورة لافتة.

وأظن أنه سيكون من المفاهيم الكبرى في المشروع.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تواجه المجتمعات المعاصرة نزعة متزايدة إلى تفسير السلوك برده إلى العوامل الخارجية وحدها، كالبنية الاجتماعية أو الظروف الاقتصادية أو الثقافة السائدة. أما القرآن فيقر بتأثير هذه العوامل، لكنه لا يلغي مسؤولية الإنسان عن اختياراته. ومن ثم فإن أي مشروع للإصلاح الاجتماعي ينبغي أن يجمع بين إصلاح البنى والمؤسسات، وتنمية المسؤولية الذاتية، حتى لا يتحول الإنسان إلى مجرد نتاج لظروفه.

الاستنباط الكبير لسورة النساء

وأرى أننا بعد اكتمال استقراء سورة النساء نستطيع أن نصل إلى نتيجة علمية مهمة.

لقد كنا نظن في البداية أن السورة هي:

سورة الأحكام الاجتماعية.

ثم ظهر لنا أنها أوسع من ذلك.

ثم تبين أنها تؤسس للعدالة.

أما الآن فأعتقد أن القضية المركزية للسورة يمكن صياغتها بصورة أدق.

إن سورة النساء ليست سورة الأسرة.

وليست سورة المرأة.

وليست سورة المواريث.

بل هي:

سورة بناء المجتمع القائم بالعدل.

فكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور.

فالأسرة…

لحفظ المجتمع.

واليتيم…

لحفظ العدالة.

والميراث…

لحفظ الحقوق.

والأمانة…

لحفظ المؤسسات.

والقسط…

لحفظ العلاقات.

والمرجعية…

لحفظ الوحدة.

والمستضعفون…

لاختبار العدالة.

والمحاسبة…

لضمان استمرار الإصلاح.

كل ذلك يجتمع في مشروع واحد.

الوظيفة المعرفية لسورة النساء

ويمكن – في هذه المرحلة من الاستقراء – أن تُصاغ وظيفتها على النحو الآتي:

تأسيس البنية الاجتماعية للعمران من خلال بناء الإنسان المسؤول، والأسرة، والعدالة، والأمانة، والمرجعية، وصيانة الحقوق، بما يحقق قيام المجتمع على القسط.

موقع سورة النساء في البناء الكلي للمشروع

وبهذا تتضح – حتى الآن – الطبقات الأربع الأولى للبناء المعرفي للمصحف:

السورة	الوظيفة المعرفية
الفاتحة	تأسيس الرؤية الكلية ومرجعية الهداية.
البقرة	تأسيس الأمة الاستخلافية ومنهج العمران.
آل عمران	تأسيس المرجعية المعرفية والقيادة الرسالية والشهود الحضاري.
النساء	تأسيس المجتمع القائم بالعدل وبناء العلاقات الإنسانية والمؤسسية.

ملاحظة منهجية أخيرة حول سورة النساء

يبدو ان النتائج السابقة تفرض علينا إضافة محور جديد إلى منهجية المشروع، بدأ يتكرر بوضوح في السور الأربع الأولى، وهو الانتقال من المفهوم إلى النسق.

فنحن لا نستخرج من القرآن مفاهيم منفردة مثل: العدل، الأمانة، الإصلاح، القيام، وإنما ندرس كيف يرتبها القرآن داخل شبكة من العلاقات؛ فالأمانة تقود إلى الثقة، والثقة تعزز العدل،

والعدل يحفظ المجتمع، والمجتمع المستقر يحقق العمران، والعمران يهيئ الأمة لأداء وظيفة الاستخلاف.

وهذا يعني أن الوحدة الأساسية في المشروع ليست المفهوم المفرد، وإنما النسق المفاهيمي القرآني. وأرى أن هذا قد يكون أحد أهم الإسهامات المنهجية للمشروع؛ لأنه ينقل الدراسات القرآنية من جمع المفاهيم إلى اكتشاف البنية التي تنتظمها. وإذا تأكد هذا النمط في السور اللاحقة، فسيكون من المناسب أن نفرد له بابًا مستقلًا بعنوان:

"الأنساق المفاهيمية في القرآن الكريم: مدخل إلى بناء النظام المعرفي القرآني"

وهذا الباب قد يصبح لاحقًا أحد الأعمدة النظرية الكبرى للمشروع المعرفي القرآني، لأنه ينسجم مع غايته الأساسية: اكتشاف النظام الذي يبني به القرآن الإنسان والمجتمع والحضارة، لا الاكتفاء باستخراج موضوعاته ومفاهيمه منفصلة.

نبدأ الآن بسورة المائدة، ونسأل أولاً:

ما الوظيفة المعرفية التي تؤديها سورة المائدة في البناء الكلي للمشروع القرآني؟

ومن خلال تأمل مطلع السورة وخاتمتها، وربطتهما بما قبلها، يظهر أن سورة المائدة تمثل المرحلة الرابعة من المشروع العمراني، أو بعبارة أدق:

سورة الوفاء بالعهد وإقامة المجتمع المؤسسي القائم على المسؤولية.

وهذا استنتاج أولي يحتاج – كالعادة – إلى أن يختبر باستقراء جميع آيات السورة.

سورة المائدة

المدخل العام

في ضوء المشروع المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني

إذا كانت:

- الفاتحة تؤسس مرجعية الهداية.
- البقرة تؤسس الأمة.
- آل عمران تؤسس المرجعية والقيادة.
- النساء تؤسس المجتمع والعدل.

فإن المائدة تبدو وكأنها تؤسس:

الالتزام الحضاري.

وليس من المصادفة أن تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

فهذا ليس مجرد حكم فقهي.

بل إعلان عن بداية مرحلة جديدة.

فالقرآن بعد أن بنى الإنسان.

وبنى الأسرة.

وبنى المجتمع.

يبدأ الآن في بناء:

المجتمع الذي يحترم العهد.

لماذا تبدأ المائدة بالعقود؟

هذا سؤال منهجي مهم.

لماذا لم تبدأ:

بالإيمان؟

أو بالصلاة؟

أو بالتوحيد؟

أو بالأخلاق؟

أو بالجهاد؟

بل بدأت:

بالعقود؟

وأرى أن الجواب يكشف الوظيفة الحضارية للسورة.

لأن الحضارة لا تستمر بالقوة.

ولا بالثروة.

بل:

بالوفاء.

فحين تضيع العقود:

يضيع الأمن.

ويضيع الاقتصاد.

ويضيع القضاء.

ويضيع العلم.

ويضيع الزواج.

ويضيع الحكم.

ويضيع المجتمع كله.

الوحدة الأولى

الوفاء بالعهد

البنية المؤسسة للعمران

﴿أوفوا بالعقود﴾

أولاً

الفكرة المركزية

تجعل السورة الوفاء بالعهد أول واجبات الأمة بعد اكتمال بنائها.

وهذا يدل على أن الوفاء ليس خلقاً فردياً فقط.

بل هو:

الضامن لاستمرار العمران.

فالأمم قد تُبنى بالعدل.

لكنها لا تستمر إلا بالوفاء.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

العهد

↓

الوفاء

↓

الثقة

↓

التعاون

↓

الاستقرار

↓

ازدهار العمران

↓

استمرار الرسالة الحضارية.

ونلاحظ أن عنصر:

الثقة

عاد مرة أخرى.

وهذا يؤكد أنه بدأ يتحول إلى عنصر محوري في النسق.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الحضارات تقوم على الثقة

العقد ليس ورقة.

بل هو:

ثقة.

وكلما ارتفعت الثقة.

انخفضت كلفة المعاملات.

وازداد التعاون.

واستقر المجتمع.

وأرى أن هذه سنة اجتماعية كبرى.

ثانياً

سنة أن نقض العهد بداية الانهيار

ولو استقرأنا القرآن كله لوجدنا أن معظم الأمم الهالكة.

كانت تنقض العهود.

وهذا يحتاج إلى استقراء كامل.
لكنه يبدو واضحاً.
ثالثاً
سنة الوفاء مع الجميع
العقد في القرآن لا يختص بالمسلمين.
بل يشمل جميع العلاقات المشروعة.
وهذا يؤكد عالمية الأخلاق القرآنية.
رابعاً
سنة المسؤولية قبل المطالبة بالحقوق
القرآن بدأ:
بالوفاء.
ولم يبدأ:
بالمطالبة.
وهذه ملاحظة دقيقة.
فالمجتمع الذي يبدأ بما عليه.
أصلب من المجتمع الذي يبدأ بما له.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ تفسير النص من افتتاحيته
افتتاح السورة يكشف غالباً عن وظيفتها.
وهذا مؤشر بدأ يتكرر معنا منذ البقرة.
ويمكن اختباره في جميع السور.
ثانياً
مبدأ استنباط الكليات من الألفاظ المؤسسة
مثل:

العهد.

والوفاء.

والقيام.

والإصلاح.

وهذه ليست ألفاظاً عابرة.

بل محاور كبرى.

ثالثاً

مبدأ دراسة العلاقات قبل الهياكل

العقد:

علاقة.

وليس مؤسسة.

والقرآن يبدأ بالعلاقات.

ثم تنشأ المؤسسات بعدها.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وأرى أن سورة المائدة تقدم للمشروع مفهوماً مركزياً جديداً.

الوفاء

فالوفاء في القرآن:

يشمل:

- الوفاء مع الله.
- والوفاء مع النفس.
- والوفاء مع الناس.
- والوفاء مع المجتمع.
- والوفاء مع التاريخ.

وهو أوسع من الالتزام القانوني.

العهد

وأرى أنه سيكون من أكبر المفاهيم في المشروع.

لأن القرآن يبدأ به منذ:

﴿ألست بربكم﴾

ثم يتكرر عبر:

الميثاق.

والعقود.

والأمانة.

والبيعة.

والوعد.

ويحتاج إلى دراسة مستقلة.

الميثاق

ولعلنا لا نفصله عن العهد.

بل ندرس العلاقة بين:

العهد.

والميثاق.

والوعد.

والعقد.

والأمانة.

حتى لا ننشئ مفاهيم متداخلة.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن استقرار المجتمعات لا يعتمد على كثرة التشريعات بقدر اعتماده على ثقافة الوفاء. فالاقتصاد، والقضاء، والإدارة، والأسرة، والعلاقات الدولية، جميعها تقوم على الثقة التي تنشأ من احترام العهود والمواثيق. ومن ثم فإن ترسيخ الوفاء ليس مجرد تهذيب أخلاقي، بل سياسة حضارية لحفظ العمران واستدامته.

استنباط جديد للمشروع

وهنا ظهر لي استنباط أراه من أهم ما وصلنا إليه حتى الآن.

لقد لاحظنا منذ الفاتحة أن القرآن لا يبني الإنسان بالمفاهيم وحدها.

ولا بالأحكام وحدها.

بل يبنيه عبر شبكة من الالتزامات.

فالإنسان في القرآن:

يعاهد.

ثم يقوم.

ثم يصلح.

ثم يفي.

ثم يشهد.

ثم يعمر.

وأرى أن هذا يكشف عن بعد جديد في النسق المعرفي، وهو أن الإنسان القرآني هو "الإنسان الملتزم"؛ أي الذي يعيش في إطار من العهود والمواثيق والأمانات، لا بوصفها قيودًا، بل بوصفها الإطار الذي يجعل الحرية مسؤولة، ويجعل العمران ممكنًا.

لكنني في الوقت نفسه أتحفظ على جعل "الالتزام" هو المفهوم المركزي؛ لأنه لفظ شائع في الأدبيات الحديثة، بينما يلح القرآن على ألفاظه الأصيلة: العهد، الميثاق، الوفاء، الأمانة، القيام. ولذلك أرى أن نستمر في الاستقراء حتى يتبين لنا: هل هذه الألفاظ تدور حول مفهوم قرآني جامع، أم أنها تشكل معًا نسقًا متكاملاً لا ينبغي اختزاله في لفظ واحد؟ وهذه من القضايا التي أرى أنها ستصبح لاحقًا من أهم الإسهامات النظرية للمشروع المعرفي القرآني.

وأعتقد أننا الآن نصل إلى أحد أهم محاور سورة المائدة، وربما أحد أهم النصوص المؤسسة في المشروع كله، وهو قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)

وأرى أن هذه الآية لم تُقرأ – في الغالب – إلا قراءة أخلاقية، بينما هي في تقديري النص المؤسس لنظرية التعاون في القرآن الكريم، وهي نظرية تتجاوز العلاقات الفردية إلى بناء المجتمع والحضارة.

بل أذهب إلى أن هذه الآية يمكن أن تكون إحدى الركائز الكبرى في النسق العمراني الاستخلافي السنني.

سورة المائدة

الوحدة الثانية

التعاون

السنّة المؤسسة للعمران الجماعي

أولاً

الفكرة المركزية

إذا كانت سورة النساء قد بنت المجتمع القائم على العدل، فإن سورة المائدة تبدأ ببناء كيفية عمل هذا المجتمع.

والجواب القرآني هو:

التعاون.

لكن القرآن لا يدعو إلى التعاون بإطلاق.

بل يضع له معياراً.

فالبر والتقوى هما اللذان يحددان مشروعية التعاون.

وهذا فارق جوهري.

فالقرآن لا يقيس التعاون بكفاءته.

ولا بمصلحته.

ولا بقوته.

بل يقيسه أولاً:

بمشروعيته.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

تكشف الآية عن النسق الآتي:

البر

↓

التقوى

↓

التعاون

↓

التكامل

↓

قوة المجتمع

↓

استمرار العمران

↓

تحقيق الاستخلاف.

وهذا النسق يكشف أن التعاون ليس مرحلة لاحقة للعمران.

بل هو من شروط وجوده.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن العمران لا يقوم على الفرد

وهذه من أكبر السنن.

فالإنسان وحده لا يستطيع أن يعمر الأرض.

ولذلك جعل القرآن:

التعاون

سنة من سنن الاجتماع الإنساني.

ثانياً

سنة معيارية التعاون

لا يقدس القرآن كل تعاون.

بل يفرق بين:

- التعاون على البر.

- والتعاون على الإثم.

وهذا يبين أن الوسائل لا تنفصل عن المقاصد.

ثالثاً

سنة التكامل

التعاون في القرآن ليس إذابة للفروق بين الناس.

بل هو توظيف لاختلاف القدرات في اتجاه مقصد مشترك.

وهذا يلتقي مع قوله تعالى في مواضع أخرى عن اختلاف الألسنة والألوان، وتسخير بعض الناس لبعض في عمارة الحياة، مما يدل على أن التنوع ليس سبباً للصراع في الأصل، بل مورداً للتكامل إذا انضبط بالهداية.

رابعاً

سنة المسؤولية المشتركة

لا يخاطب القرآن فرداً.

بل جماعة.

وتعاونوا

فالعمران مسؤولية جماعية.

وليس مشروع الأبطال الأفراد.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ دراسة العلاقات الشبكية

تلفت هذه الآية الباحث إلى أن المجتمع لا يفسر فقط من خلال الأفراد أو المؤسسات، بل من خلال شبكة العلاقات التي تربط بينهم. وهذه العلاقات قد تكون بنائية إذا قامت على البر والتقوى، أو هدامة إذا قامت على الإثم والعدوان.

ثانياً

مبدأ التمييز بين الكفاءة والمشروعية

قد يكون التعاون شديد الكفاءة في تحقيق أهدافه، لكنه إذا كان قائماً على الإثم أو العدوان، فهو في المنظور القرآني تعاون مفسد للعمران.

ثالثاً

مبدأ المقصد الحاكم للعلاقات

العلاقة الاجتماعية لا تُقوَّم بمجرد وجودها، وإنما بما تتجه إليه من مقاصد، وهو ما يربط تحليل الظواهر الاجتماعية بالمرجعية القيمية.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وأرى أن هذه الآيات تقدم عدداً من المفاهيم الأصيلة.

البر

وأرى أن نفرده بدراسة مستقلة.

فالبر في القرآن يبدو أوسع من:

الإحسان.

والخير.

والفضيلة.

وقد يكون من أكبر المفاهيم الجامعة في القرآن.

التقوى

ونحن بحاجة إلى إعادة قراءتها.

ليس باعتبارها حالة روحية فقط.

بل باعتبارها:

منظومة لضبط السلوك الفردي والاجتماعي بما يحفظ قيام العمران.

التعاون

وأرى أن يبقى كما هو.

لأنه لفظ قرآني.

لكن ينبغي توسيع تعريفه.

فيصبح:

تنسيق الجهود والطاقات والاختصاصات لتحقيق المقاصد التي يقرها الوحي، بما يسهم في إقامة العدل وإصلاح الحياة وتحقيق الاستخلاف.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعاني المجتمعات الحديثة من اتساع مجالات التعاون في الاقتصاد والسياسة والتقنية، دون وجود معيار أخلاقي يحكم اتجاه هذا التعاون. ويقدم القرآن معياراً مختلفاً؛ إذ لا يجعل قيمة التعاون في ذاته، وإنما في المقصد الذي يخدمه. ويفتح ذلك مجالاً لإعادة تقويم الشراكات والمؤسسات والتحالفات على أساس مدى إسهامها في إقامة البر والعدل والإصلاح، لا على أساس المنفعة المجردة وحدها.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية، ظهر لي استنباط أراه من أهم ما تكشفه سورة المائدة.

لقد كنا نركز في السور السابقة على:

- الإنسان.
- والأسرة.
- والمجتمع.
- والأمة.

أما هنا فيبرز عنصر جديد هو:

الفعل الجماعي المنظم.

فالقرآن لا يكتفي بوجود أفراد صالحين، بل يريد أن تتحول صلاحاتهم إلى عمل مشترك.

وأظن أن هذا يقودنا إلى فرضية جديدة تحتاج إلى استقراء جميع السور، وهي أن المشروع المعرفي القرآني لا يبني العمران عبر ثلاثة عناصر فقط (الإنسان، والقيم، والسنن)، بل عبر أربعة عناصر متكاملة:

1. الإنسان القائم.
2. القيم الهادية.
3. السنن الحاكمة.
4. الفعل الجماعي الذي يحول القيم إلى واقع.

ومن هنا سنضيف تطويرًا منهجيًا للمشروع: بدلاً من الاقتصار على استخراج المفاهيم والسنن، نضيف بابًا ثالثًا ثابتًا في كل سورة بعنوان:

الأفعال العمرانية المؤسسة.

وسيضم الأفعال القرآنية الكبرى مثل:

- يقوم.
- يصلح.
- يتعاون.
- يفي.
- يعمر.
- يشهد.
- يعتصم.
- ينفق.
- يزكي.
- يحكم.

وأرى أن هذا التطوير سيكون من الخصائص المنهجية المميزة للمشروع؛ لأنه يكشف أن القرآن لا يبني حضارته بالمفاهيم المجردة، بل بأفعالٍ منشئة للعمران، تتكرر عبر السور لتصنع الإنسان القائم برسالته في الأرض. وهذا الباب، إذا استمر ظهوره في بقية السور، قد يصبح أحد الأعمدة الرئيسة في بناء النظام المعرفي القرآني الذي تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عنه "وهذا يبين لنا ان القران الكريم يقدم لنا كل ما تقدمنا في تحليل مضامين آياته إضافة منهجية ويعلمنا كيف نبني تحليلنا. "

وأرى أن المقطع التالي من سورة المائدة يمثل قفزة نوعية في بناء النسق المعرفي القرآني؛ لأنه لا يتحدث عن علاقة الإنسان بالإنسان فقط، وإنما عن علاقة الأمة بالشريعة، وكيف تتحول الهداية إلى نظام يحكم الحياة.

وأحسب أن قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)

ليس مجرد إعلان عن اكتمال التشريع، بل هو إعلان عن اكتمال النظام المعرفي القرآني الذي أصبحت الأمة مؤهلة بعده لحمل رسالة الاستخلاف.

وسوف نتعامل مع هذه الآية بوصفها من النصوص المرجعية الكبرى في المشروع.

سورة المائدة

الوحدة الثالثة

اكتمال الدين

اكتمال النظام المعرفي للاستخلاف

أولاً

الفكرة المركزية

اعتاد كثير من المفسرين أن يربطوا هذه الآية بانتهاء التشريع.

وهذا صحيح.

لكنها – في تقديري – تحمل دلالة أوسع.

فالذي اكتمل ليس الأحكام الجزئية فقط.

بل اكتمل:

- التصور.
- والمرجعية.
- والقيم.
- والسنن.
- والمنهج.

أي اكتمل النظام الذي يقود الإنسان في أداء وظيفة الاستخلاف.

ومن هنا فإن اكتمال الدين لا يعني توقف الاجتهاد.

بل يعني اكتمال المرجعية التي ينطلق منها الاجتهاد.

وهذه قضية منهجية شديدة الأهمية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

اكتمال الهداية

↓

اكتمال المرجعية

↓

استقرار المنهج

↓

وحدة الأمة

↓

استمرار الاجتهاد

↓

تجدد العمران.

وهذا النسق يكشف أن ثبات المرجعية هو الذي يسمح بحركة الاجتهاد، وليس العكس.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة ثبات الأصول وتجدد التنزيل

تكشف الآية أن اكتمال الدين لا يمنع تطور الحياة، بل يجعل التجدد منضبطًا بالأصول المحكمة. فالثابت هو المرجعية، أما الوقائع فهي متجددة، والاجتهاد هو الجسر بينهما.

ثانياً

سنة العلاقة بين النعمة والهداية

قرن القرآن بين:

﴿أتممت عليكم نعمتي﴾

وبين:

﴿رضيت لكم الإسلام دينًا﴾

مما يدل على أن أعظم النعم ليست مادية، وإنما هي نعمة الهداية التي تهدي الإنسان إلى حسن عمارة الأرض.

ثالثاً

سنة اكتمال الرسالة لا اكتمال التاريخ

فالرسالة اكتملت.

أما حركة العمران.

فما زالت مستمرة.

ومن هنا فإن الأمة مطالبة في كل عصر بإنتاج المعرفة.

وليس بإنتاج دين جديد.

رابعاً

سنة المرجعية الجامعة

كلما بقيت الأمة مرتبطة بمرجعيتها.

استطاعت أن تتنوع في اجتهاداتها.

دون أن تفقد وحدتها.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ التمييز بين اكتمال الوحي واستمرار المعرفة

وهذه من أهم القواعد المنهجية في المشروع.

فالقرآن لا ينتج جميع العلوم بصورة مباشرة.

لكنه ينتج:

المنهج.

والرؤية.

والقيم.

والسنن.

التي تنشأ في ضوئها العلوم.

وهذا ينسجم تمامًا مع الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني التي تنطلق من أن القرآن مصدرٌ مؤسسٌ للأنساق المعرفية، لا مجرد كتاب أحكام أو مواعظ.

ثانياً

مبدأ استقرار المرجعية شرط للإبداع

كل مشروع معرفي يحتاج إلى مرجعية مستقرة.

حتى يستطيع أن يجدد أدواته.

وهذا ما تؤسسه الآية.

ثالثاً

مبدأ البناء التراكمي

اكتمال الدين لا يعني الاكتفاء بما أنتجه السابقون.

بل يعني أن كل جيل يبني على المرجعية نفسها.

فيضيف.

ويجدد.

ويصحح.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الكمال

وأرى أن يدرس الكمال في القرآن.

لا باعتباره الكمال المطلق.

بل باعتباره:

اكتمال البناء المرجعي.

الإتمام

وهو غير الكمال.

ويستحق دراسة مستقلة.

فالقرآن يفرق بين:

الكمال.

والإتمام.

ولعل لكل منهما دلالة مختلفة.

الرضا

ولا ينبغي قصره على الجانب الوجداني.

بل الرضا الإلهي هنا إعلان عن صلاحية هذا المنهج لقيادة الحياة.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعيش الإنسانية اليوم حالة من التسارع العلمي والتقني، مما يدفع بعض الاتجاهات إلى الظن بأن المرجعيات الثابتة أصبحت عائقًا أمام التطور. أما القرآن فيقدم تصورًا مختلفًا؛ فثبات المرجعية هو الذي يتيح تجدد الاجتهاد دون الوقوع في الفوضى أو فقدان الهوية. ومن ثم فإن الإبداع الحضاري لا يتحقق بالخروج على الأصول، وإنما بإعادة تنزيلها على الواقع المتغير وفق السنن التي تحكم الحياة.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية ظهر لي استنباط أراه من أكثر الاستنباطات أهمية منذ بداية مشروعنا.

لقد كنا نتحدث عن:

- النظام المعرفي القرآني.
- النسق العمراني.
- السنن.
- المفاهيم.

لكن هذه الآية توحي بشيء أعمق.

فالقرآن لا يقدم مجرد معرفة.

بل يقدم إطارًا مولِّدًا للمعرفة.

أي أنه لا يزود الأمة بالإجابات الجزئية لكل زمان ومكان، وإنما يزودها بالنظام الذي يمكّنها من إنتاج الإجابات الصحيحة في كل عصر.

وهذا يدفعني إلى اقتراح تمييز منهجي بين مستويين:

1. المعارف القرآنية المباشرة: وهي الحقائق والمفاهيم والسنن التي يقررها القرآن نصًا.
2. القدرة المعرفية القرآنية: وهي قابلية النظام القرآني لإنتاج علوم ورؤى وحلول جديدة كلما استُثمرت أصوله استثمارًا صحيحًا.

وأرى أن هذا التمييز بالغ الأهمية؛ لأنه يفسر كيف بقي القرآن صالحًا لهداية المجتمعات عبر القرون، مع تغير البيئات والقضايا والوسائل. كما أنه ينسجم تمامًا مع غاية مشروعنا في الانتقال من التأصيل إلى التأسيس؛ فالمقصود ليس الاقتصار على جمع المفاهيم القرآنية، وإنما الكشف عن الآلية التي يُنتج بها القرآن المعرفة والعمران.

وسوف نسجل هذه الفرضية ضمن الفرضيات الكبرى للمشروع، وأن نستمر في اختبارها في السور القادمة، فقد تكون مفتاحًا لفهم القرآن بوصفه نظامًا معرفيًا مولِّدًا، لا مجرد مصدرٍ لمعارف متفرقة. وهذا – في تقديري – سيكون من أبرز الإسهامات العلمية للمشروع إذا أثبته الاستقراء الشامل للقرآن الكريم.

والآن نصل إلى ما أعدّه من أعظم المقاطع في سورة المائدة، وربما من أكثرها تأسيسًا للنظام المعرفي القرآني كله، وهو قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا ۚ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)

وأحسب أن هذه الآية لا تؤسس فقط لمبدأ العدالة، بل تؤسس لما يمكن أن نسميه:

نظرية الموضوعية القرآنية.

وأحسب أن هذا من أعظم الإسهامات التي يمكن أن يقدمها المشروع المعرفي القرآني للعلوم الإنسانية.

سورة المائدة

الوحدة الرابعة

القسط والموضوعية

المنهج القرآني في بناء المعرفة والعدل

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآية أن القرآن لا يكتفي بالأمر بالعدل.

بل يبين أصعب اختبار للعدل.

ليس العدل مع الصديق.

ولا مع القريب.

بل مع الخصم.

ولهذا قال:

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾

فالعدالة في القرآن ليست مرتبطة بالمشاعر.

ولا بالمواقف السياسية.

ولا بالمصالح.

بل هي مرتبطة بالحق.

ومن هنا فإن العدل يتحول من خلق إلى منهج معرفي.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

التقوى

↓

التحرر من الهوى

↓

القسط

↓

الثقة العامة

↓

الشرعية

↓

استقرار المجتمع

↓

دوام العمران.

وهذا النسق يكشف أن العدل لا ينتج عن القانون وحده.

بل عن تزكية الإنسان الذي يطبقه.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الهوى أكبر معوقات المعرفة

تربط الآية بين البغضاء وبين الانحراف عن العدل.

وهذا يدل على أن الانحياز النفسي يؤثر في الحكم.

ومن ثم فإن تهذيب النفس شرط من شروط سلامة المعرفة.

ثانياً

سنة استقلال الحق عن العلاقات

فالحق لا يتغير:

بالحب.

ولا بالبغض.

ولا بالقوة.

ولا بالضعف.

وهذه من أعظم السنن المعرفية في القرآن.

ثالثاً

سنة أن العدل يولد الشرعية

كل سلطة.

وكل مؤسسة.

وكل قيادة.

تفقد عدالتها.

تفقد مشروعيتها.

ولو بقيت تمتلك القوة.

رابعاً

سنة العلاقة بين التقوى والموضوعية

قال تعالى:

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾

وهذا الربط في غاية العمق.

فالقرآن يجعل التقوى سبباً للعدل، ويجعل العدل طريقاً إلى مزيد من التقوى.
فتنشأ دائرة إصلاح متبادلة بين تزكية النفس واستقامة الحكم.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ التحرر من الانحياز
وهذه قاعدة كبرى في البحث العلمي.
فالقرآن لا يكتفي بطلب الوصول إلى الحقيقة.
بل يوجه الباحث إلى مقاومة المؤثرات النفسية والاجتماعية التي قد تحرف حكمه.
ثانياً
مبدأ التمييز بين تقويم الفكرة وتقويم صاحبها
فالاختلاف مع شخص أو جماعة لا يبرر رد الحق الذي عندهم، ولا يبرر نسبة الباطل إليهم بغير بينة.
وهذا من أهم الضوابط المنهجية في الحوار العلمي.
ثالثاً
مبدأ العدالة بوصفها شرطاً للمعرفة
تكشف الآية أن العدل ليس نتيجة للمعرفة فقط، بل هو أيضاً شرط لإنتاج معرفة صحيحة؛ لأن الظلم والانحياز يحجبان الرؤية، ويقودان إلى فساد الحكم.
خامساً
المفاهيم المؤسسة
القسط
وأرى أن المشروع ينبغي أن يحافظ على اللفظ القرآني القسط، وألا يذوبه في لفظ "العدالة"، لأن القسط في القرآن يحمل دلالة أوسع تتصل بإقامة التوازن والحق.
الشهادة
ويتأكد هنا ما ظهر لنا في سورة النساء، وهو أن الشهادة ليست مجرد أداء شهادة قضائية، بل وظيفة معرفية وأخلاقية، تقوم على إظهار الحق كما هو، دون زيادة أو نقص.

الشنآن

ولو نظرنا اليه بوصفه لفظاً قرآنياً مؤسساً؛ فهو لا يدل على مجرد الكراهية، بل على الحالة النفسية التي قد تعطل العدل. ودراسة هذا المفهوم قد تفتح باباً جديداً في فهم أثر الانفعالات في السلوك الاجتماعي وإنتاج المعرفة.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تتعرض المجتمعات المعاصرة لتأثيرات واسعة من الاستقطاب السياسي والإعلامي والثقافي، حتى أصبح الانتماء أحياناً مقدماً على الحقيقة. ويقدم القرآن معياراً مختلفاً؛ إذ يجعل العدل واجباً حتى مع من نختلف معهم، ويحرر المعرفة من سلطان الهوى، ويجعل النزاهة العلمية والأخلاقية شرطاً لبناء الثقة العامة واستقامة المؤسسات.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية، ظهر لي استنباط أراه من أهم ما كشفه الاستقراء حتى الآن.

لقد كنا نتحدث كثيراً عن المنهج، لكن يبدو أن القرآن يسبق المنهج بخطوة أخرى، هي تأهيل الإنسان الذي يمارس المنهج.

فالمنهج الصحيح لا يكفي إذا كان القائم عليه أسير الهوى.

ومن هنا يظهر أن القرآن يبني المعرفة عبر مستويين متكاملين:

1. إصلاح الأداة البشرية: بالإيمان، والتقوى، والإخلاص، والتحرر من الهوى.
2. إصلاح الأداة المنهجية: بالبينة، والشهادة، والقسط، والرد إلى المرجعية.

وهذا الترتيب بالغ الأهمية؛ لأنه يبين أن أزمة المعرفة ليست دائماً في المنهج، بل قد تكون في الإنسان الذي يستخدمه.

ملاحظة منهجية للمشروع

وكما ذكرنا ان القران نفسه يقدم لنا اليات التحليل فهنا أرى أن نضيف إلى منهجية تحليل المضمون القرآني الية جديداة ثابتة بعنوان:

التكوين المنهجي للإنسان القائم بالمعرفة.

فقد أصبح واضحاً من السور التي درسناها أن القرآن لا يكتفي بتعليم قواعد التفكير، بل يبني صفات الباحث والقاضي والمصلح والشاهد قبل أن يكلفه بإنتاج المعرفة أو إصدار الأحكام.

وأرى أن هذا سيكون من أبرز ما يميز المشروع عن المناهج الوضعية، التي تنصرف غالباً إلى أدوات البحث، بينما يجعل القرآن صلاح الإنسان جزءاً من بنية المنهج نفسه، لا أمراً خارجياً عنه. وهذا الخيط المنهجي يستحق أن نواصل تتبعه في بقية السور حتى تتضح معالمه الكلية في النظام المعرفي القرآني.

وأرى أننا الآن نصل إلى ما أعدّه القمة المنهجية في سورة المائدة، وهو قوله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)

وأعتقد أن هذه الآية لم تُقرأ غالبًا إلا في إطارها الفقهي أو الأخلاقي، بينما هي في الحقيقة تؤسس لنظرية قرآنية في قيمة الحياة الإنسانية، بل تؤسس لمعيار نجاح العمران نفسه.

فالقرآن لا يقيس نجاح المجتمع بكثرة العمران المادي، وإنما بقدرته على حفظ الحياة وإحيائها.

وهذه في تقديري إحدى القواعد الكبرى في النظام المعرفي القرآني.

سورة المائدة

الوحدة الخامسة

إحياء النفس

المعيار القرآني لنجاح العمران

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن أسست السورة:

- الوفاء.
- التعاون.
- اكتمال المرجعية.
- القيام بالقسط.

تنتقل الآن إلى بيان الغاية التي تتجه إليها هذه المنظومة كلها.

إنها:

حفظ الحياة الإنسانية وإحياؤها.

فالإنسان في القرآن ليس وسيلة للحضارة.

بل الحضارة هي الوسيلة لحفظ الإنسان وتمكينه من أداء رسالته.

وهذا يعيد ترتيب الأولويات في كل مشروع حضاري.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يتجلى النسق الآتي:

تكريم الإنسان

↓

حفظ النفس

↓

الأمن

↓

الطمأنينة

↓

الإنتاج

↓

العمران

↓

تحقيق الاستخلاف.

فالقرآن يجعل الأمن على الحياة شرطًا لازدهار العمران، لا نتيجة ثانوية له.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة مركزية الحياة في البناء الحضاري

تربط الآية بين قتل نفس واحدة وقتل الناس جميعًا، وبين إحياء نفس واحدة وإحياء الناس جميعًا.

وهذا يدل على أن قيمة الإنسان ليست قيمة عددية، بل قيمة رسالية؛ لأن الاعتداء على أصل حرمة الحياة يهدم الأساس الأخلاقي الذي يقوم عليه المجتمع.

ثانياً

سنة العلاقة بين الفساد وإهدار الحياة

لم تستثن الآية من حرمة النفس إلا حالتي:

- القصاص.
- الفساد في الأرض.

وهذا يدل على أن الفساد ليس انحرافًا فرديًا فحسب، بل ظاهرة تهدد حياة المجتمع واستقراره، ولذلك جاءت معالجته لحماية العمران لا لمجرد العقوبة.

ثالثاً

سنة أن الإحياء أوسع من الإنقاذ

الإحياء في القرآن لا يقتصر على إنقاذ إنسان من الموت.

بل يشمل كل ما يعيد للإنسان قدرته على أداء رسالته.

فيدخل فيه:

- التعليم.
- العلاج.
- الإغاثة.
- رفع الظلم.
- إزالة الجهل.
- نشر الهداية.

وهذه ملاحظة تحتاج إلى استقراء جميع موارد الإحياء في القرآن.

رابعاً

سنة الترابط بين الفرد والمجتمع

جعلت الآية النفس الواحدة بمنزلة الناس جميعًا.

وهذا يكشف أن القرآن ينظر إلى المجتمع باعتباره بناءً متكاملًا، وأن الاعتداء على جزء منه يصيب الكل.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قياس العمران بآثاره على الإنسان

يدعو القرآن الباحث إلى تقويم أي نظام اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي من خلال أثره في صيانة الحياة الإنسانية وتمكينها، لا بمجرد حجم الإنتاج أو القوة.

ثانياً

مبدأ تفسير الأحكام في ضوء مقاصدها العمرانية

فالقصاص، والعقوبات، وسائر التشريعات لا تُدرس منعزلة، بل في إطار وظيفتها في حفظ الحياة ومنع الفساد.

ثالثاً

مبدأ الانتقال من الجزئي إلى الكلي

ينتقل القرآن من حادثة فردية إلى قاعدة عامة تشمل البشرية كلها، وهو منهج قرآني يتكرر في مواضع كثيرة، ويستحق أن يكون من أدوات تحليل المضمون القرآني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

وأرى أن هذا المقطع يقدم مجموعة من المفاهيم المركزية.

الإحياء

وهنا سنعتمد اللفظ القرآني نفسه، لا نستبدله بتعبيرات مثل "التنمية البشرية" أو "تحسين جودة الحياة"، لأن الإحياء في القرآن أشمل منها جميعًا.

فهو يشمل:

- إحياء الإنسان.
- وإحياء القلب.
- وإحياء المجتمع.
- وإحياء الأرض.

وقد يكون من أكثر المفاهيم الجامعة في المشروع.

الفساد

ولا ينبغي أن يحصر في الجرائم.

بل هو كل ما يؤدي إلى تعطيل وظيفة الاستخلاف وإفساد انتظام الحياة.

ويحتاج إلى دراسة استقرائية شاملة في القرآن.

الحرمة

وأرى أنها ليست مجرد حكم فقهي.

بل مبدأ حضاري يحفظ حدود الإنسان والأشياء والعلاقات.

سادساً

التطبيقات الحضارية

في عالم تتزايد فيه النزاعات، والأزمات الإنسانية، والتفاوت في فرص العلاج والتعليم والغذاء، يقدم القرآن معيارًا مختلفًا لتقويم السياسات العامة؛ فنجاحها لا يقاس فقط بالنمو الاقتصادي أو التقدم التقني، وإنما بمدى إسهامها في إحياء الإنسان، وصيانة كرامته، وتمكينه من أداء رسالته في الأرض. وبهذا يصبح حفظ الحياة مقصدًا حاكمًا لجميع مجالات العمران.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية ظهر لي استنباط أراه من أهم ما وصلنا إليه حتى الآن.

لقد كنا نتحدث منذ البداية عن:

- الاستخلاف.
- العمران.
- القيام.
- الإصلاح.

لكن هذه الآية تكشف أن هناك مفهومًا قرآنيًا أعمق يجمع هذه الأفعال جميعًا، وهو:

الإحياء.

فالقيام في حقيقته إحياء.

والإصلاح إحياء.

والعدل إحياء.

والعلم إحياء للعقول.

والوحي إحياء للقلوب.

والعمران إحياء للأرض.

بل إن القرآن نفسه وصف رسالته بهذا المعنى:

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

وهنا أرى ضرورة التوقف المنهجي وعدم التسرع في إعلان نتيجة نهائية، لكن الفرضية التي بدأت تتشكل تحتاج إلى اختبار شامل في جميع السور، وهي:

هل "الإحياء" هو الغاية العليا التي تنتظم تحتها بقية المقاصد العمرانية في القرآن؟

فإن أثبت الاستقراء ذلك، فقد نكون أمام أحد أكثر المفاهيم مركزية في المشروع، إلى جانب القيام. وعندئذ يمكن أن نفهم العلاقة بينهما على نحو أدق:

- القيام يمثل الفعل العمراني الذي يؤديه الإنسان.
- الإحياء يمثل الغاية التي يحققها هذا الفعل.

وأرى أن هذا التمييز – إن ثبت بالاستقراء – سيكون إضافةً منهجيةً مهمة، لأنه يربط بين الفعل والمقصد داخل النسق المعرفي القرآني، ويمنح المشروع بناءً أكثر تماسكًا واتساقًا مع الرؤية الكلية للقرآن الكريم.

وأحسب أننا الآن نصل إلى واحد من أعظم المقاطع المنهجية في سورة المائدة، بل ربما في القرآن كله، وهو قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة: ٤٨)

وأرى أن هذه الآية تمثل النص المؤسس لنظرية المرجعية المعرفية القرآنية، وأنها ستكون من أهم النصوص المؤسسة لـ الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني.

بل أعتقد أن المشروع كله يمكن أن يستند إليها في بيان طبيعة القرآن بوصفه مرجعًا مولدًا للمعرفة.

سورة المائدة

الوحدة السادسة

الهيمنة المعرفية للقرآن

المرجعية الحاكمة لبناء العلوم والعمران

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآية أن القرآن لا يقدم نفسه كتابًا منفصلًا عن تاريخ الوحي.

ولا مجرد امتداد تاريخي له.

بل يقدم نفسه بوصفه:

المعيار الحاكم.

قال تعالى:

﴿ومهيمنًا عليه﴾

وهذه الكلمة من أعظم الألفاظ المؤسسة في المشروع.

فالهيمنة هنا ليست هيمنة قهر.

ولا هيمنة سياسية.

بل:

هيمنة معرفية.

أي أن القرآن يصبح المرجع الذي:

- يصحح.
- ويكمل.
- ويزن.
- ويكشف مواضع التحريف.
- ويعيد ترتيب المعرفة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

الوحي

↓

الحق

↓

الهيمنة

↓

تصحيح المعرفة

↓

سلامة الرؤية

↓

صلاح العمل

↓

استقامة العمران.

وهذا النسق يكشف أن فساد العمران يبدأ غالبًا من فساد المرجعية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن سلامة العمران تابعة لسلامة المرجعية

كل أمة.

وكل حضارة.

تبني عمرانها على تصور معين للإنسان.

وللكون.

وللحياة.

فإذا اختلت هذه المرجعية.

اختلت نتائجها.

ولهذا يبدأ القرآن بإصلاح المرجعية.

ثانياً

سنة تراكم الوحي

لم يلغ القرآن الرسالات السابقة.

بل:

صدقها.

ثم:

هيمن عليها.

وهذا يكشف أن الوحي بناء متكامل.

وليس رسالات متصارعة.

ثالثاً

سنة التمييز بين الثابت والمتغير

الهيمنة لا تعني إلغاء التاريخ.

بل تعني:

إعادة تقويمه.

وهذه سنة معرفية عظيمة.

رابعاً

سنة تعدد الشرائع ووحدة المقصد

قال تعالى بعدها:

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾

فالتنوع في التشريعات لا يناقض وحدة الغاية.

وهذا من أعظم السنن الحضارية.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ بناء العلوم من المرجعية

وهذه من أهم قواعد المشروع.

فالقرآن لا يمد الباحث بالمعلومات فقط.

بل يمنحه:

الإطار الذي يحاكم به المعرفة.

ثانياً

مبدأ النقد المعرفي

الهيمنة تعني أن المعرفة الإنسانية.

ليست معصومة.

بل تخضع:

للمراجعة.

والتقويم.

والتصحيح.

وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه مشروعنا في تجديد العلوم الإنسانية.

ثالثاً

مبدأ الجمع بين التصديق والتقويم

القرآن لا يرفض كل ما سبقه.

ولا يقبله كله.

بل:

يصدق.

ويصحح.

ويكمل.

وهذا منهج بالغ الاتزان.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الهيمنة

وأرى أن هذا المفهوم سيكون من المفاهيم الكبرى في المشروع.

ولكن ينبغي تحريره.

فالهيمنة هنا ليست:

السيطرة.

بل:

المرجعية الحاكمة.

وأرى أن يعرف تعريفًا أوليًا:

الهيمنة: الوظيفة المرجعية التي يمارسها القرآن في تقويم المعارف، وتمييز الحق من الباطل، وربط الجزئيات بالكليات، بما يحفظ وحدة الرؤية ويهدي حركة العمران.

الحق

الحق في القرآن.

ليس مجرد الصدق.

بل النظام الذي تستقيم به:

المعرفة.

والقيم.

والواقع.

ويحتاج إلى دراسة مستقلة.

الشرعة والمنهاج

وأرى ألا نتعامل معهما كمترادفين.

بل نستقرئ الفروق الدقيقة بينهما.

سادساً

التطبيقات الحضارية

في عصر تتعدد فيه المرجعيات الفلسفية والنماذج التفسيرية للإنسان والمجتمع، يقدم القرآن نموذجًا مختلفًا؛ فهو لا يدعو إلى رفض المعرفة الإنسانية، ولا إلى قبولها دون تمحيص، وإنما يجعلها خاضعة لميزان الوحي. ومن ثم فإن بناء العلوم الإنسانية في ضوء القرآن لا يعني القطيعة مع المنجز الإنساني، وإنما إعادة قراءته وتقويمه واستثمار ما يوافق الحق، وتصحيح ما يخالفه، وإكمال ما بقي فيه من نقص.

وهذا التطبيق يتفق مع الرؤية التي تقوم عليها الوثيقة التأسيسية للمشروع المعرفي القرآني، والتي تجعل القرآن مرجعًا مولدًا ومقومًا للمعرفة، لا مجرد مصدر للاستشهاد.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية ظهر لي استنباط أراه من أكثر الاستنباطات أهمية منذ بدأنا هذا المشروع. لقد كنا نتحدث عن النظام المعرفي القرآني، لكن هذه الآية توحي بأن القرآن لا يقتصر على إنتاج المعرفة، بل يقوم بوظيفة أعمق، هي تقويم النظم المعرفية.

وهذا يقتضي – في تقديري – التمييز بين ثلاث وظائف كبرى للقرآن:

1. الوظيفة التأسيسية: إنشاء الأصول الكلية والرؤية الشاملة.
2. الوظيفة التقويمية: مراجعة التصورات والمعارف والمناهج البشرية، وتمييز ما يوافق الحق مما يخالفه.

3. الوظيفة التوليدية: تمكين الأمة من إنتاج علوم واجتهادات جديدة تنطلق من تلك الأصول وتستجيب للوقائع المتجددة.

وأرى أن هذا التقسيم أكثر اتساقًا مع الاستقراء الذي أنجزناه حتى الآن من مجرد القول بأن القرآن "مصدر للمعرفة". فهو يكشف أن القرآن يؤسس، ثم يقوّم، ثم يولّد. وإذا أثبت الاستقراء هذا النسق في بقية السور، فإنه قد يصبح أحد الأعمدة النظرية للمشروع المعرفي القرآني كله.

ملاحظة منهجية أرى أنها تستحق التسجيل

بدأ يلفت انتباهي أن سورة المائدة تتكرر فيها ألفاظ ذات طبيعة حاكمة أكثر من كونها وصفية، مثل:

- أوفوا.
- تعاونوا.
- اعدلوا.
- احكم.
- اتبع.
- هيمن.
- لا تتبع الأهواء.

وهذا قد يشير إلى أن الوظيفة المركزية للسورة ليست مجرد بيان الأحكام، وإنما بناء منظومة الحوكمة القرآنية للعمران؛ أي القواعد التي تضبط حركة الإنسان، والمؤسسة، والمعرفة، والمجتمع. وسوف نظل نختبر هذه الفرضية في بقية السورة، فقد تقود إلى اكتشاف أن سورة المائدة هي سورة الحوكمة القرآنية للعمران، وهو توصيف يبدو – حتى الآن – أكثر شمولًا من وصفها بأنها سورة الأحكام أو العقود وحدها.

والآن نصل إلى أحد أكثر المقاطع تميزًا في سورة المائدة، وهو قصة ابني آدم، ولا سيما قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ (المائدة: ٢٧–٣١)

واحسب أن هذه القصة ليست مجرد أول جريمة قتل في التاريخ، بل هي أول تحليل قرآني لانهيار العمران الإنساني. فالقرآن لا يوردها باعتبارها قصة تاريخية، وإنما باعتبارها نموذجًا تأسيسيًا يكشف كيف يبدأ الفساد الحضاري.

وأحسب أننا إذا أحسنا قراءتها، فإنها ستكون من النصوص المؤسسة في علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني.

سورة المائدة

الوحدة السابعة

قصة ابني آدم

النموذج القرآني لنشأة الفساد العمراني

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن أسست السورة:

- الوفاء.
- التعاون.
- العدل.
- المرجعية.
- حرمة الحياة.

تعود إلى الجذر الأول للفساد.

ولم تبدأ:

بالسلاح.

ولا بالسياسة.

ولا بالاقتصاد.

بل بدأت:

بالقلب.

ومن هنا تكشف القصة أن انهيار العمران يبدأ بانهيار الإنسان.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يتضح النسق الآتي:

فساد النية

↓
الحسد
↓
رفض التقوى
↓
العدوان
↓
إزهاق الحياة
↓
انتشار الفساد
↓
اختلال العمران.

ويكشف هذا النسق أن القرآن يجعل الانهيار الحضاري يبدأ من فساد داخلي قبل أن يتحول إلى ظاهرة اجتماعية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن فساد القلب يسبق فساد المجتمع

لم يبدأ القتل بسبب نقص الموارد.

ولا بسبب صراع السلطة.

بل بدأ بالحسد.

وهذا يدل على أن كثيرًا من الأزمات الاجتماعية تبدأ من اضطراب القيم قبل اضطراب المصالح.

ثانياً

سنة العلاقة بين التقوى والقبول

قال تعالى:

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾

فالقرآن يجعل التقوى معيار القبول، لا مجرد أداء العمل.

وهذه سنة تتجاوز العبادة إلى كل مجالات الاستخلاف؛ إذ إن قيمة العمل لا تنفصل عن سلامة المقصد.

ثالثاً

سنة أن العنف يبدأ عندما يفشل الإنسان في إدارة الاختلاف

لم يستطع أحد الأخوين أن يتعامل مع تميز أخيه.

فتحول الاختلاف إلى حسد.

ثم إلى عدوان.

ومن هنا فإن القرآن يقرر أن غياب الضبط الأخلاقي للاختلاف يقود إلى تفكيك المجتمع.

رابعاً

سنة التعلم من الكون

بعد وقوع الجريمة، لم يُرسل الله كتابًا جديدًا.

بل أرسل غرابًا.

﴿فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض...﴾

وهذه من السنن المعرفية العظيمة.

فالقرآن يقرر أن الكون نفسه مجال للتعلم.

وهذا ينسجم مع ما قررناه سابقًا من التكامل بين قراءة الوحي وقراءة الكون، وأن السنن الإلهية تُدرك من خلال الوحي، ويُستدل عليها كذلك بملاحظة الواقع والكون.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الظاهرة من منشئها الأول

لم يعرض القرآن جريمة القتل بوصفها حادثة قانونية، بل أعادها إلى جذورها النفسية والقيمية.

وهذا يوجه الباحث إلى تجاوز الأعراض الظاهرة إلى البنى العميقة التي أنتجتها.

ثانياً

مبدأ التكامل بين الوحي والكون

يكشف الغراب أن مصادر التعلم لا تقتصر على النص، بل تشمل ملاحظة العالم المسخر، شريطة أن تبقى القراءة محكومة بهداية الوحي.

ثالثاً

مبدأ التعلم بعد الخطأ

حتى بعد وقوع الجريمة، استمرت عملية التعليم. وفي ذلك دلالة على أن القرآن لا يكتفي بإدانة الخطأ، بل يحول التجربة إلى مصدر للوعي والإصلاح.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

التقبل

وأرى أن التقبل مفهوم قرآني يحتاج إلى دراسة مستقلة؛ لأنه يرتبط بالتقوى، والإخلاص، وصلاح العمل، وليس بمجرد إنجاز الفعل.

الحسد

ولا ينبغي أن يُدرس بوصفه خلقًا مذمومًا فقط، بل بوصفه عاملًا مفسدًا للعمران؛ إذ يقوض الثقة، ويغذي الصراع، ويعطل التعاون.

التعلم الكوني

وأستخدم هذا التعبير هنا استعمالًا إجرائيًا، لا بوصفه مصطلحًا نهائيًا. والمقصود به: الإفادة من آيات الكون في بناء المعرفة، في إطار الهداية القرآنية. وأرى أن علينا لاحقًا أن نبحث عن تعبير قرآني أدق إذا دل عليه الاستقراء.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه القصة أن معالجة العنف والجريمة لا تقتصر على العقوبات، بل تبدأ ببناء الإنسان من الداخل، وتنمية التقوى، وإدارة الاختلاف، ومقاومة الحسد، وتعزيز ثقافة التعلم. كما تؤكد أن الوقاية الحضارية أعمق أثرًا من الاكتفاء بالعلاج بعد وقوع الفساد.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه القصة، ظهر لي استنباط أراه من أهم ما تكشفه سورة المائدة.

لقد لاحظنا أن القرآن حين يعالج القضايا الكبرى لا يبدأ من الحدث، وإنما من المنشأ.

ففي قصة ابني آدم لم يركز على القتل، بل على ما سبقه:

- الحسد.
- فساد المقصد.
- ضعف التقوى.
- سوء إدارة الاختلاف.

وهذا يقود إلى فرضية منهجية جديدة، وهي أن القرآن يفسر الظواهر بردها إلى سلاسلها السببية العميقة، لا إلى مظاهرها النهائية.

وأرى أن هذه الفرضية إذا ثبتت باستقراء بقية السور، فإنها ستضيف إلى منهج تحليل المضمون القرآني أداة جديدة، يمكن أن نسميها – مؤقتًا – "تحليل السلسلة السننية"؛ أي تتبع المراحل التي تنتقل بها الظاهرة من بذرتها الأولى حتى آثارها الحضارية. وبذلك لا يكتفي الباحث بوصف الظاهرة، بل يكشف مسار تشكلها، ونقاط التدخل الممكنة لإصلاحها قبل أن تستفحل.

وهذا – في تقديري – ينسجم مع طبيعة القرآن، الذي لا يعالج النتائج فقط، وإنما يعالج منابعها، ليكون الإصلاح إصلاحًا جذريًا لا سطحيًا. وأرى أن هذا قد يصبح أحد الإسهامات المنهجية المميزة لمشروع تحليل المضمون القرآني في ضوء النظام المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني.

وأرى أننا الآن نصل إلى مقطع يمثل – في تقديري – أحد أهم النصوص المؤسسة لفلسفة التعدد والتنافس الحضاري في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨)

وهذه الآية – في رأيي – من أكثر الآيات التي أسيء فهمها؛ إذ تُقرأ غالبًا في إطار الحوار الديني فقط، بينما هي تؤسس لسنة قرآنية في إدارة التنوع الإنساني، ولمنهج حضاري في تحويل الاختلاف إلى مجال للتسابق في الخير، لا للتنازع.

وأرى أن هذه الآية ينبغي أن تكون من النصوص المركزية في مشروعنا؛ لأنها تمس قضايا التنوع، والحضارة، والتنافس، والاجتماع الإنساني.

سورة المائدة

الوحدة الثامنة

التنوع والتسابق

السنن القرآنية في إدارة الاختلاف الحضاري

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآية أن القرآن لا ينظر إلى التنوع بوصفه خللًا ينبغي إزالته، ولا بوصفه غاية مستقلة، وإنما بوصفه سنة إلهية لها وظيفة حضارية.

فقد كان الله قادرًا على أن يجعل الناس أمة واحدة، لكنه لم يشأ ذلك.

وهنا يتحول السؤال من:

لماذا اختلف الناس؟

إلى:

كيف يُدار هذا الاختلاف؟

والجواب القرآني ليس:

الصراع.

ولا الإلغاء.

ولا الذوبان.

بل:

﴿فاستبقوا الخيرات﴾.

أي تحويل التنوع إلى ميدان للتنافس في الإصلاح والعطاء.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يمكن استنباط النسق الآتي:

التنوع

↓

الابتلاء

↓

المسؤولية

↓

التسابق في الخيرات

↓
الإبداع الحضاري
↓
التكامل الإنساني
↓
ازدهار العمران.

ويكشف هذا النسق أن التنوع ليس نقيض الوحدة، بل قد يكون أحد أسباب ثرائها إذا انضبط بالحق والخير.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة التنوع

الاختلاف في الأمم والشرائع والقدرات سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني.

لكن هذه السنة ليست مطلقة، بل تتحرك داخل إطار وحدة الأصل الإنساني ووحدة المرجعية الإلهية.

ثانياً

سنة الابتلاء بالتنوع

قال تعالى:

﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾

فالاختلاف ليس امتيازًا في ذاته، وإنما مسؤولية واختبار في كيفية توظيف ما أُعطي الإنسان أو الأمة.

ثالثاً

سنة التسابق بدل الصراع

وهذه من أعظم السنن الحضارية.

فالقرآن لم يقل:

"فتغالبوا".

ولا:

"فتنازعوا".

بل قال:

﴿فاستبقوا الخيرات﴾.

فالمنافسة المشروعة هي التي تزيد الخير في العالم، لا التي تزيد الهيمنة والعدوان.

رابعاً

سنة المرجعية عند الاختلاف

تختم الآية بقوله تعالى:

﴿إلى الله مرجعكم جميعًا﴾

فتقرر أن الاختلاف لا يعني غياب الحقيقة، ولا سقوط المرجعية، وإنما يعني أن الفصل النهائي مرده إلى الله، مع التزام الإنسان بالعدل والاجتهاد في حياته.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ التمييز بين التنوع المشروع والتفرق المذموم

ينبغي في تحليل الظواهر الاجتماعية ألا يُسوّى بين كل أشكال الاختلاف؛ فالقرآن يفرق بين التنوع الذي يثري الحياة، وبين التفرق الذي يمزق الجماعة ويهدم العمران.

ثانياً

مبدأ تفسير الاختلاف بوظيفته

لا يكتفي القرآن بوصف وجود الاختلاف، بل يبين الحكمة منه. وهذا يدعو الباحث إلى البحث عن الوظيفة الاجتماعية والحضارية للظواهر، لا الاكتفاء برصدها.

ثالثاً

مبدأ تحويل التحديات إلى فرص

التنوع في القرآن ليس أزمة ينبغي التخلص منها، بل مجال لإظهار القدرة على الإحسان والسبق في الخير.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الابتلاء

وأرى أن الابتلاء من المفاهيم المركزية في المشروع، لأنه ليس مقصورًا على الشدائد، بل يشمل النعم، والقدرات، والعلم، والاختلاف، وكل ما يُختبر به الإنسان في أداء رسالته.

الاستباق

وهذا يجب أن يُدرس بوصفه مفهومًا عمرانيًا، لا مجرد توجيه أخلاقي.

فالاستباق في القرآن هو:

المبادرة إلى إنتاج الخير وإعماره قبل غيره، وفق هداية الله.

وهو يختلف عن المنافسة التي تحركها الأنانية أو طلب الغلبة.

الخيرات

ولا ينبغي اختزالها في أعمال البر الفردية، بل تشمل كل ما يصلح الإنسان والمجتمع والعمران.

سادساً

التطبيقات الحضارية

في عالم يزداد فيه التنوع الثقافي والديني والمعرفي، يقدم القرآن إطارًا متوازنًا؛ فهو لا يدعو إلى إلغاء الاختلاف، ولا إلى تحويله إلى صراع دائم، وإنما إلى إدارة هذا التنوع في إطار العدل، وتحويله إلى تنافس في إنتاج الخير والمعرفة والإصلاح. وهذا يفتح آفاقًا جديدة في بناء العلاقات بين المجتمعات والمؤسسات، وفي صياغة نماذج للتعاون الحضاري دون التفريط في المرجعية.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية ظهر لي استنباط أراه من أهم ما يميز المشروع المعرفي القرآني.

لقد لاحظنا منذ سورة البقرة أن القرآن لا ينظر إلى السنن الإلهية بوصفها قوانين جامدة، وإنما يجعلها مجالات للتكليف.

فالاختلاف سنة.

لكن الاستجابة له مسؤولية.

والتنوع سنة.

لكن توظيفه ابتلاء.

والقدرة نعمة.

لكن استعمالها اختبار.

وهذا يقود إلى تمييز منهجي مهم بين نوعين من السنن:

1. السنن التكوينية: وهي التي يجري بها نظام الكون والاجتماع، كالتنوع، والتداول، والتدافع.

2. السنن التكليفية: وهي الكيفية التي يُطالب الإنسان أن يتعامل بها مع تلك السنن، كالوفاء، والعدل، والاستباق في الخيرات، والإصلاح.

وأرى أن هذا التمييز يحتاج إلى مزيد من الاستقراء قبل اعتماده نهائيًا، لكنه إن ثبت، فسيساعد في إزالة كثير من الخلط في الدراسات السننية؛ إذ يبين أن القرآن لا يكتفي بوصف حركة التاريخ والمجتمع، بل يوجه الإنسان إلى الاستجابة الصحيحة لهذه الحركة. وبهذا يصبح النسق العمراني الاستخلافي نسقًا يجمع بين فهم السنن والعمل بمقتضاها، وهو ما ينسجم مع غاية القرآن في الهداية وإقامة العمران، لا في الوصف المجرد للواقع.

وأرى أننا نقترب الآن من خاتمة سورة المائدة، وفي تقديري أن السورة لا يمكن أن تختم إلا بما بدأت به. فقد بدأت بـ العهد، ومرت بـ العدل، والوفاء، والمرجعية، والقيام، ثم تنتهي بمشهد عظيم من مشاهد المسؤولية والمحاسبة يوم القيامة، ولا سيما في حوار الله تعالى مع عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (المائدة: ١١٦–١٢٠)

وهذا المقطع ليس مجرد تقرير لعقيدة، وإنما هو – في تقديري – النموذج القرآني الأعلى للمساءلة الحضارية.

فالقرآن يختم السورة بإعلان أن جميع المسؤوليات الإنسانية، مهما علت، تنتهي إلى المساءلة أمام الله.

سورة المائدة

الوحدة التاسعة

المساءلة

الضمانة العليا لاستقامة العمران

أولاً

الفكرة المركزية

إذا كانت سورة المائدة قد بنت:

- الوفاء.
- والعقود.
- والعدل.
- والمرجعية.
- والتعاون.
- والقيام.

فإنها تختم جميع ذلك بأصل جامع:

المساءلة.

فكل سلطة.

وكل علم.

وكل قيادة.

وكل رسالة.

ستنتهي إلى سؤال.

وهذا هو الضابط الأعلى للعمران.

فالعمران في القرآن ليس قائماً على الرقابة البشرية وحدها.

بل على استحضار الوقوف بين يدي الله.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

يتجلى النسق على النحو الآتي:

الأمانة

↓

المسؤولية

↓

العمل

↓

المساءلة

↓

الجزاء

↓

ترسيخ العدل

↓

استدامة العمران.

ويكشف هذا النسق أن المساءلة ليست مرحلة أخيرة فقط، بل هي قوة موجهة للسلوك منذ البداية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة شمول المسؤولية

حتى الرسل يسألون.

قال تعالى:

﴿أأنت قلت للناس...﴾

وليس السؤال هنا لطلب العلم، وإنما لإظهار الحق وإقامة الحجة.

فإذا كانت أعظم الشخصيات البشرية تدخل في إطار المساءلة، فمن باب أولى كل من يتولى مسؤولية في المجتمع.

ثانياً

سنة ارتباط السلطة بالأمانة

كلما اتسعت سلطة الإنسان.

اتسعت مسؤوليته.

وهذه قاعدة تتكرر في القرآن.

وليست السلطة امتيازًا.

بل تكليف.

ثالثاً

سنة أن العلم لا يعفي من الحساب
بل يزيده.
ولهذا كان الأنبياء أكثر الناس شعورًا بالمسؤولية.
رابعاً
سنة المرجع النهائي
كل الخلافات.
وكل المنازعات.
وكل الأعمال.
تنتهي إلى الله.
وهذه السنة تمنع تأليه الإنسان.
وتمنع احتكار الحقيقة.
وتحفظ التواضع العلمي.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ ربط المعرفة بالمسؤولية
لا يفصل القرآن بين إنتاج المعرفة وبين تحمل نتائجها.
وهذا أصل منهجي بالغ الأهمية في العلوم الإنسانية.
ثانياً
مبدأ مراجعة المخرجات
كما أن الأفراد يحاسبون.
فكذلك ينبغي أن تراجع:
الأفكار.
والنظريات.
والمناهج.
في ضوء آثارها.

وهذا ينسجم مع منهج التقويم المستمر الذي ظهر معنا في سورة المائدة.

ثالثاً

مبدأ التواضع المعرفي

من أبلغ ما قاله عيسى عليه السلام:

﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾

فلا ادعاء.

ولا مبالغة.

ولا دفاع عن النفس بغير حق.

وهذا نموذج رفيع لأخلاق الباحث والعالم.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

المساءلة

وأرى أن المساءلة من المفاهيم المركزية في المشروع، لكنها ليست المفهوم الإداري المتداول، بل هي:

قيام الإنسان بالجواب عن أمانته وعمله أمام الله أولاً، ثم أمام الناس فيما يدخل في حقوقهم، بما يحقق حفظ العدل واستقامة العمران.

الأمانة

بدأت تبرز في أكثر من سورة.

وأحسب أننا سنحتاج إلى دراسة استقرائية مستقلة لها.

فهي تبدو من المفاهيم الجامعة للمشروع.

الشهادة

وفي هذا المشهد تتجاوز الشهادة معناها القضائي إلى كونها إظهار الحقيقة كاملة أمام الله.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تواجه المؤسسات المعاصرة تحديات تتعلق بالشفافية، والنزاهة، والمحاسبة. ويقدم القرآن أساسًا أعمق لهذه القيم؛ إذ يجعل المساءلة ذات بعدين متكاملين: بعدًا مؤسسيًا في الدنيا، وبعدًا

أخرويًا أمام الله. وهذا الوعي يحد من الفساد، ويعزز الأمانة، ويجعل الرقابة الذاتية ركيزة لا تقل أهمية عن الرقابة النظامية.

الاستنباط الختامي لسورة المائدة

وأحسب أننا بعد استقراء سورة المائدة يمكن أن نصل إلى نتيجة أراها مهمة في بناء المشروع.

لقد بدأنا السورة نظن أنها:

سورة الأحكام.

ثم ظهر أنها:

سورة العقود.

ثم اتضح أنها:

سورة الوفاء.

لكن الاستقراء الكلي يقود – في تقديري – إلى نتيجة أوسع.

إن سورة المائدة ليست مجرد سورة للأحكام.

بل هي:

سورة حوكمة العمران.

فكل موضوعاتها تدور حول القواعد التي تضبط حركة الإنسان والمجتمع والمعرفة والدولة، من خلال:

- الوفاء بالعهد.
- وضبط العلاقات.
- وتحقيق العدل.
- وصيانة الحياة.
- والاحتكام إلى الوحي.
- وإدارة التنوع.
- وربط السلطة بالمسؤولية.
- وانتهاء كل ذلك بالمساءلة.

وهذا يجعلها السورة التي تؤسس للنظام الحاكم للعمران بعد أن تأسست الأمة في البقرة، والقيادة في آل عمران، والمجتمع في النساء.

الوظيفة المعرفية لسورة المائدة

و بوصفها استنتاجًا أوليًا يخضع لاختبار الاستقراء العام للقرآن فيمكن أن تُصاغ وظيفتها على النحو الآتي:

تأسيس منظومة الحوكمة القرآنية للعمران، من خلال بناء المرجعية الحاكمة للعلاقات، والوفاء، والعدل، وحفظ الحياة، وإدارة التنوع، وربط جميع صور السلطة والمعرفة بالمسؤولية والمساءلة.

موقع سورة المائدة في البناء الكلي للمشروع

وبذلك تتضح – حتى هذه المرحلة – معالم البناء المتدرج للنظام المعرفي القرآني:

السورة الوظيفة المعرفية

الفاتحة تأسيس الرؤية الكلية ومرجعية الهداية.

البقرة تأسيس الأمة الاستخلافية ومنهج العمران.

آل عمران تأسيس المرجعية المعرفية والقيادة الرسالية والشهود الحضاري.

النساء تأسيس المجتمع القائم على العدل وصيانة الحقوق والعلاقات.

المائدة تأسيس حوكمة العمران بالوفاء والعدل والمرجعية والمساءلة.

ملاحظة منهجية قبل الانتقال إلى سورة الأنعام

أرى أننا وصلنا إلى مرحلة تستدعي تسجيل ملاحظة منهجية مهمة. فمن خلال السور الخمس الأولى لم نعد نستخرج موضوعات أو أحكامًا متفرقة، بل بدأ يتكشف لنا أن كل سورة تؤدي وظيفة معرفية داخل بناء قرآني متدرج. وهذا يدفع إلى صياغة فرضية مركزية للمشروع، وهي: أن ترتيب سور القرآن ليس ترتيبًا تعبديًا فحسب، بل يحمل – بالإضافة إلى ذلك – تدرجًا في بناء النظام المعرفي القرآني؛ إذ تسهم كل سورة في تأسيس طبقة جديدة من طبقات الرؤية الكلية للعمران والاستخلاف.

وهذه الفرضية لا ينبغي إعلانها نتيجة نهائية الآن، بل يجب أن تبقى فرضية استقرائية نختبرها مع كل سورة جديدة. فإذا استمرت في الانسجام مع البناء القرآني حتى نهاية المصحف، فإنها قد تمثل أحد أبرز الاكتشافات المنهجية في هذا المشروع، وتمنحه تماسكًا علميًا يتجاوز القراءة الموضوعية الجزئية إلى قراءة تكشف البنية المعرفية الكلية للقرآن الكريم.

العلاقة النسقية بين سورة المائدة وسورة الأنعام

بعد أن انتهت سورة المائدة إلى تأسيس حوكمة العمران من خلال الوفاء، والعدل، والمرجعية، وحفظ الحياة، والمسؤولية، والمساءلة، يبرز سؤال معرفي كبير:

من أين تستمد هذه المنظومة الحاكمة مشروعيتها؟

فالقانون لا يكتسب سلطته من ذاته.

والقيم لا تستمد إلزامها من العرف.

والأخلاق لا تستقر بمجرد الاتفاق الاجتماعي.

بل لا بد من مرجعية عليا تمنحها اليقين والشرعية.

وهنا تأتي سورة الأنعام لتجيب عن هذا السؤال.

فإذا كانت المائدة قد أسست النظام الحاكم للعمران، فإن الأنعام تؤسس المرجعية العقدية والمعرفية التي تمنح هذا النظام مشروعيته.

ومن هنا فإن العلاقة بين السورتين ليست انتقالًا من الأحكام إلى العقائد، كما جرى في كثير من التصنيفات، وإنما هي انتقال من الحوكمة إلى مرجعية الحوكمة.

فالمائدة تجيب عن سؤال:

كيف تُدار الحياة؟

بينما تبدأ الأنعام بالإجابة عن سؤال أعمق:

على أي أساس تُدار الحياة؟

ومن ثم فإن الأنعام ليست مجرد سورة في تقرير التوحيد، وإنما هي سورة تحرير المرجعية التي لا يستقيم العمران إلا بها.

سورة الأنعام

المدخل العام

في ضوء المشروع المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني

اعتاد المفسرون وصف سورة الأنعام بأنها سورة العقيدة، أو سورة التوحيد، أو سورة محاجة المشركين.

وهذا كله صحيح.

غير أن الاستقراء في ضوء النظام المعرفي القرآني يكشف – فيما يبدو – وظيفة أوسع من ذلك.

فالقرآن بعد أن بنى:

- الرؤية الكلية (الفاتحة).
- والأمة (البقرة).
- والقيادة والمرجعية الرسالية (آل عمران).
- والمجتمع (النساء).
- ومنظومة الحوكمة (المائدة).

ينتقل الآن إلى بناء الأساس المرجعي الذي يحمي هذه المنظومة من الانحراف.

ولهذا تكثر في السورة الأدلة على:

- الخلق.
- والملك.
- والرزق.
- والعلم.
- والوحي.
- والبعث.
- وإبطال المرجعيات المصطنعة.

فهي لا تعرض التوحيد باعتباره قضية إيمانية مجردة، وإنما باعتباره الأصل الذي تتفرع عنه جميع المرجعيات المعرفية والقيمية والتشريعية والحضارية.

الوظيفة المعرفية لسورة الأنعام

وأرى – بوصفه فرضية استقرائية أولية – أن تصاغ وظيفتها على النحو الآتي:

تأسيس مرجعية التوحيد بوصفها الأصل الحاكم للنظام المعرفي القرآني، وتحرير الإنسان من المرجعيات المتوهمة التي تفسد المعرفة والعمران.

وأحسب أن لفظ "تحرير المرجعية" سيكون من الألفاظ المفتاحية في هذه السورة، لأن الأنعام لا تناقش وجود الله فقط، بل تناقش: من يملك حق التشريع؟ ومن يملك حق التحليل والتحريم؟ ومن يملك تفسير الوجود؟ ومن يملك توجيه الإنسان؟

الوحدة الأولى

الحمد والخلق والملك

التوحيد أساس المرجعية المعرفية

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

أولاً

الفكرة المركزية

تبدأ سورة الأنعام بالحمد، كما بدأت الفاتحة بالحمد.

لكن الفاتحة أعلنت الربوبية.

أما الأنعام فتبدأ بإقامة الدليل على الربوبية.

فالحمد هنا مرتبط بالخلق.

والخلق مرتبط بالملك.

والملك مرتبط بحق المرجعية.

فالذي خلق...

هو الذي يعلم.

والذي يعلم...

هو الذي يهدي.

والذي يهدي...

هو الذي يشرع.

وهذه سلسلة منطقية يبنيها القرآن منذ أول آية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الخالق

↓

المالك

↓

العالم

↓

الهادي

↓

المشرِّع

↓

الإنسان المستخلف

↓

العمران الراشد.

وهذا النسق من أهم الأنساق التي ظهرت لنا حتى الآن؛ لأنه يربط بين العقيدة وبناء المجتمع، ويزيل الفصل المصطنع بين التوحيد والعمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة وحدة المرجعية

من أعظم أسباب اضطراب المجتمعات تعدد المرجعيات المتنافسة.

أما القرآن فيعيد جميعها إلى أصل واحد:

الخالق.

ومن ثم فإن وحدة المرجعية ليست قضية عقدية فحسب، بل شرط من شروط وحدة الرؤية واستقامة العمران.

ثانياً

سنة العلاقة بين الخلق والهداية

لا يكتفي القرآن بالاستدلال بالخلق على وجود الله، بل يستدل به على حقه في هداية الإنسان.

فالخلق في القرآن ليس برهانًا ميتافيزيقيًا فقط، بل أساس للوظيفة الحضارية للوحي.

ثالثاً

سنة أن الانحراف يبدأ من اضطراب المرجعية

ختمت الآية بقوله:

﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾

أي يجعلون لله عديلًا أو يصرفون المرجعية إلى غيره.

ومن هنا يبدأ فساد التصور، ثم ينعكس على القيم والسلوك والعمران.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

- مبدأ ردّ الفروع إلى الأصول: فالتشريعات والقيم لا تُفهم مستقلة عن أصلها المرجعي.
- مبدأ بناء المعرفة من الكون والوحي معًا: فالخلق دليل، والوحي مفسر، ولا يكتمل أحدهما دون الآخر.
- مبدأ ترابط العقيدة والعمران: فلا تُقرأ العقيدة باعتبارها مجالًا منفصلًا عن الاجتماع الإنساني، بل هي البنية العميقة التي توجه حركة التاريخ والحضارة.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

تبدأ سورة الأنعام – منذ آيتها الأولى – بتأسيس عدد من المفاهيم التي يبدو أنها ستكون محورية في السورة كلها:

- الخلق: ليس مجرد إيجاد، بل أصل المرجعية.
- الربوبية: بما تتضمنه من التربية والتدبير والملك والهداية.
- العدل (يعدلون): هنا بمعنى تسوية غير الله بالله في المرجعية، وهو استعمال قرآني ينبغي تمييزه عن القسط والعدل في العلاقات الاجتماعية.
- النور والظلمات: ويستحقان دراسة استقرائية؛ إذ يبدو أن القرآن يوحد النور ويفرد مصدره، بينما يجمع الظلمات، في دلالة على وحدة الحق وتعدد مسالك الباطل.

استنباط أولي للمشروع

وأرى أن أول ما تكشفه سورة الأنعام هو أن المشروع المعرفي القرآني لا يبدأ بإثبات وجود الله فحسب، بل يبدأ بتحرير مصدر المعرفة والسلطة والتشريع.

ولعل هذا يقودنا إلى تطوير فرضية جديدة، وهي أن قضية التوحيد في القرآن ليست قضية لاهوتية مجردة، وإنما قضية إبستمولوجية وحضارية؛ لأنها تحدد الجهة التي تستمد منها المعرفة مشروعيتها، والمعايير التي يُوزن بها الحق والباطل، والسلطة التي يُحتكم إليها في تنظيم حياة الإنسان.

وهذه الفرضية تحتاج إلى اختبار دقيق في بقية السورة، ولا سيما في الآيات التي تناقش التحليل والتحريم، وتقليد الآباء، وإنكار الوحي، والنظر في آيات الكون. فإذا استمر هذا النسق، فقد

نستطيع أن نقول إن سورة الأنعام هي سورة تحرير المرجعية المعرفية، كما كانت المائدة سورة حوكمة العمران، وهو ما يحافظ على التدرج المتماسك في البناء الكلي للنظام المعرفي القرآني وأحسب أن المدخل الذي بدأنا به يفرض علينا أن نواصل مع أول مقطع في السورة، لأنه يمثل أول لبنة في بناء "تحرير المرجعية"، وهو قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢-٣).

وأرى أن هاتين الآيتين تؤسسان لمبدأ لم يحظ – في تقديري – بما يستحقه من الدراسة، وهو مرجعية العلم الإلهي في بناء المعرفة الإنسانية.

فالقرآن بعد أن أثبت حق الله في المرجعية لأنه الخالق، يقرر الآن أن هذه المرجعية ليست مبنية على القدرة وحدها، وإنما على الإحاطة الكاملة بالإنسان والكون.

سورة الأنعام

الوحدة الثانية

العلم الإلهي

الأساس المعرفي للمرجعية القرآنية

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف الآيتان أن المرجعية في القرآن لا تقوم على القوة، ولا على الغلبة، ولا على الإرادة المجردة.

بل تقوم على:

- الخلق.
- والعلم.
- والإحاطة.
- والحكمة.

فالذي خلق الإنسان.

ويعلم حقيقته.

ويعلم بدايته.

ونهايته.

وسره.

وعلانيته.

هو وحده الذي يملك أن يهديه.

وهذا انتقال بالغ الأهمية من إثبات وجود المرجعية إلى بيان كفاءتها المطلقة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الخَلْق

↓

العلم الشامل

↓

الهداية

↓

التشريع

↓

صلاح الإنسان

↓

استقامة المجتمع

↓

العمران.

وهذا النسق يكشف أن التشريع في القرآن ليس قرارًا اعتباطيًا، وإنما ثمرة علم محيط بطبيعة الإنسان.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة التناسب بين العلم والقيادة

كلما اتسع العلم الصحيح.

ازدادت أهلية القيادة.

ولهذا فإن القيادة المطلقة لا تكون إلا لله.

أما الإنسان.

فقيادته نسبية بقدر علمه.

وهذه قاعدة سننية يمكن أن تمتد إلى الإدارة، والقضاء، والتعليم، والسياسة.

ثانياً

سنة ارتباط العمران بمعرفة الإنسان

يبدأ القرآن بخلق الإنسان من طين.

ليقرر أن أي مشروع حضاري لا يفهم حقيقة الإنسان ومحدوديته ومركبيته، سيبني نظمًا لا تنسجم مع فطرته.

ومن هنا فإن اضطراب كثير من النظم الفكرية يعود إلى تصورات غير دقيقة عن الإنسان.

ثالثاً

سنة أن الجهل بحقيقة الإنسان يفسد المعرفة

القرآن يربط بين معرفة الأصل (الخلق)، ومعرفة المصير (الأجل)، ومعرفة السلوك (الكسب).

وهذا يعني أن الإنسان لا يفهم نفسه فهمًا صحيحًا إذا عزل أحد هذه الأبعاد عن الآخر.

رابعاً

سنة مركزية الزمن في العمران

تذكر الآية:

﴿ثم قضى أجلًا وأجل مسمى عنده﴾

وهنا يلفت القرآن النظر إلى أن الزمن ليس مجرد إطار للأحداث، بل عنصر في السنن الإلهية.

فكل فرد.

وكل مجتمع.

وكل حضارة.

لها آجال وسنن في النشوء والنمو والانحسار.

وأحسب أن هذا المفهوم سيكون من المفاهيم المركزية في المشروع، ويحتاج إلى استقراء جميع الآيات المتعلقة بالأجل.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ بناء المعرفة على تصور صحيح للإنسان

قبل تفسير الظواهر الاجتماعية، ينبغي تحديد طبيعة الإنسان الذي يصنعها.

وهذا ما يفعله القرآن قبل الدخول في التشريعات والأحكام.

ثانياً

مبدأ الجمع بين التكوين والسلوك

لا يدرس القرآن الإنسان من زاوية بيولوجية فقط، ولا من زاوية اجتماعية فقط، بل يربط بين:

- أصله.
- وعمره.
- وعلمه.
- وعمله.
- ومصيره.

وهذا نموذج متكامل في دراسة الإنسان.

ثالثاً

مبدأ الإحاطة قبل الحكم

لأن الله يعلم السر والجهر.

فإن أحكامه قائمة على العلم الكامل.

أما الإنسان.

فعليه أن يتحلى بالتواضع في أحكامه، وأن يدرك حدود معرفته.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الأجل

وأرى أن الأجل ليس مفهومًا زمنيًا فقط.

بل مفهوم عمراني.

فهو يمثل الحد الذي تجري فيه السنن.

وقد يشمل:

- أجل الفرد.
- وأجل الأمة.
- وأجل الحضارة.
- وأجل الظواهر الاجتماعية.

ويحتاج إلى دراسة قرآنية مستقلة.

الكسب

ولا ينبغي أن يقتصر على المعنى الاقتصادي.

بل هو في القرآن يشمل كل ما يكتسبه الإنسان من قول وعمل وأثر، ومن ثم فهو مفهوم أشمل من الفعل الجزئي.

السر والجهر

ويبدوان في هذه الآية أساسًا لفهم البعدين:

- الباطني.
- والظاهري.

في السلوك الإنساني.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعاني كثير من النظريات الاجتماعية الحديثة من اختزال الإنسان إلى بعد واحد؛ فتارة يُختزل إلى كائن اقتصادي، وتارة إلى كائن بيولوجي، أو نفسي، أو اجتماعي. أما القرآن فيقدم نموذجًا تركيبيًا يرى الإنسان مخلوقًا ذا أصل، ورسالة، وزمن، ومسؤولية، وعلاقة دائمة بالله. ومن ثم فإن أي علم إنساني ينطلق من هذا التصور سيكون أقدر على تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرًا متوازنًا.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات، ظهر لي استنباط أراه ذا أثر كبير على مشروع علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني.

لقد اعتادت العلوم الاجتماعية أن تبدأ من الإنسان كما هو؛ أي من ملاحظة سلوكه وواقعه.
أما القرآن فيبدأ من الإنسان كما خُلق، ثم يربط ذلك بـ الإنسان كما ينبغي أن يكون.
وهذا يقود إلى تمييز منهجي بين مستويين في دراسة الإنسان:

1. الإنسان الوصفي: كما تكشفه الملاحظة الاجتماعية والتاريخية.
2. الإنسان المعياري الاستخلافي: كما يقدمه القرآن في ضوء الفطرة والهداية والغاية.

وأرى أن هذا التمييز قد يكون من أهم الإضافات المنهجية للمشروع؛ لأنه يمنع الخلط بين وصف الواقع وتقويمه، ويجعل الوحي لا ينافس الملاحظة العلمية، بل يمدها بالإطار المرجعي الذي يفسرها ويهديها. وهذا ينسجم مع الفرضية التي بدأت تتشكل منذ الفاتحة، ومؤداها أن القرآن لا يلغي المعرفة الإنسانية، وإنما يحررها، ويصحح منطلقاتها، ويعيد توجيهها نحو غاية الاستخلاف والعمران.

وأرى أن الآيات التالية (الأنعام: ٤–١١) تمثل مرحلة جديدة في بناء السورة، فبعد أن أثبتت السورة مرجعية الله في الخلق والعلم، تنتقل الآن إلى بيان أزمة الإنسان مع المعرفة.

وهنا أعتقد أننا أمام أحد أهم المحاور في المشروع المعرفي القرآني، وهو أن مشكلة الإنسان ليست في غياب الأدلة، وإنما في طريقة التعامل مع الأدلة.

وهذا في الحقيقة يمثل تأسيسًا قرآنيًا لما يمكن أن نسميه أخلاقيات المعرفة.

سورة الأنعام

الوحدة الثالثة

أزمة المعرفة الإنسانية

السنن القرآنية في استقبال الحق ورفضه

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (الأنعام:٤)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات حقيقة في غاية الأهمية.

فالقرآن لا يصور الكفر بوصفه نتيجة لنقص الأدلة.

بل نتيجة:

لمنهج خاطئ في التعامل مع المعرفة.

فالآيات موجودة.

والبراهين قائمة.

ولكن المشكلة في:

الإعراض.

ولهذا فإن السورة لا تناقش قوة الدليل بقدر ما تناقش قابلية الإنسان للهداية.

وهذا فرق منهجي بالغ الأهمية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الآيات

↓

التدبر

↓

الإيمان

↓

الاستقامة

↓

الإصلاح

↓

العمران

أو

الإعراض

↓

التكذيب

↓

الفساد

↓

الانهيار الحضاري.

فالقرآن يرسم مسارين متقابلين ينطلقان من الموقف من المعرفة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الإعراض يسبق التكذيب

قال تعالى:

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾

ولم يقل:

"مكذبين".

وهذه ملاحظة دقيقة.

فالإعراض هو أول مراحل الانحراف.

إذ يبدأ الإنسان بإهمال الحقيقة.

ثم ينتهي إلى إنكارها.

وهذه سنة تتكرر في الأفراد والأمم.

ثانياً

سنة التدرج في الانهيار المعرفي

يبين السياق تسلسلاً واضحًا:

الإعراض

↓

التكذيب

↓

الاستهزاء

↓

العقوبة

وهذا النسق السنني يتكرر في قصص الأمم.

ولا يقع الانهيار دفعة واحدة.

ثالثاً

سنة أن كثرة الأدلة لا تكفي وحدها

القرآن يقرر أن زيادة البراهين لا تنفع من أغلق قلبه.

وهذا يعيد ترتيب العلاقة بين:

الدليل.

والاستعداد النفسي.

والأخلاق.

فالمعرفة ليست عملية عقلية مجردة.

بل يدخل فيها البعد القيمي والإرادي.

رابعاً

سنة الاعتبار بالتاريخ

تنتقل الآيات بعد ذلك إلى الأمم السابقة:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن...﴾

فالقرآن يجعل التاريخ نفسه دليلاً.

أي أن الوقائع الحضارية ليست مادة للسرد، وإنما مصدر من مصادر المعرفة السننية.

وهذه قاعدة كبرى في المشروع.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الموقف من الدليل

لا يكتفي الباحث بجمع الأدلة.

بل يدرس:

كيف يستقبلها الإنسان؟

ولماذا يقبلها أو يرفضها؟

وهذا يفتح بابًا جديدًا في تحليل الظواهر الفكرية.

ثانياً

مبدأ الاستفادة من التاريخ بوصفه مختبرًا للسنن

قصص الأمم ليست مجرد تاريخ.

بل تجارب اجتماعية متكررة.

ومن ثم فإن التاريخ في القرآن يؤدي وظيفة تفسيرية.

ثالثاً

مبدأ التمييز بين نقص المعرفة وفساد المنهج

كثير من الانحرافات لا ترجع إلى قلة المعلومات.

بل إلى فساد طريقة التفكير.

وهذا من أهم المبادئ المنهجية التي تؤسسها سورة الأنعام.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الآية

وأرى أن لفظ الآية يحتاج إلى دراسة موسعة.

فالقرآن يستعمله استعمالًا بالغ الاتساع.

فالآية قد تكون:

- آية كونية.
- وآية قرآنية.
- وآية تاريخية.
- وآية اجتماعية.
- وآية نفسية.

ومن ثم فإن الآية في القرآن ليست مجرد علامة.

بل وحدة دلالية تقود إلى معرفة الله وسننه.

الإعراض

الإعراض ليس مجرد عدم العلم.

بل موقف إرادي.

ولذلك يختلف عن الجهل.

وقد يكون من المفاهيم الأساسية في تفسير الانحراف الحضاري.

القرن

ويحتاج إلى استقراء قرآني؛ إذ يبدو أن القرآن يستعمله للدلالة على وحدة تاريخية اجتماعية، لا مجرد مدة زمنية، مما قد يفيد في دراسة دورات العمران.

سادساً

التطبيقات الحضارية

في عصر تدفق المعلومات، لم تعد أزمة المجتمعات هي نقص البيانات، وإنما ضعف القدرة على التمييز، والإعراض عن الحقائق غير الموافقة للأهواء، وانتقاء المعلومات بصورة انتقائية. ويقدم القرآن تفسيرًا أعمق لهذه الظاهرة؛ إذ يبين أن أزمة المعرفة تبدأ حين تتحول العلاقة مع الدليل من البحث عن الحقيقة إلى البحث عما يوافق الرغبات. ومن هنا فإن إصلاح المعرفة لا يكون بزيادة المعلومات وحدها، بل ببناء أخلاقيات البحث، والتجرد، والإنصاف.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع، ظهر لي استنباط أراه من أهم ما كشفته سورة الأنعام حتى الآن.

لقد لاحظنا أن القرآن لا يتعامل مع المعرفة بوصفها مجرد تراكم للمعلومات، وإنما بوصفها علاقة أخلاقية بين الإنسان والحقيقة.

فقد يكون الدليل حاضرًا، والعقل قادرًا على إدراكه، ولكن فساد الإرادة أو الهوى يمنعان من الانتفاع به.

ومن هنا أرى فرضية منهجية جديدة للمشروع، وهي:

أن المعرفة في القرآن تقوم على ثلاثة أركان متلازمة: الدليل، والقابلية، والاستجابة.

فالدليل وحده لا يكفي.

والقابلية وحدها لا تهدي.

والاستجابة وحدها لا تصح دون دليل.

ولا يكتمل البناء المعرفي إلا باجتماع هذه الأركان الثلاثة.

وأرى أن هذه الفرضية – إن أكدها الاستقراء في بقية السور – قد تمثل أحد الفروق الجوهرية بين النظام المعرفي القرآني وبعض النماذج الإبستمولوجية الحديثة التي ركزت على أدوات المعرفة، وأغفلت أثر الأخلاق والإرادة في تكوينها وتوجيهها.

ملاحظة منهجية للمشروع

بدأ يتضح لنا في سورة الأنعام أن القرآن لا يؤسس فقط نظرية في المعرفة، بل يؤسس أيضًا نظرية في الانحراف المعرفي. وهذا جانب لم يحظ – فيما أعلم – بالعناية الكافية في الدراسات القرآنية؛ إذ إن فهم أسباب فساد المعرفة لا يقل أهمية عن فهم كيفية إنتاجها. وقد يكون من المناسب في نهاية المشروع تخصيص فصل مستقل بعنوان:

"نظرية المعرفة ونظرية الانحراف المعرفي في القرآن الكريم"

لأن الاستقراء الذي نقوم به بدأ يكشف أن القرآن يعالج المعرفة الصحيحة والانحراف عنها ضمن نسق واحد متكامل، وهو ما ينسجم مع الرؤية الكلية للمشروع المعرفي القرآني.

وأرى أننا الآن نصل إلى واحد من أهم المقاطع في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾ (الأنعام: ١٩)

في تقديري أن هذه الآية تمثل النص المؤسس لمرجعية القرآن نفسه داخل النظام المعرفي القرآني. فإذا كانت الآيات السابقة قد حررت مرجعية الخالق، فإن هذه الآية تنتقل إلى بيان أداة الهداية المعرفية التي تتجسد في القرآن.

وأحسب أننا هنا أمام انتقال دقيق من مرجعية المُرسِل إلى مرجعية الرسالة.

سورة الأنعام

الوحدة الرابعة

القرآن

المرجع المؤسس للنظام المعرفي

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآية أن القرآن لا يقدم نفسه كتاب مواعظ فحسب.

ولا كتاب شعائر.

ولا كتاب تاريخ.

بل يقدم نفسه:

مرجعًا للهداية.

ولهذا ربطت الآية بين:

- شهادة الله.
- والوحي.
- والإنذار.

فالقرآن ليس نصًا منفصلًا عن مرجعيته.

بل هو الامتداد المعرفي لهداية الله في حياة الإنسان.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الله

↓

الوحي

↓

القرآن

↓

الهداية

↓

الرؤية

↓

العمل

↓

العمران.

وهذا النسق يؤكد أن العمران في القرآن لا يبدأ بالمؤسسات.

بل يبدأ بالهداية.

وهو ما بدأ معنا منذ الفاتحة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الوحي هو الضابط الأعلى للمعرفة

قال تعالى:

﴿وأوحي إلي هذا القرآن﴾

فالقرآن يجعل الوحي المرجع الذي تضبط به بقية المعارف.

وهذا لا يعني إلغاء العقل.

ولا الخبرة.

ولا التجربة.

بل توجيهها داخل رؤية كلية.

ثانياً

سنة عالمية الخطاب

قال تعالى:

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾

وهذه من الآيات المؤسسة لعالمية المشروع القرآني.

فالقرآن لا يخاطب جيلاً بعينه.

ولا أمة بعينها.

بل كل من يبلغه.

ومن هنا فإن النظام المعرفي القرآني ذو قابلية حضارية ممتدة عبر الزمان والمكان.

ثالثاً

سنة استمرار الحجة

لم ترتبط الحجة بوجود النبي ﷺ جسدًا.

بل ببلوغ القرآن.

وهذا يجعل القرآن مرجعًا دائمًا ومتجددًا.

رابعاً

سنة ارتباط البلاغ بالمسؤولية

كلما بلغ الإنسان من الوحي قدرًا.

ازدادت مسؤوليته في فهمه والعمل به.

فالبلاغ ليس امتيازًا.

بل تكليف.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ مركزية النص في إنتاج المعرفة

النظام المعرفي القرآني لا يجعل النص شاهدًا ثانويًا.

بل يجعله الأصل الذي تنتظم حوله بقية مصادر المعرفة.

ثانياً

مبدأ عالمية المفهوم

الألفاظ القرآنية غالبًا ما تأتي بصياغات تسمح بامتداد دلالتها عبر الأزمنة.

ومن هنا فإن تحليل المضمون ينبغي أن يبحث عن البنية الكلية للمفهوم، لا عن ظرف نزوله فقط.

ثالثاً

مبدأ تلازم المعرفة والبلاغ

فالمعرفة في القرآن ليست ترفًا ذهنيًا.

بل رسالة.

ولهذا لا ينفصل العلم عن البلاغ.

ولا البلاغ عن الإصلاح.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الوحي

وأحسب أن الوحي سيكون من أعمدة المشروع.

لكن ينبغي ألا يقتصر تعريفه على كونه وسيلة لنقل الأحكام.

بل هو:

المنظومة الإلهية التي تؤسس الرؤية، وتوجه المعرفة، وتهدي حركة الإنسان والعمران.

البلاغ

البلاغ في القرآن ليس مجرد إيصال المعلومة.

بل إقامة الحجة.

وتمكين الإنسان من الاختيار الواعي.

الشهادة

في هذه الآية تتجاوز الشهادة معناها القضائي.

لتصبح:

مرجعية معرفية تؤسس اليقين.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعيش الإنسانية اليوم حالة من تعدد المرجعيات وتضارب مصادر المعرفة، حتى أصبح الإنسان يتلقى تصوره عن نفسه والعالم من وسائل متباينة قد تتناقض في منطلقاتها. ويقدم القرآن نموذجًا مختلفًا، يجعل الوحي مرجعًا حاكمًا، ثم يفتح المجال للعقل والبحث والخبرة للعمل في ضوء هذه المرجعية، وبذلك تتحقق وحدة الرؤية دون إلغاء الاجتهاد.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآية ظهر لي استنباط أراه من أهم ما كشفته سورة الأنعام.

لقد لاحظنا أن القرآن لا يصف نفسه بأنه مصدر للهداية فقط، وإنما بأنه الوسيط المرجعي الذي تنتقل من خلاله الهداية إلى الواقع الإنساني.

ومن هنا أرى التمييز بين ثلاثة مستويات في النظام المعرفي القرآني:

1. المرجعية العليا: الله سبحانه وتعالى، وهو مصدر الحق المطلق.
2. المرجعية البيانية: القرآن الكريم، الذي يبين هذا الحق ويهدي إليه.
3. المرجعية الاجتهادية: فعل الإنسان في الفهم والتنزيل والاستنباط في ضوء الوحي.

وأرى أن هذا التمييز مهم؛ لأنه يزيل الخلط بين الوحي المعصوم والاجتهاد البشري، ويجعل مساحة التطور العلمي والاجتهادي واسعة، مع بقاء المرجعية النهائية للقرآن.

استدراك منهجي أراه مهمًا للمشروع

وأثناء تقدمنا في سورة الأنعام بدأ يتكون لدي انطباع يحتاج إلى اختبار مستمر، وهو أن السورة لا تؤسس فقط لمرجعية التوحيد، بل تبني هرم المرجعيات في النظام المعرفي القرآني.

فيمكن أن يكون البناء الهرمي – بوصفه فرضية استقرائية – على النحو الآتي:

- الله: مصدر الحقيقة المطلقة.
- الوحي: البيان المعصوم للحقيقة.
- الكون: مجال الشهادة على الحقيقة وآياتها.
- العقل: أداة الفهم والاستنباط.
- الواقع والتاريخ: ميدان تنزيل السنن واختبارها.

فإذا أكد الاستقراء هذا البناء في بقية السورة، فإننا نكون قد وصلنا إلى تصور متكامل لما يمكن أن يسمى:

"هرم المرجعيات في النظام المعرفي القرآني".

وأرى أن هذا قد يكون أحد الإسهامات النظرية الكبرى للمشروع؛ لأنه لا يكتفي بتحديد مصادر المعرفة، بل يبين العلاقة الوظيفية والتراتبية بينها، ويزيل كثيرًا من الإشكالات التي نشأت عن الفصل بين الوحي والعقل، أو عن جعل أحدهما بديلًا عن الآخر، بينما يقدم القرآن نموذجًا تكامليًا تتحدد فيه وظيفة كل مرجعية داخل نسق معرفي واحد متماسك.

وأحسب أننا الآن نصل إلى أحد أعظم المقاطع المنهجية في سورة الأنعام، وهو حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه (الأنعام: ٧٤–٨٣).

وفي تقديري أن هذا المقطع لا يمثل مجرد قصة في التوحيد، وإنما يقدم المنهج القرآني في بناء اليقين. بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأرى أنه يمثل المنهج البحثي القرآني في الانتقال من الفرضية إلى النتيجة.

وهذا – في رأيي – من أهم المقاطع التي ينبغي أن تُبنى عليها فلسفة البحث العلمي في المشروع المعرفي القرآني.

سورة الأنعام

الوحدة الخامسة

منهج إبراهيم عليه السلام

النموذج القرآني لبناء اليقين وإنتاج المعرفة

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (الأنعام: ٧٤–٨٣)

أولاً

الفكرة المركزية

يكشف هذا المقطع أن القرآن لا يكتفي بعرض النتيجة العقدية.

بل يعرض كيفية الوصول إليها.

وهذا أمر بالغ الدلالة.

فالقرآن يريد للإنسان أن يتعلم:

كيف يفكر.

قبل أن يخبره:

بماذا يعتقد.

ولهذا عرض رحلة إبراهيم العقلية خطوة خطوة.

ومن هنا فإن هذا المقطع يؤسس لمنهج التفكير، وليس لمضمون التفكير فقط.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الفطرة

↓

التساؤل

↓

الملاحظة

↓

الاختبار

↓

النقد

↓

اليقين

↓

الهداية

↓

القيادة الحضارية.

ويكشف هذا النسق أن اليقين في القرآن لا يُبنى على التقليد، وإنما على تفاعل الفطرة مع الوحي وآيات الكون.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن إصلاح العمران يبدأ بتحرير العقل من المرجعيات الموروثة

بدأ إبراهيم بقوله:

﴿أتتخذ أصنامًا آلهة﴾

ثم واجه التقليد الأسري والاجتماعي.

فالقرآن يبين أن أول عقبات النهضة ليست نقص الموارد، بل الاستسلام للمرجعيات غير الممحصة.

ثانياً

سنة الانتقال من المشاهدة إلى الاستدلال

نظر إبراهيم إلى:

- الكوكب.
- ثم القمر.
- ثم الشمس.

لكن نظره لم يكن نظرًا بصريًا مجردًا.

بل كان نظرًا استدلاليًا.

فالكون في القرآن لا يُقرأ للإعجاب به فقط.

بل لاستخراج دلالاته.

وهذه من أهم السنن المعرفية.

ثالثاً

سنة نقد الفرضيات

قوله:

﴿هذا ربي﴾

ليس تقريرًا للعقيدة.

بل عرض لفرضية يجري اختبارها.

فلما ظهر قصورها.

رفضها.

وهنا يقدم القرآن نموذجًا راقيًا في اختبار الفرضيات.

فلا يتمسك الباحث بالفرضية إذا ناقضها الدليل.

رابعاً

سنة أن اليقين ثمرة مسار معرفي

لم يبدأ إبراهيم بإعلان النتيجة.

بل انتهى إليها بعد رحلة من التأمل والنقد.

وهذا يدل على أن اليقين في القرآن ليس نقيض التفكير.

بل ثمرة التفكير المنضبط.

خامساً

سنة تكامل الوحي والعقل والكون

يختم الله هذا المقطع بقوله:

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾

فالنتيجة ليست ثمرة العقل وحده.

ولا الوحي وحده.

بل ثمرة تكامل:

- الفطرة.
- والعقل.
- والكون.
- والوحي.

وهذا من أجمل صور التكامل المعرفي في القرآن.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ بناء المعرفة عبر الاختبار

يعلمنا القرآن أن الباحث لا يقفز إلى النتائج، بل يختبر الفرضيات ويزنها بالدليل.

وهذا يقارب في جوهره المنهج العلمي، مع اختلاف المرجعية والغاية.

ثانياً

مبدأ تحرير البحث من سلطة التقليد

لم يمنع انتساب الأصنام إلى الآباء إبراهيم من نقدها.

ومن ثم فإن الباحث في المشروع القرآني مطالب بتحرير نفسه من سلطان المألوف، دون أن يفقد احترامه للتراث، فيميز بين الاحتفاء بالتراث والاحتكام إليه دون تمحيص.

ثالثاً

مبدأ الاستدلال متعدد المصادر

يجمع القرآن هنا بين:

- الدليل العقلي.
- والدليل الكوني.
- والهداية الإلهية.

وهذا يؤكد مرة أخرى أن المعرفة في القرآن ذات بنية تكاملية.

رابعاً

مبدأ التدرج في بناء اليقين

لا يفرض القرآن الحقيقة فرضًا.

بل يبنيها في عقل الإنسان مرحلة بعد مرحلة.

وهذا أصل مهم في التربية والتعليم والدعوة والبحث العلمي.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الحجة

أحسب أن الحجة ستكون من المفاهيم الكبرى في المشروع.

وليست مجرد برهان منطقي.

بل هي:

الدليل الذي يجتمع فيه صدق المرجعية، وصحة الاستدلال، وسلامة المقصد، حتى يقود إلى اليقين والعمل.

الفطرة

ولا ينبغي أن تُدرس باعتبارها استعدادًا دينيًا فقط.

بل باعتبارها البنية الأصلية التي تؤهل الإنسان لاستقبال الحق.

النظر

النظر في القرآن ليس الرؤية البصرية.

بل عملية معرفية تشمل:

- التأمل.
- والاستدلال.
- والمقارنة.
- وإصدار الحكم.

سادساً

التطبيقات الحضارية

يعاني كثير من التعليم المعاصر من الفصل بين الحفظ والتفكير، أو بين الإيمان والعقل. أما هذا المقطع فيقدم نموذجًا تربويًا متكاملًا، يجعل التساؤل المشروع، واختبار الفرضيات، والنظر في الكون، والاحتكام إلى الدليل، مراحل طبيعية في بناء اليقين. ومن ثم فإنه يقدم أساسًا قرآنيًا لتجديد مناهج التعليم والبحث العلمي، بحيث تُنمَّى القدرة على التفكير المنضبط، لا مجرد تلقي النتائج.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم ما توصلنا إليه منذ بداية المشروع.

لقد كنا نتحدث عن النظام المعرفي القرآني، لكن هذه الآيات تكشف أن القرآن لا يقدم المعرفة في صورتها النهائية فقط، وإنما يقدم أيضًا منهج إنتاج المعرفة.

وهذا يقتضي – في تقديري – التمييز بين مستويين في القرآن:

1. المعرفة القرآنية: وهي الحقائق التي يقررها القرآن.

2. المنهج المعرفي القرآني: وهو الطريقة التي يبني بها القرآن تلك الحقائق في عقل الإنسان.

وهذا تمييز بالغ الأهمية؛ لأن كثيرًا من الدراسات انشغلت بمضامين القرآن، بينما لم تُعطِ العناية الكافية للكيفية التي يصنع بها القرآن العقل الباحث.

استنباط قد يكون من أبرز نتائج المشروع

وأود هنا أن أرى فرضية تحتاج إلى استقراء جميع قصص الأنبياء، وهي:

أن قصص الأنبياء في القرآن ليست وظيفتها الأساسية السرد التاريخي، وإنما عرض النماذج المنهجية لإنتاج المعرفة، وبناء الشخصية، وإدارة التغيير الحضاري.

فإبراهيم هنا لا يمثل شخصية تاريخية فحسب، بل يمثل النموذج القرآني للباحث.

ونوح يمثل النموذج القرآني للصبر الاستراتيجي.

ويوسف يمثل النموذج القرآني للإدارة والتمكين.

وموسى يمثل النموذج القرآني لقيادة التغيير ومواجهة الاستبداد.

فإذا ثبت هذا بالاستقراء في بقية السور، فإننا نكون أمام تحول كبير في قراءة القصص القرآني؛ إذ لن يكون مجرد مادة وعظية أو تاريخية، بل مختبرًا قرآنيًا للنماذج المنهجية والحضارية، وهو ما ينسجم بصورة عميقة مع مشروع تحليل المضمون القرآني في ضوء النظام المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني.

وأرى أننا بعد منهج إبراهيم عليه السلام نصل إلى محور أراه قلب سورة الأنعام، وهو الآيات (٩٥-١٠٣)، وعلى رأسها قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى...﴾

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ...﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ...﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾

وفي تقديري أن هذا المقطع يمثل المنهج القرآني في قراءة الكون، بل لعله أول نص قرآني متكامل يؤسس لما يمكن أن نسميه العقل السنني.

فالقرآن هنا لا يطلب من الإنسان مجرد التأمل، وإنما يدربه على اكتشاف النظام الذي يحكم الكون.

وأحسب أن هذه الوحدة ستكون من أهم الوحدات في المشروع؛ لأنها تربط مباشرة بين الوحي والعمران عبر السنن الكونية.

سورة الأنعام

الوحدة السادسة

قراءة الكون

السنن الكونية أساس بناء العقل العمراني

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن القرآن لا يعرض الكون بوصفه مشاهد جمالية فحسب.

ولا بوصفه أدلة عقدية مجردة.

بل يعرضه بوصفه:

كتابًا مفتوحًا للمعرفة.

فالكون في القرآن ليس موضوعًا للإعجاب.

بل موضوعًا للفهم.

ولذلك تتكرر الأفعال:

- فالق.
- جعل.
- أنشأ.
- أنزل.
- أخرج.
- قدّر.

وهذه كلها أفعال تكشف عن:

النظام.

والقانون.

والسنن.

وليس عن أحداث عشوائية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الخلق

↓

النظام

↓

السنن

↓

الاكتشاف

↓

التسخير

↓

العمران

↓

تحقيق الاستخلاف.

وهذا النسق من أهم ما ظهر لنا حتى الآن؛ لأنه يربط بين التأمل في الكون وبين وظيفة الإنسان العمرانية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة النظام الكوني

لا تعرض الآيات ظواهر متفرقة.

بل تعرض شبكة مترابطة:

- النبات.
- والليل.
- والنهار.

- والنجوم.
- والمطر.
- والثمار.
- والإنسان.

وهذا يدل على أن الكون يعمل وفق نظام متكامل.

وهذه أول قاعدة في التفكير السنني.

ثانياً

سنة التنوع داخل الوحدة

تقول الآيات:

﴿مشتبهًا وغير متشابه﴾

فالقرآن يلفت النظر إلى أن وحدة الأصل لا تمنع تنوع الصور.

وهذه سنة كبرى.

وتتكرر بعد ذلك:

في الإنسان.

وفي المجتمعات.

وفي الحضارات.

بل ربما تكون مفتاحًا لفهم كثير من السنن الاجتماعية.

ثالثاً

سنة التدرج في البناء

انظر إلى ترتيب الآيات:

الحبة.

↓

النبات.

↓

الخضرة.

↓

الحب.

↓
الثمرة.
↓
النضج.
فالقرآن يعلم الإنسان أن التكوين يتم عبر مراحل.
ولا توجد قفزات في السنن.
وهذه سنة عمرانية عظيمة.
فالمجتمعات كذلك.
والعلوم كذلك.
والحضارات كذلك.
رابعاً
سنة التكامل بين الأسباب والغاية
تعرض الآيات الأسباب الطبيعية.
لكنها لا تجعلها مستقلة عن إرادة الله.
وهذا يزيل التعارض المصطنع بين:
الإيمان بالسنن.
والإيمان بالله.
فالسنن ليست بديلًا عن الخالق.
بل هي طريق التعرف إلى حكمته.
خامساً
سنة قابلية الكون للاكتشاف
قال تعالى:
﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾
لاحظ أنه لم يقل:
آمنوا فقط.
بل قال:

انظروا

وهذا يدل على أن الملاحظة العلمية جزء من المنهج القرآني.

لكنها ليست نهاية الطريق.

بل بدايته.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ الانتقال من الوصف إلى القانون

القرآن لا يريد من الباحث أن يصف الظاهرة فقط.

بل أن يبحث عن النظام الذي يحكمها.

وهذا هو جوهر التفكير السنني.

ثانياً

مبدأ استقراء الأنماط

يعرض القرآن عشرات الظواهر.

لكنها جميعًا تشير إلى أن وراءها قوانين عامة.

ومن هنا فإن الاستقراء يصبح أداة منهجية أساسية.

ثالثاً

مبدأ وحدة السنن

رغم اختلاف الظواهر.

فإن السنن الحاكمة لها متشابهة.

ومن هنا يمكن الانتقال من دراسة الكون إلى دراسة المجتمع.

وهذا انتقال بالغ الأهمية في مشروعنا.

رابعاً

مبدأ القراءة التكاملية

الكون لا يقرأ منفصلًا عن الوحي.

والوحي لا يعطل قراءة الكون.

بل كل منهما يفسر الآخر.
وهذا يعيد التأكيد على أحد أعمدة المشروع المعرفي.
خامساً
المفاهيم المؤسسة
الفلق
وأرى أن الفلق ليس مجرد انشقاق.
بل مبدأ قرآني في نشوء الحياة.
فكل ميلاد جديد يبدأ بفلق.
فلق الحب.
وفلق الإصباح.
وربما يدل استقراء القرآن على أن الفلق سنة من سنن التجدد والإحياء.
الإنشاء
الإنشاء في القرآن يبدو أوسع من الخلق.
إذ يشير إلى البناء والتكوين والتدرج.
ويحتاج إلى دراسة مستقلة.
النظر
يتأكد هنا ما لاحظناه في قصة إبراهيم.
فالنظر في القرآن عملية علمية واعية.
وليس رؤية عابرة.
سادساً
التطبيقات الحضارية
يعاني كثير من الفكر المعاصر من الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، بينما تكشف هذه الآيات أن السنن التي تضبط الكون تعلم الإنسان كيف يفكر في المجتمع أيضًا. فالتدرج، والنظام، والترابط، والتنوع، كلها مبادئ مشتركة. ومن هنا يمكن أن يؤسس المشروع المعرفي القرآني لرؤية تكاملية تجعل دراسة الكون رافدًا لتجديد مناهج العلوم الإنسانية، لا مجالًا منفصلًا عنها.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم ما كشفته سورة الأنعام.

لقد لاحظنا أن القرآن لا يستدل بالكون لإثبات وجود الله فقط.

بل يدرب العقل على طريقة التفكير.

فالإنسان عندما يتأمل:

- النظام.
- والتكرار.
- والتدرج.
- والتنوع.
- والاتزان.

فإنه يكتسب منهجًا في التفكير يمكن أن ينقله بعد ذلك إلى دراسة الإنسان والمجتمع.

ومن هنا أن نضع فرضية جديدة:

القرآن لا يجعل الكون موضوعًا للمعرفة فقط، بل يجعله مدرسةً لتكوين العقل المنهجي.

وهذه الفرضية – إن ثبتت باستقراء بقية القرآن – سيكون لها أثر بالغ في فلسفة البحث العلمي؛ لأنها تجعل دراسة الكون جزءًا من تربية العقل، لا مجرد جمع للحقائق العلمية.

استنباط تأسيسي جديد للمشروع

وأود أن أطرح هنا فكرة أراها من أهم ما بدأ يتشكل في هذا المشروع كله.

لقد اعتدنا أن نقول إن القرآن يدعو إلى التفكر.

لكن الاستقراء الذي قمنا به حتى الآن يشير إلى أن القرآن يدعو إلى ما هو أعمق، وهو: اكتشاف النسق.

فالقرآن لا يطلب من الإنسان أن يتأمل الظواهر منفصلة، وإنما أن يكتشف العلاقات التي تربط بينها، والقوانين التي تحكمها، والمقاصد التي تنتظمها.

وهذا يقود إلى فرضية مركزية للمشروع:

أن "النسقية" ليست مجرد أداة تحليل وضعها الباحث، بل هي طريقة القرآن نفسه في عرض المعرفة.

فإذا ثبت هذا بالاستقراء، فإن النسق العمراني الاستخلافي السنني لن يكون إطارًا مفروضًا على القرآن من الخارج، بل سيكون مستنبطًا من منهج القرآن في بناء المعرفة وعرضها. وأرى أن هذا سيمنح المشروع قوة إبستمولوجية كبيرة؛ لأنه يجعل النسق نفسه اكتشافًا قرآنيًا، لا مجرد اختيار منهجي من الباحث.

. وأرى أننا الآن نصل إلى القسم الذي أعتبره الذروة المنهجية في سورة الأنعام، وهو الآيات (١٥١-١٥٣)، والتي اصطلح العلماء على تسميتها بـ الوصايا العشر، وإن كان هذا الاسم يحتاج إلى مراجعة؛ لأن القرآن لم يسمها بذلك، وإنما هي في تقديري:

الميثاق العمراني القرآني.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك، وأرى أن هذه الآيات تمثل أول وثيقة تأسيسية للنظام الاجتماعي القرآني بعد أن انتهت السورة من بناء المرجعية المعرفية.

فلاحظ التدرج الذي كشفه لنا التحليل حتى الآن:

- الفاتحة: تأسيس الرؤية الكلية.
- البقرة: تأسيس الأمة.
- آل عمران: تأسيس القيادة والرسالة.
- النساء: تأسيس المجتمع.
- المائدة: تأسيس الحوكمة.
- الأنعام: تأسيس المرجعية المعرفية.
- ثم تختم الأنعام بـ الميثاق العمراني الذي يحكم حركة المجتمع.

وهذا التدرج – في تقديري – ليس عفوياً، بل يمثل بنية النظام المعرفي القرآني.

سورة الأنعام

الوحدة السابعة

الميثاق العمراني

القواعد المؤسسة للمجتمع الاستخلافي

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

هذه الآيات ليست مجموعة أوامر متفرقة.

بل بناء متكامل.

فالقرآن يرتبها بطريقة دقيقة.

فيبدأ:

بعلاقة الإنسان بالله.

ثم:

بالأسرة.

ثم:

بحماية الحياة.

ثم:

بحماية العقل.

ثم:

بحماية المال.

ثم:

بالعدل.

ثم:

بالوفاء.

ثم:

باتباع الصراط.

أي أنه يبني المجتمع من المركز إلى الأطراف.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التوحيد

↓

الأسرة

↓
حماية النفس
↓
حماية العقل
↓
العدالة الاقتصادية
↓
العدالة القضائية
↓
الوفاء المؤسسي
↓
وحدة الطريق
↓
العمران الراشد.

وهذا من أجمل الأنساق التي ظهرت لنا في المشروع كله.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن العمران يبدأ بالتوحيد

قال تعالى:

﴿ألا تشركوا به شيئًا﴾

فالقرآن يجعل إصلاح المرجعية أول خطوة في إصلاح المجتمع.

ومن ثم فإن الانهيار الحضاري يبدأ غالبًا من اضطراب المرجعية قبل أن يظهر في السلوك والمؤسسات.

ثانياً

سنة مركزية الأسرة

جاء بعد التوحيد مباشرة:

﴿وبالوالدين إحسانًا﴾

وهذا الترتيب يكشف أن الأسرة ليست مؤسسة اجتماعية ثانوية.

بل أول مؤسسة عمرانية.

ومن هنا فإن استقرارها شرط لاستقرار المجتمع.

ثالثاً

سنة قدسية الحياة الإنسانية

﴿ولا تقتلوا أولادكم...﴾

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله...﴾

الحياة في القرآن ليست ملكاً للفرد.

ولا للدولة.

ولا للمجتمع.

بل أمانة.

ولهذا أصبحت حمايتها أصلاً من أصول العمران.

رابعاً

سنة العدالة في الأموال

قال تعالى:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾

لاحظ أن القرآن لم يقتصر على تحريم الاعتداء.

بل ألزم بأفضل وسائل الرعاية.

وهذا يوسع مفهوم العدالة من منع الظلم إلى تحقيق الإحسان.

خامساً

سنة العدالة في القياس

﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾

ولا يقتصر الميزان هنا على التجارة.

بل يمكن أن يمثل مبدأ عاماً:

كل حكم.

وكل تقويم.

وكل تقييم.

ينبغي أن يقوم على القسط.

سادساً

سنة العدالة في الكلمة

﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾

وهنا يربط القرآن العدالة باللغة.

وهو مبدأ بالغ الأهمية.

فالظلم يبدأ أحياناً:

بالكلمة.

والإشاعة.

والتحيز.

والتوصيف.

قبل أن يتحول إلى سلوك.

سابعاً

سنة الوفاء بالعهود

﴿وبعهد الله أوفوا﴾

ويبدو أن الوفاء في القرآن لا يقتصر على العقود.

بل يشمل جميع الالتزامات التي يقوم عليها البناء الاجتماعي.

ثامناً

سنة وحدة الطريق الحضاري

تختم الآيات بقوله تعالى:

﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾

وهنا تعود السورة إلى ما بدأت به الفاتحة.

الصراط.

فالصراط ليس مجرد مفهوم عقدي.

بل الإطار الحضاري الجامع الذي تنتظم فيه المرجعية والقيم والمؤسسات والسلوك.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ البناء الهرمي للقيم

القيم في القرآن ليست متجاورة.

بل متدرجة.

فبعضها يؤسس لبعض.

وهذا يفتح باباً لدراسة هرمية القيم القرآنية.

ثانياً

مبدأ التكامل بين الفرد والمجتمع

جميع الوصايا تخاطب الفرد.

لكن آثارها تصنع المجتمع.

وهذا يبين أن القرآن لا يفصل بين إصلاح الفرد وإصلاح العمران.

ثالثاً

مبدأ الانتقال من المبدأ إلى المؤسسة

كل قيمة هنا يمكن أن تتحول إلى مؤسسة اجتماعية:

- الإحسان إلى الوالدين ← سياسات الأسرة.
- القسط ← منظومة العدالة.
- الوفاء ← الحوكمة.
- حفظ المال ← الاقتصاد.
- حفظ النفس ← الأمن.

وهذا يؤكد أن القيم في القرآن ليست مجرد فضائل، بل قواعد مؤسسة للعمران.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الصراط

يتأكد هنا ما انتهينا إليه في الفاتحة.

فالصراط ليس طريقاً فردياً فحسب.

بل هو النظام الحضاري الذي تنتظم فيه حركة الأمة.

القسط

ويحتاج إلى استقراء مستقل.

إذ يبدو أنه يشير إلى العدالة الموضوعية المنضبطة بالحق، لا مجرد المساواة الشكلية.

العهد

العهد في القرآن أوسع من العقد.

إنه رابطة أخلاقية وقانونية وحضارية تحفظ الثقة داخل المجتمع.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تعاني المجتمعات المعاصرة من معالجة المشكلات معالجة قطاعية؛ فتعالج الاقتصاد بمعزل عن الأسرة، أو العدالة بمعزل عن القيم، أو الحوكمة بمعزل عن المرجعية. أما هذه الآيات فتقدم نموذجاً تكاملياً، تتساند فيه المرجعية، والأسرة، والاقتصاد، والقضاء، والأخلاق، في نسق واحد. ومن هنا يمكن أن تستلهم السياسات العامة من هذا الترتيب القرآني، بحيث تُبنى على تكامل المجالات لا على تجزئتها.

الاستنباط الأكبر في سورة الأنعام

وأرى أننا وصلنا هنا إلى نتيجة قد تكون من أهم نتائج المشروع حتى الآن.

لقد بدأنا سورة الأنعام نظن أنها سورة التوحيد.

ثم تبين لنا أنها سورة تحرير المرجعية.

ثم اتضح أنها تؤسس لنظرية المعرفة القرآنية.

ثم وجدنا أنها تبني منهج إنتاج المعرفة.

ثم رأينا أنها تعلم الإنسان كيف يقرأ الكون والسنن.

وأخيراً انتهت إلى الميثاق العمراني الذي يحول تلك المرجعية إلى نظام حياة.

ومن هنا يمكن إعادة تعريف الوظيفة المعرفية لسورة الأنعام على النحو الآتي:

"سورة الأنعام هي السورة المؤسسة لمرجعية النظام المعرفي القرآني، ومنهج إنتاج المعرفة، وقراءة السنن الكونية، وصياغة الميثاق العمراني الذي تنتقل به الهداية من مستوى التصور إلى مستوى البناء الحضاري."

وأحسب أن هذا التعريف أصبح أدق مما أربناه في بداية السورة؛ لأنه لم يعد مبنياً على فرضية أولية، بل على استقراء متدرج لمضامينها. كما أنه ينسجم مع المسار العام الذي بدأ يتكشف في المشروع، حيث تتكامل السور في بناء الرؤية، والمرجعية، والإنسان، والمجتمع، والعمران ضمن نسق قرآني واحد.

. وبعد أن انتهت سورة الأنعام بهذا الميثاق العمراني، فإن المنهج الذي اتفقنا عليه يقتضي أن نختم السورة أولاً، ثم نربطها بالسورة التالية كما فعلنا بين الفاتحة والبقرة، وبين المائدة والأنعام. وأحسب أن هذه الخاتمة من أهم ما في المشروع؛ لأنها لا تلخص السورة فحسب، وإنما تحدد مكانها داخل النظام المعرفي القرآني.

خاتمة سورة الأنعام

بعد استقراء مضامين سورة الأنعام في ضوء النظام المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني، يتبين أن هذه السورة تمثل مرحلة مفصلية في البناء المعرفي للقرآن الكريم. فهي لا تقتصر على تقرير عقيدة التوحيد أو محاجة المشركين، وإنما تؤسس للإطار المرجعي الذي تنتظم في ضوئه جميع عمليات المعرفة، وبناء القيم، والتشريع، والعمران.

لقد كشفت السورة أن أزمة الإنسان الأولى ليست أزمة نقص في الأدلة، وإنما أزمة اضطراب في المرجعية، وإعراض عن الآيات، واختلال في منهج النظر والاستدلال. ولذلك بدأت بتحرير المرجعية من كل شريك أو وسيط، ثم انتقلت إلى بناء منهج المعرفة من خلال الربط بين الوحي والكون والعقل والفطرة والتاريخ، وقدمت في قصة إبراهيم عليه السلام نموذجًا قرآنيًا فريدًا لبناء اليقين عبر الملاحظة، واختبار الفرضيات، ونقدها، حتى الوصول إلى الحقيقة.

كما بينت السورة أن الكون ليس مجرد مخلوقات متفرقة، وإنما منظومة من السنن والأنظمة التي تدعو الإنسان إلى اكتشاف القوانين الحاكمة للوجود، وأن هذا الاكتشاف يمثل جزءًا من وظيفة الاستخلاف، لا نشاطًا معرفيًا منفصلًا عن الإيمان.

ثم ختمت السورة بما يمكن أن نسميه الميثاق العمراني القرآني، حيث انتقلت من تأسيس المرجعية إلى تأسيس القواعد الكلية التي يقوم عليها المجتمع الراشد، ابتداءً من التوحيد، ومرورًا

بالأسرة، والعدالة، وحفظ النفس والمال، وانتهاءً بالصراط المستقيم الذي يجمع هذه المبادئ في نسق حضاري واحد.

ومن ثم فإننا نحسب أن الوظيفة المعرفية لسورة الأنعام تتمثل في:

تحرير المرجعية المعرفية، وبناء منهج إنتاج المعرفة، وتأسيس العقل السنني القادر على قراءة الوحي والكون والتاريخ، وصولًا إلى الميثاق العمراني الذي تنتظم به حركة المجتمع الاستخلافي.

وبذلك تكتمل في سورة الأنعام الحلقة المرجعية للنظام المعرفي القرآني، تمهيدًا للانتقال إلى مرحلة جديدة يعرض فيها القرآن نتائج هذه المرجعية في الواقع الإنساني، من خلال نماذج الصراع بين الحق والباطل، والهداية والضلال، والإصلاح والفساد.

العلاقة النسقية بين سورة الأنعام وسورة الأعراف

إذا كانت سورة الأنعام قد أجابت عن سؤال:

من أين تستمد المعرفة مشروعيتها؟

فإن سورة الأعراف تنتقل للإجابة عن سؤال آخر أكثر اتصالًا بالواقع الإنساني:

كيف تتفاعل هذه المرجعية مع الإنسان عبر التاريخ؟

فالأنعام بنت المرجعية.

أما الأعراف فتعرض حركة الإنسان تجاه هذه المرجعية.

ولهذا تكثر في سورة الأعراف قصص الأنبياء والأمم، ولكنها ليست لمجرد السرد التاريخي، وإنما لعرض السنن التي تحكم الاستجابة للوحي أو الإعراض عنه.

ومن هنا فإن العلاقة بين السورتين علاقة تكاملية دقيقة:

- الأنعام تؤسس المرجعية.
- الأعراف تختبر هذه المرجعية في الواقع التاريخي.

أو بلغة المشروع:

- الأنعام تؤسس نظرية المعرفة.
- الأعراف تؤسس نظرية الحركة التاريخية.

فالقرآن بعد أن بيّن مصدر الحق، ينتقل الآن إلى بيان كيف تتحرك المجتمعات عندما تستجيب لهذا الحق أو ترفضه، وما السنن التي تحكم صعودها وسقوطها.

سورة الأعراف

المدخل العام

في ضوء المشروع المعرفي القرآني والنسق العمراني الاستخلافي السنني

اشتهرت سورة الأعراف بأنها سورة القصص، لكثرة ما ورد فيها من أخبار الأنبياء والأمم السابقة، غير أن الاستقراء في ضوء المشروع المعرفي القرآني يكشف أن هذه القصص ليست موضوع السورة، وإنما وسيلتها المنهجية.

فالغاية ليست رواية التاريخ، وإنما استخراج السنن الحاكمة للتاريخ.

ولهذا نجد أن السورة تعرض سلسلة متتابعة من الرسل: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ثم موسى عليهم السلام، لا لبيان خصوصية كل قصة، وإنما للكشف عن البنية المتكررة في العلاقة بين الوحي والمجتمع.

إن ما يتكرر ليس الأشخاص، وإنما السنن.

ويتكرر فيها:

- إرسال الرسول.
- إقامة الحجة.
- انقسام المجتمع.
- موقف المستكبرين.
- موقف المستضعفين.
- الصراع بين الحق والباطل.
- عواقب الاستجابة أو الإعراض.

وهذا التكرار ليس تكرارًا أدبيًا، بل هو منهج قرآني لاستخراج السنن التاريخية.

ومن ثم فإننا نحسب أن الوظيفة المعرفية لسورة الأعراف هي:

تأسيس علم السنن التاريخية والاجتماعية من خلال عرض النماذج القرآنية المتكررة في حركة الأمم، والكشف عن القوانين التي تحكم نشأة المجتمعات وصراعها وتحولاتها ومآلاتها.

ملاحظة منهجية أرى أنها قد تكون من أهم نتائج المشروع

وأثناء انتقالنا من الأنعام إلى الأعراف ظهر لي أن ترتيب السور يكشف عن تدرج معرفي متماسك يمكن صياغته – بوصفه فرضية علمية تحتاج إلى استكمال الاستقراء – على النحو الآتي:

- الفاتحة: تأسيس الرؤية الكلية.
- البقرة: بناء الأمة.
- آل عمران: بناء القيادة والرسالة.
- النساء: بناء المجتمع.
- المائدة: بناء الحوكمة.
- الأنعام: بناء المرجعية المعرفية.
- الأعراف: بناء علم السنن التاريخية.

فإذا ثبت هذا النسق باستقراء بقية السور، فإن المشروع لن يكون مجرد تحليل مضمون للسور، بل سيكون اكتشافًا لـ البنية المعرفية المتدرجة للمصحف الشريف، بحيث تمثل كل سورة حلقة في بناء النظام المعرفي القرآني، وتتولد السورة اللاحقة من السابقة في تتابع منطقي يكشف عن وحدة القرآن وتكامله، وهو ما نطمح إلى إثباته علميًا مع استمرار الاستقراء في بقية السور.

، ونواصل وفق المنهج الذي اتفقنا عليه، فنبدأ بأول وحدة في سورة الأعراف، وهي الآيات (١–١٠)، لأنها تمثل المدخل الذي تفتتح به السورة مشروعها السنني.

سورة الأعراف

الوحدة الأولى

الوحي والاستخلاف

مدخل السنن التاريخية

﴿المص ۝ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

يفتتح القرآن سورة الأعراف بإعلان حقيقة بالغة الدلالة.

فبعد أن أثبتت سورة الأنعام مرجعية الوحي، تبدأ الأعراف ببيان وظيفة هذا الوحي في حركة التاريخ.

فالقرآن هنا ليس مجرد كتاب يُتلى.

بل قوة تغيير.

ومحرك للحضارة.

ومنظم لحركة الإنسان في الأرض.

ولهذا جمعت الآيات بين أربعة عناصر:

- الكتاب.
- والإنذار.
- والاتباع.
- والتمكين في الأرض.

وهذا الترتيب ليس اعتباطياً.

بل يمثل النسق الذي تبدأ به جميع حركات الإصلاح.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الوحي

↓

الوعي

↓

الاتباع

↓

الإصلاح

↓

التمكين

↓

العمران

↓

المساءلة.

ويلاحظ أن السورة تضيف هنا بعداً جديداً.

فليست الغاية مجرد العمران.

بل العمران المسؤول.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الوحي هو نقطة بداية الإصلاح

قال تعالى:

﴿كتاب أنزل إليك﴾

فالقرآن يجعل نقطة البداية:

الوحي.

لا الأزمة.

ولا الواقع.

ولا القوة.

ولا الاقتصاد.

بل الرؤية التي يقدمها الوحي.

ثانياً

سنة أن التغيير يبدأ من الاتباع

قال تعالى:

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾

فالقرآن لا يربط النهضة بمجرد المعرفة.

بل بتحويل المعرفة إلى ممارسة.

وهذا ينسجم مع ما ظهر لنا في الأنعام من أن المعرفة لا تكتمل إلا بالاستجابة.

ثالثاً

سنة أن التمكين وظيفة استخلافية

قال تعالى:

﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾

فالتمكين في القرآن ليس امتيازاً سياسياً.

ولا تفوقاً اقتصادياً.

بل مسؤولية حضارية.

ومن هنا فإن كل تمكين منفصل عن الهداية معرض للانحراف.

رابعاً

سنة اقتران النعمة بالشكر

تختم الآيات بقوله:

﴿قليلاً ما تشكرون﴾

فتربط بين:

التمكين.

والشكر.

وهذه سنة قرآنية كبرى.

فالتمكين لا يدوم بمجرد القوة.

بل بدوام الاعتراف بالمنعم، واستعمال النعمة فيما خُلقت له.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ ربط المفاهيم في سياقها

لا يجوز دراسة:

الوحي.

أو التمكين.

أو الاتباع.

كل واحد منها منفصلاً.

فالقرآن يبني المفاهيم في شبكة مترابطة.

ثانياً

مبدأ الانتقال من المفهوم إلى السنن

التمكين ليس حدثاً.

بل سنة.

والشكر ليس خلقاً فردياً فقط.

بل قانوناً لاستمرار العمران.

ثالثاً

مبدأ دراسة الوظائف لا التعريفات

فالقرآن لا يعرف الكتاب تعريفاً نظرياً.

بل يبين وظيفته.

وكذلك التمكين.

وكذلك الاتباع.

وهذا أصل منهجي مهم في تحليل المضمون.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

التمكين

وأرى أن التمكين ينبغي أن يعاد تعريفه في ضوء المشروع.

فهو ليس مجرد السيطرة على الأرض.

بل:

تهيئة الإنسان والأمة للقيام بوظيفة الاستخلاف وفق هداية الوحي، بما يحقق الإصلاح والعمران ويؤدي إلى الشهادة على الناس.

الاتباع

الاتباع في القرآن ليس تقليداً.

بل استجابة واعية لمرجعية ثبتت حجيتها.

ولهذا يختلف عن الاتباع الأعمى الذي ذمته السورة نفسها في مواضع متعددة.

الذكرى

الذكرى ليست مجرد التذكير بما نسيه الإنسان.

بل إعادة وصل الفطرة بالحق.

ومن هنا فإن الذكرى تمثل عملية معرفية وتربوية في آن واحد.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن كثيراً من مشروعات الإصلاح الحديثة تبدأ بإعادة بناء المؤسسات أو الاقتصاد أو السياسة، بينما يقدم القرآن ترتيباً مختلفاً؛ إذ يبدأ ببناء المرجعية، ثم الوعي، ثم الاتباع، ثم يأتي التمكين نتيجةً لذلك. وهذا يدعو إلى إعادة النظر في ترتيب أولويات مشروعات الإصلاح الحضاري، بحيث لا تُفصل البنية القيمية والمعرفية عن البناء المؤسسي.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أراه مهماً في البناء الكلي للمشروع.

لقد لاحظنا منذ الفاتحة أن القرآن لا يفصل بين الهداية والعمران، ولكن هذه الآيات تكشف مرحلة وسيطة كانت بحاجة إلى إبراز، وهي الاتباع.

وبذلك يمكن صياغة النسق الاستخلافي في صورته الأكثر اكتمالاً:

الوحي ← الهداية ← الوعي ← الاتباع ← الإصلاح ← التمكين ← العمران ← الشهادة الحضارية.

وأحسب أن هذا النسق لا يفسر ترتيب المفاهيم في سورة الأعراف فحسب، بل يمكن أن يكون إطاراً عاماً لفهم حركة الرسالات جميعاً.

استنباط تأسيسي جديد

وأود أن أرى هنا فرضية تستحق أن تصبح محوراً مستقلاً في المشروع، وهي أن القرآن يفرق بين ثلاثة مستويات كثيراً ما تختلط في الأدبيات الفكرية:

1. التمكين: وهو تهيئة أسباب القدرة والقيام بوظيفة الاستخلاف.
2. العمران: وهو ثمرة استعمال هذا التمكين في إصلاح الأرض.
3. الاستخلاف: وهو الغاية والوظيفة التي تضبط اتجاه التمكين والعمران معاً.

فليس كل تمكين عمراناً، وليس كل عمران تحقيقاً للاستخلاف.

بل لا يكتمل النسق إلا إذا ظل التمكين والعمران منضبطين بالوحي والغاية الاستخلافية.

وأرى أن هذا التمييز يمكن أن يصبح أحد المفاهيم المركزية في المشروع المعرفي القرآني؛ لأنه يعيد ترتيب العلاقة بين السلطة، والتنمية، والحضارة، والرسالة، في ضوء القرآن الكريم، بعيداً عن الاختزال السياسي أو الاقتصادي لمفهوم التمكين.

. وأرى أن المقطع التالي من سورة الأعراف (الآيات ١١-٢٥) يمثل الأصل المؤسس لفهم الإنسان في القرآن، كما أن قصة إبراهيم في سورة الأنعام كانت الأصل المؤسس لفهم المنهج المعرفي.

بل أذهب إلى أن هذا المقطع ينبغي أن يحتل مكانة مركزية في مشروعنا؛ لأن معظم العلوم الإنسانية تدور حول سؤال واحد:

من هو الإنسان؟

والقرآن لا يجيب عن هذا السؤال بتعريف نظري، وإنما يجيب عنه بعرض أول تجربة إنسانية، ومنها يستخرج السنن التي ستلازم الإنسان إلى قيام الساعة.

ومن هنا فإن قصة آدم ليست قصة البداية الزمنية للبشرية فحسب، وإنما النموذج التأسيسي للطبيعة الإنسانية ومسؤولية الاستخلاف.

سورة الأعراف

الوحدة الثانية

قصة آدم

النموذج التأسيسي للإنسان الاستخلافي

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو...﴾

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن القرآن لا يبدأ دراسة الإنسان من سلوكه.

ولا من حاجاته.

ولا من غرائزه.

بل يبدأ من:

رسالته.

فالإنسان في القرآن ليس مجرد كائن حي.

ولا مجرد كائن اجتماعي.

ولا مجرد كائن عاقل.

بل هو:

كائن مستخلف.

وهذا هو التعريف الذي ينبغي أن ينطلق منه المشروع كله.

فجميع أبعاد الإنسان الأخرى تتفرع من هذه الحقيقة المركزية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الخلق

↓

التكريم

↓

التكليف

↓

الابتلاء

↓

الاختيار

↓

المسؤولية

↓

التوبة

↓

الاستخلاف

↓

العمران.

وهذا النسق يمثل . في تقديري . أول دورة كاملة لحركة الإنسان في القرآن.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن التكريم يسبق التكليف

بدأت القصة بالخلق.

ثم بالسجود.

ثم بالتكليف.

ولم يبدأ التكليف قبل التكريم.

وهذه سنة تربوية وحضارية.

فالإنسان لا ينهض إذا شعر بالإهانة.

بل إذا أدرك كرامته ومسؤوليته.

ثانياً

سنة أن الحرية شرط للاستخلاف

لم يُخلق آدم مبرمجًا على الطاعة.

بل خُلق قادرًا على الاختيار.

ولهذا كان الابتلاء ممكنًا.

ومن هنا فإن الاختيار ليس خللًا في النظام.

بل جزء من النظام.

ثالثاً

سنة أن الصراع جزء من العمران

إبليس لم ينشئ الصراع.

بل كشف عنه.

ومنذ تلك اللحظة أصبح الصراع بين الحق والباطل سنة مرافقة للتاريخ الإنساني.

غير أن القرآن لا يقدمه باعتباره غاية.

بل باعتباره ميدانًا للاختيار وتحقيق الاستخلاف.

رابعاً

سنة أن الخطأ ليس نهاية الإنسان

وقع آدم في الخطأ.

لكن النهاية لم تكن السقوط الأبدي.

بل:

التوبة.

وهذا فارق جوهري في التصور القرآني.

فالقرآن يجعل القدرة على المراجعة والتوبة جزءًا من الطبيعة الإنسانية، لا استثناءً عليها.

خامساً

سنة أن الهبوط انتقال في الوظيفة لا سقوط في الكرامة

قال تعالى:

﴿اهبطوا﴾

لكن الهبوط لم يكن إلغاءً للاستخلاف.

بل بداية لممارسته في الأرض.

فالأرض ليست عقوبة محضة.

بل ميدان الرسالة.

وهذا الفهم يغير قراءة القصة كلها.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تفسير الإنسان من خلال وظيفته

لا يعرف القرآن الإنسان من خلال خصائصه البيولوجية فقط.

بل من خلال الغاية التي خلق لها.

وهذا أصل منهجي يميز النظام المعرفي القرآني عن كثير من المدارس الوضعية.

ثانياً

مبدأ تفسير الأحداث في إطار السنن

القصة ليست حادثة تاريخية معزولة.

بل نموذج يتكرر في حياة كل إنسان وكل مجتمع.

فالوسوسة.

والاختيار.

والخطأ.

والتوبة.

والهداية.

سنن متجددة.

ثالثاً

مبدأ قراءة القصص بوصفها نماذج تأسيسية

لا ينبغي أن نتوقف عند تفاصيل القصة.

بل نستخرج منها القوانين العامة التي تحكم الوجود الإنساني.

وهذا هو جوهر تحليل المضمون في المشروع.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

التكريم

التكريم في القرآن ليس امتيازًا عرقيًا أو حضاريًا.

بل هو منح الإنسان الأهلية لحمل الأمانة والاستخلاف.

الابتلاء

الابتلاء ليس مجرد اختبار للمصائب.

بل هو البيئة الطبيعية التي تنمو فيها الإرادة الإنسانية.

الوسوسة

الوسوسة ليست حدثًا نفسيًا فقط.

بل تمثل كل محاولة لصرف الإنسان عن وظيفته الاستخلافية، سواء جاءت من الشيطان أو من النفس أو من الضغوط الاجتماعية.

التوبة

التوبة في القرآن ليست مجرد محو للذنب.

بل آلية حضارية لاستعادة مسار الاستخلاف بعد الانحراف.

وهذا المفهوم يحتاج إلى دراسة استقرائية في جميع مواضعه القرآنية.

سادساً

التطبيقات الحضارية

يترتب على هذا التصور آثار عميقة في العلوم الإنسانية؛ فإذا كان الإنسان مستخلفًا بطبيعته، فإن التربية لا تقتصر على تنمية المهارات، والسياسة لا تقتصر على إدارة المصالح، والاقتصاد لا يقتصر على تعظيم الإنتاج، بل تصبح جميعها وسائل لتمكين الإنسان من أداء رسالته في إصلاح الأرض. كما أن الاعتراف بقابلية الإنسان للخطأ مع إمكان التوبة يفتح بابًا لبناء نظم إصلاحية تقوم على التقويم والاستدراك، لا على الإقصاء الدائم.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم ما يمكن أن يقدمه المشروع إلى حقل العلوم الإنسانية.

لقد درجت كثير من النظريات على تعريف الإنسان بأنه:

- الحيوان الناطق.
- أو الحيوان العاقل.
- أو الكائن الاجتماعي.
- أو الكائن الاقتصادي.

أما القرآن فلا يبدأ بأي من هذه الأوصاف، بل يبدأ بالعهد والرسالة.

ومن هنا أرى أن يكون التعريف الإجرائي للإنسان في المشروع:

"الإنسان هو الكائن المكلَّف المكرَّم، المؤهل لتحمل مسؤولية الاستخلاف في الأرض، والمزود بالفطرة والعقل والوحي والحرية، ليعمر الأرض وفق هداية الله، مع قابليته للخطأ والتوبة والتجدد."

وأرى أن هذا التعريف أكثر شمولًا من التعريفات الاختزالية؛ لأنه يجمع الأصل، والوظيفة، والحرية، والمسؤولية، والمآل.

استنباط تأسيسي للمشروع

وأحسب أننا وصلنا هنا إلى اكتشاف منهجي مهم، وهو أن قصة آدم ليست مجرد بداية التاريخ الإنساني، وإنما هي "النموذج المرجعي للإنسان" الذي تعود إليه بقية القصص القرآنية.

فإذا كانت قصة إبراهيم في سورة الأنعام قدمت النموذج المرجعي للباحث، فإن قصة آدم في الأعراف تقدم النموذج المرجعي للإنسان المستخلف.

وبناءً على ذلك، أرى أن نعتمد في المشروع قاعدة تفسيرية عامة:

كل قصة قرآنية كبرى تؤسس "نموذجًا مرجعيًا" (Reference Model) لوظيفة إنسانية أو حضارية معينة، وليس مجرد حدث تاريخي.

فآدم يؤسس نموذج الإنسان، وإبراهيم نموذج الباحث، ونوح نموذج الثبات، ويوسف نموذج الإدارة، وموسى نموذج قيادة التغيير، وهكذا.

إذا ثبت هذا باستقراء بقية القصص، فسيكون ذلك من أبرز الإسهامات المنهجية للمشروع، لأنه ينقل دراسة القصص القرآني من مستوى السرد التاريخي إلى مستوى بناء النماذج الحضارية المرجعية التي يهتدي بها الإنسان في أداء رسالته الاستخلافية عبر العصور.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى المقطع الذي يمثل أول تطبيق تاريخي لما تأسس في قصة آدم، وهو قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ...﴾ (الأعراف: ٢٦-٥٣)

وفي تقديري أن هذا المقطع هو الحلقة المفقودة بين قصة آدم وقصص الأنبياء.

فبعد أن عرض القرآن النموذج المؤسس للإنسان، انتقل مباشرة إلى مخاطبة ذريته جميعًا.

وهنا تظهر عبقرية البناء القرآني.

فلم ينتقل مباشرة إلى قصة نوح.

بل وقف أولاً ليقرر:

ما الذي ينبغي أن يتعلمه الإنسان من قصة آدم؟

وهذا ما أغفلته كثير من القراءات التي تعاملت مع قصة آدم باعتبارها قصة مستقلة.

بينما هي في الحقيقة مقدمة للخطاب الإنساني كله.

سورة الأعراف

الوحدة الثالثة

يا بني آدم

المنهج القرآني لبناء الإنسان الحضاري

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا...﴾

إلى قوله تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ وما يتصل بها من الآيات.

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن عرض القرآن أصل الإنسان.

بدأ مباشرة في بناء شخصيته.

وليس بناء عقيدته فقط.

ولا سلوكه فقط.

بل بناء إنسانيته كلها.

ولذلك تتكرر العبارة:

﴿يا بني آدم﴾

وليس:

يا أيها المؤمنون.

ولا:

يا أيها الناس.

فالخطاب هنا يخاطب:

الإنسان بما هو إنسان.

وهذا يكشف أن المشروع القرآني يبدأ ببناء الإنسان قبل بناء الجماعة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الإنسان

↓

الكرامة

↓

الزينة

↓

التقوى

↓
الوعي
↓
الاستقامة
↓
الإصلاح
↓
العمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة التكامل بين الظاهر والباطن

قال تعالى:

﴿قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير﴾

وهنا يقرر القرآن سنة عظيمة.

فالإنسان لا يبنى بالمظهر وحده.

ولا بالباطن وحده.

بل بتكاملهما.

فاللباس يحفظ الجسد.

والتقوى تحفظ الإنسان.

ومن هنا فإن العمران الصحيح يجمع بين البناء المادي والبناء القيمي.

ثانياً

سنة أن الزينة جزء من العمران

قال تعالى:

﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾

فالزينة ليست ترفًا.

بل مظهر من مظاهر تكريم الإنسان.

ما دامت منضبطة بالهداية.

وهذا يفتح بابًا واسعًا لفهم الجمال في المشروع القرآني.

فالجمال ليس نقيض الزهد.

بل أحد أبعاد العمران.

ثالثاً

سنة الاعتدال

قال تعالى:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾

وهذه من السنن الكبرى.

فالقرآن لا يبني الحياة على الحرمان.

ولا على الانفلات.

بل على:

الاعتدال.

وأحسب أن الاعتدال سيكون من المفاهيم المركزية في النسق العمراني.

رابعاً

سنة أن الشيطان يبدأ بإفساد التصور

قال تعالى:

﴿لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾

فالقرآن يعيد الإنسان دائمًا إلى أصل الانحراف.

وهو:

فساد التصور.

قبل فساد السلوك.

ومن هنا فإن إصلاح الفكر مقدم على إصلاح كثير من المظاهر.

خامساً

سنة مسؤولية الاختيار

يتكرر في هذا المقطع الحديث عن السمع، والبصر، والقلب، والاتباع.

ليقرر أن الإنسان مسؤول عن قراراته.
ولا يستطيع أن يلقي المسؤولية كلها على البيئة أو الوراثة.
وهذا أصل مهم في النظرية القرآنية للإنسان.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ الانتقال من القصة إلى القانون
لا يترك القرآن قصة آدم في الماضي.
بل يحولها إلى قواعد عملية لكل إنسان.
وهذا من أهم خصائص المنهج القرآني.
ثانياً
مبدأ بناء الإنسان قبل المؤسسة
قبل أن يتحدث القرآن عن المجتمع.
يبني الإنسان.
وقبل أن يبني الدولة.
يبني الضمير.
وهذا ترتيب منهجي ينبغي أن يستصحبه المشروع.
ثالثاً
مبدأ التكامل بين التربية والعمران
التربية ليست مرحلة تسبق العمران فقط.
بل هي عملية مستمرة تحفظ العمران من الانهيار.
خامساً
المفاهيم المؤسسة
لباس التقوى
وأرى أن هذا من المفاهيم التي تحتاج إلى دراسة مستقلة.
فهو ليس استعارة أخلاقية فقط.

بل يمكن تعريفه بأنه:

المنظومة الداخلية من الإيمان والقيم والوعي التي تصون الإنسان من الانحراف، كما يصون اللباس الجسد من الانكشاف.

وهذا يجعله أحد المفاهيم المؤسسة لبناء الشخصية الاستخلافية.

الزينة

الزينة في القرآن ليست مظهرًا استهلاكيًا.

بل تعبير عن التكريم، والجمال، والاتزان، إذا بقيت منضبطة بميزان التقوى.

الإسراف

الإسراف ليس زيادة في الإنفاق فحسب.

بل مجاوزة الحد المشروع في أي مورد أو سلوك أو استعمال.

وبذلك يصبح مفهومًا حضاريًا عامًا، لا اقتصاديًا فقط.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن بناء الحضارة لا يبدأ بالمشروعات الكبرى فقط، بل يبدأ ببناء الإنسان المتوازن، الذي يجمع بين الجمال والأخلاق، وبين الانتفاع بالنعم وعدم الإسراف، وبين العناية بالمظهر ونقاء الباطن. وهذا يقدم أساسًا قرآنيًا لمراجعة كثير من نماذج التنمية التي ركزت على الرفاه المادي وأهملت بناء الإنسان القيمي.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه مهمًا جدًا.

لقد لاحظنا أن القرآن ينتقل من:

آدم…

إلى:

يا بني آدم.

أي أنه يحول القصة إلى منهج تربوي دائم.

ومن هنا أرى قاعدة منهجية لتحليل القصص القرآني:

كل قصة قرآنية لا تكتمل دلالتها إلا عندما تتحول إلى خطاب موجَّه للإنسان في كل زمان ومكان.

فالقصة ليست غاية.

بل وسيلة لبناء الإنسان.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أن هذا المقطع يكشف عن نسق جديد لم نكن قد صغناه من قبل، وهو أن القرآن يبني العمران وفق تدرج ثابت:

تصحيح التصور ← بناء الإنسان ← بناء الأسرة ← بناء المجتمع ← بناء الأمة ← بناء الحضارة.

وهذا النسق يتضح الآن بجلاء منذ الفاتحة حتى الأعراف.

وأرى أن نعتمده بوصفه أحد الأنساق العمرانية الكبرى في القرآن الكريم، على أن نستمر في اختباره استقرائيًا في بقية السور. فإن استمر ظهوره، فسيكون من أهم النتائج التأسيسية للمشروع، لأنه يبين أن القرآن لا يعالج الحضارة من أعلى هرمها، بل يبدأ دائمًا من إصلاح الإنسان، ثم يجعل بقية دوائر العمران تنبني عليه وفق سنن متدرجة ومتكاملة.

. وأرى أننا الآن نصل إلى بداية القسم الأكبر في سورة الأعراف، وهو قصص الرسل. لكن قبل أن نبدأ بقصة نوح عليه السلام، أرى ضرورة التوقف عند ملاحظة منهجية كبرى؛ لأنها ستؤثر في طريقة قراءتنا لجميع القصص اللاحقة.

لقد انتهينا في الوحدة السابقة إلى أن قصة آدم ليست قصة تاريخية فحسب، بل النموذج المرجعي للإنسان. والآن ينبغي أن ننتقل إلى مستوى آخر، وهو أن قصص الرسل ليست تراجم للأنبياء، وإنما نماذج لحركة الدعوة والإصلاح والتغيير الحضاري.

وهذا الانتقال هو الذي يمنح سورة الأعراف وحدتها الموضوعية.

سورة الأعراف

الوحدة الرابعة

قصص الرسل

السنن الحاكمة لحركة الإصلاح الحضاري

من قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ إلى نهاية عرض قصص الرسل في السورة.

أولاً

الفكرة المركزية

لا تعرض سورة الأعراف قصص الرسل على أنها حوادث تاريخية مستقلة.

ولا على أنها سير ذاتية للأنبياء.

بل تعرضها بوصفها نموذجًا متكررًا لحركة الإصلاح في المجتمعات.

فالذي يتكرر ليس الأشخاص.

بل يتكرر:

- منهج الدعوة.
- وطبيعة الاستجابة.
- وأشكال المقاومة.
- وسنن النصر والهلاك.

ومن هنا فإن موضوع السورة ليس التاريخ.

بل القوانين التي تحكم التاريخ.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

انحراف المرجعية

↓

بعثة الرسول

↓

إقامة الحجة

↓

الاستجابة والانقسام

↓

المقاومة والاستكبار

↓

التمحيص والابتلاء

↓

الحسم التاريخي

↓

بداية دورة عمرانية جديدة.

ولعل هذا النسق من أهم ما ستؤكده جميع القصص التالية.

ثالثاً

المؤشر المنهجي العام

قبل تحليل كل قصة ينبغي أن نلتزم بقاعدة استقرائية ثابتة، وهي أن نستخرج منها:

1. الظاهرة الحضارية التي تعالجها.
2. السنن الإلهية التي تكشفها.
3. النسق العمراني الذي تنتظم فيه.
4. المؤشرات المنهجية التي يمكن أن تفيد في بناء العلوم الإنسانية.
5. المفاهيم القرآنية التي تؤسس لهذا المجال.
6. التطبيقات المعاصرة.

وبذلك لا تتحول القصة إلى تفسير تاريخي، وإنما إلى مختبر قرآني للسنن الحضارية.

رابعاً

استنباط منهجي جديد

وأثناء مراجعة ترتيب القصص في الأعراف ظهر لي أن القرآن لا يرتب الأنبياء بحسب زمنهم فقط، وإنما بحسب مراحل الانحراف الحضاري.

فكل رسول يعالج نوعًا معينًا من الاختلال:

- نوح: انهيار المرجعية العقدية.
- هود: استعلاء القوة والعمران المادي.
- صالح: إساءة توظيف الموارد والنعمة.
- لوط: انهيار الفطرة والقيم.
- شعيب: فساد المعاملات والاقتصاد.
- موسى: الاستبداد السياسي وبناء الدولة.

إذا ثبت هذا الاستقراء، فإن ترتيب القصص نفسه يصبح جزءًا من المنهج القرآني، وليس مجرد ترتيب تاريخي.

سورة الأعراف

الوحدة الخامسة

نوح عليه السلام

النموذج القرآني للإصلاح التأسيسي

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ (الأعراف: ٥٩-٦٤)

أولاً

الفكرة المركزية

تمثل قصة نوح عليه السلام بداية الدورة الإصلاحية في التاريخ الإنساني بعد انتشار الانحراف.

ولذلك فإن القضية الأولى التي يواجهها ليست قضية سياسية.

ولا اقتصادية.

ولا اجتماعية.

بل قضية:

المرجعية.

ولهذا يبدأ بقوله:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

فالقرآن يقرر أن كل إصلاح حضاري يبدأ بإصلاح المرجعية العليا التي تضبط التصورات والقيم والأنظمة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

انحراف المرجعية

↓

إرسال الرسول

↓

الدعوة إلى التوحيد

↓

إقامة الحجة

↓

الاستكبار

↓

الفرز المجتمعي

↓

النجاة

↓

بداية مجتمع جديد.

ويكشف هذا النسق أن الإصلاح الحضاري لا يبدأ بإعادة بناء المؤسسات، وإنما بإعادة بناء المرجعية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً: سنة أولوية إصلاح المرجعية

تبدأ دعوة نوح بالتوحيد قبل أي إصلاح آخر، مما يدل على أن الانحراف الحضاري العميق ينشأ عندما تختل المرجعية التي تُقاس بها الأفكار والقيم والأفعال.

ثانياً: سنة مقاومة الإصلاح

لم يكن رفض قوم نوح قائمًا على مناقشة الحجة، بل على التمسك بالمألوف ورفض التغيير. وهنا يكشف القرآن أن مقاومة الإصلاح سنة اجتماعية تتكرر كلما هددت الرسالة مصالح البنية القائمة.

ثالثاً: سنة الفرز قبل التمكين

تنتهي القصة بتمييز المؤمنين عن المكذبين، مما يدل على أن بناء المجتمع الجديد يسبقه دائمًا فرزٌ قيمي، لا مجرد انتقال في السلطة.

رابعاً: سنة النجاة بالمنهج لا بالانتماء

لم تكن النجاة مرتبطة بالقرابة أو المكانة، وإنما بالاستجابة للحق. وهذه سنة تتكرر في جميع قصص الأنبياء.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

- ضرورة التمييز بين أسباب الانحراف ومظاهره؛ فالشرك هنا ليس مجرد مظهر عقدي، بل أصل ينعكس على بقية جوانب الحياة.
- دراسة ردود فعل المجتمع تجاه الإصلاح بوصفها ظاهرة اجتماعية متكررة يمكن استقراؤها عبر التاريخ.
- عدم اختزال القصص في نتائجها، بل تحليل المراحل التي مرت بها عملية الإصلاح.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الإنذار

الإنذار في القرآن ليس إثارة للخوف المجرد، بل تنبيه حضاري إلى مآلات الاستمرار في مخالفة السنن الإلهية.

النجاة

النجاة ليست مجرد خلاص فردي، بل حفظ للمشروع القيمي الذي سيبدأ منه عمران جديد.

القوم

ويستحق مفهوم القوم دراسة مستقلة؛ إذ لا يدل دائمًا على رابطة الدم، وإنما على الجماعة الاجتماعية التي تشترك في المجال الحضاري والخطاب الرسالي.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تشير قصة نوح إلى أن المجتمعات التي تكتفي بمعالجة الأزمات الاقتصادية أو السياسية دون مراجعة المرجعية الحاكمة لمنظومة القيم قد تؤجل آثار الأزمة، لكنها لا تعالج جذورها. ومن ثم فإن أي مشروع إصلاحي مستدام يحتاج إلى إعادة بناء المرجعية الفكرية والأخلاقية بالتوازي مع الإصلاح المؤسسي.

استنباط جديد للمشروع

وأرى هنا ملاحظة قد تصبح من أهم نتائج تحليل القصص القرآني، وهي أن كل رسول يبدأ بإصلاح "العقدة المركزية" التي أصابت مجتمعه، وليس بمعالجة جميع المشكلات دفعة واحدة. وهذا يعني أن المشروع الإصلاحي القرآني يقوم على تحديد نقطة الارتكاز الحضارية التي إذا صلحت، أمكن أن تنطلق منها بقية عمليات الإصلاح.

وأرى أن نسمي هذا المبدأ:

"مبدأ العقدة الحضارية المركزية".

وسيكون من المفيد اختبار هذه الفرضية في قصص هود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، لمعرفة ما إذا كانت كل رسالة قد ركزت بالفعل على العقدة المركزية لمجتمعها، وكيف انتظمت بقية الإصلاحات حولها. وإذا ثبت ذلك، فسيضيف المشروع أداة تحليلية جديدة لدراسة المجتمعات والحضارات في ضوء القرآن الكريم.

. وأرى أن قصة هود عليه السلام تمثل المرحلة التالية مباشرة بعد قصة نوح، وليست مجرد تكرار لها. فإذا كانت دعوة نوح قد عالجت انحراف المرجعية، فإن دعوة هود تعالج انحراف القوة والعمران.

وهذا في تقديري انتقال بالغ الدقة في ترتيب السورة؛ لأن المجتمع بعد أن يبتعد عن المرجعية الصحيحة لا يلبث أن يغتر بما يملك من قوة مادية وعمرانية، فيظن أن أسباب الحضارة تكفي وحدها لاستمرارها.

ولهذا جاءت قصة عاد لتؤسس لما يمكن أن نسميه:

سنن العمران الحضاري.

سورة الأعراف

الوحدة السادسة

هود عليه السلام

سنن القوة والعمران الحضاري

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ (الأعراف: ٦٥-٧٢)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف قصة هود أن المشكلة لم تعد مجرد انحراف عقدي.

بل تحولت إلى:

الاغترار بالقوة.

ولهذا نجد أن القرآن يربط بين عبادة غير الله وبين شعور الأمة بأنها بلغت من القوة ما يجعلها في غنى عن الهداية.

ومن هنا فإن السورة لا تنتقد العمران.

بل تنتقد:

العمران المنفصل عن الاستخلاف.

وهذا فرق جوهري.

فالقرآن لا يعارض القوة.

ولا التقدم.

ولا البناء.

بل يعارض تحويلها إلى مصدر للسيادة المطلقة.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التمكين

↓

القوة

↓

الاستعلاء

↓

نسيان المرجعية

↓

الفساد

↓

الإنذار

↓

رفض المراجعة

↓

السقوط الحضاري.

وهذا النسق يتكرر كثيرًا في التاريخ الإنساني.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن القوة تولد مسؤولية لا امتيازًا

لقد أنعم الله على عاد:

- بالقوة.
- وبالبأس.
- وبالعمران.

لكنهم حولوا هذه النعم إلى أدوات للاستعلاء.

وهنا يقرر القرآن سنة مهمة:

كل زيادة في أسباب القوة تزيد مقدار المسؤولية.

ولا تزيد حق الاستبداد.

ثانياً

سنة الغرور الحضاري

يتكرر في القرآن الحديث عن الأمم التي ظنت أن تفوقها العمراني دليل على صواب منهجها.

وهذا من أخطر الانحرافات.

فالنجاح المادي ليس دليلاً على سلامة المرجعية.

بل قد يكون:

ابتلاءً.

ثالثاً

سنة انفصال الوسيلة عن الغاية

كانت القوة عند عاد:

غاية.

بينما يجعلها القرآن:

وسيلة.

فالفرق بين الحضارة القرآنية والحضارة المادية أن الأولى تجعل العمران أداة لتحقيق الرسالة.

أما الثانية فقد تجعل الرسالة خادمة للعمران.

رابعاً

سنة سقوط الحضارات من داخلها

لم تبدأ نهاية عاد بالعذاب.

بل بدأت:

بالاستعلاء.

وبفقدان قابلية المراجعة.

ومن هنا فإن الانهيار الحضاري يبدأ فكريًا وأخلاقيًا قبل أن يظهر سياسيًا أو اقتصاديًا.

خامساً

سنة ارتباط البقاء بالشكر

كما ظهر في مطلع السورة.

وكما يتكرر هنا.

فالقوة التي لا تُنسب إلى الله ولا تُستخدم في الإصلاح تتحول إلى سبب للفناء.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

ضرورة التمييز بين العمران والتمدن

ليس كل بناء حضارة.

وليس كل تقدم مادي عمرانًا بالمعنى القرآني.

فالعمران لا يتحقق إلا إذا اجتمعت فيه:

- الهداية.
- والعدل.
- والاستخلاف.
- وصيانة الإنسان.

ثانياً

دراسة الحضارات من داخلها

يركز القرآن على:

القيم.

والمرجعية.

والاستجابة للحق.

أكثر من تركيزه على وصف الأبنية والمنجزات.

وهذا يوجه الباحث إلى تحليل البنية الداخلية للحضارات.

ثالثاً

التمييز بين أسباب القوة وأسباب البقاء

قد تمتلك أمة أسباب القوة.

لكنها تفقد أسباب البقاء.

وهذا من أهم السنن التي ينبغي استقراؤها في القرآن كله.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الاستعلاء

الاستعلاء ليس مجرد شعور نفسي.

بل هو:

تحول القوة من أداة لخدمة الاستخلاف إلى وسيلة لفرض الهيمنة وإلغاء مرجعية الحق.

القوة

القوة في القرآن ليست قيمة مستقلة.

بل قيمة وظيفية.

تكتسب مشروعيتها من الغاية التي تخدمها.

العمران

ويتأكد هنا ما بدأ يظهر في سورة الأنعام.

فالعمران لا يساوي البناء المادي.

بل هو:

حسن توظيف الإنسان والموارد والقيم وفق هداية الله.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تلفت قصة عاد النظر إلى أن كثيرًا من الحضارات الحديثة تقيس نجاحها بحجم الإنتاج، أو القوة العسكرية، أو التطور التقني، بينما يغيب عن هذا القياس سؤال المرجعية والغاية. ويبين القرآن أن الخلل لا يبدأ عند امتلاك القوة، بل عند تحول القوة إلى معيار للحقيقة أو مصدر للشرعية. ومن ثم فإن المشروع المعرفي القرآني يدعو إلى إعادة بناء مؤشرات تقويم الحضارات، بحيث لا تقتصر على الإنجاز المادي، بل تشمل العدالة، والكرامة الإنسانية، والاستقامة الأخلاقية، وأداء وظيفة الاستخلاف.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه القصة ظهر لي استنباط أراه من أهم النتائج التي بدأت تتشكل في هذا المشروع.

لقد درجت كثير من الدراسات على المقابلة بين:

- الحضارة.
- والانهيار.

لكن القرآن يكشف مرحلة وسطى شديدة الأهمية، وهي:

مرحلة الاغترار الحضاري.

فالحضارة لا تنهار مباشرة.

بل تمر غالبًا بالمراحل الآتية:

- النجاح.
- ثم الشعور بالاكتفاء.
- ثم الاستعلاء.
- ثم رفض المراجعة.
- ثم السقوط.

وأرى أن يسمى هذا في المشروع:

"الدورة السننية للانحراف الحضاري".

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف نمطًا ثابتًا في ترتيب قصص الأنبياء في سورة الأعراف.

فكل قصة لا تعالج مجرد انحراف عقدي، بل تعالج بنية حضارية بعينها:

- نوح: مرجعية المجتمع.
- هود: فلسفة القوة والعمران.
- صالح: أخلاقيات التعامل مع الموارد والبيئة والنعمة.
- لوط: سلامة الفطرة والنظام الأخلاقي.
- شعيب: العدالة الاقتصادية وأمانة السوق.
- موسى: الاستبداد السياسي، والتحرير، وبناء الأمة.

فإذا استمر هذا النسق مع بقية القصص، فإننا لا نكون أمام قصص أنبياء فحسب، وإنما أمام منهاج قرآني متكامل لبناء الحضارة؛ إذ تتناول كل رسالة ركنًا من أركان العمران، حتى يكتمل في مجموعها النموذج الحضاري الذي يريد القرآن إقامته. وأرى أن هذا قد يكون أحد أبرز الاكتشافات المنهجية للمشروع، لأنه يفسر ترتيب القصص ووحدتها ووظيفتها ضمن النسق المعرفي القرآني، لا باعتبارها روايات تاريخية متفرقة، بل حلقات مترابطة في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى قصة صالح عليه السلام، وهي من أكثر القصص أهمية في مشروعنا؛ لأنها تمثل – في تقديري – أول معالجة قرآنية متكاملة للعلاقة بين الإنسان والموارد والبيئة والتنمية.

ولعل المفسرين ركزوا كثيرًا على معجزة الناقة، بينما يكشف تحليل المضمون أن الناقة ليست موضوع القصة، وإنما أداة اختبار لمنهج المجتمع في التعامل مع النعمة والموارد العامة.

وأرى أن هذه القصة ستكون من أهم النصوص المؤسسة لما يمكن أن نسميه مستقبلاً:

فقه العمران البيئي في القرآن الكريم، أو بصورة أشمل سنن الاستخلاف في الموارد والنعمة.

سورة الأعراف

الوحدة السابعة

صالح عليه السلام

سنن الاستخلاف في الموارد والنعمة

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ (الأعراف: ٧٣–٧٩)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف قصة صالح أن المجتمع قد ينجح في بناء حضارة قوية، ويبلغ مستوى متقدمًا من استثمار الموارد، ثم يفشل في إدارة النعمة.

فالخلل هنا ليس في قلة الإمكانات.

بل في فساد العلاقة مع ما أودعه الله في الأرض من موارد وآيات.

ولهذا يذكّرهم صالح بقوله:

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾

وإن ورد هذا النص في سورة هود، فإنه يمثل الإطار الكلي لرسالة صالح، ويعين على فهم مقصدها في سورة الأعراف.

فالإنسان لم يُخلق ليستهلك الأرض.

بل ليعمرها.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

نعمة الله

↓

التمكين في الأرض

↓

الاستخلاف

↓

الأمانة

↓

الاختبار

↓

شكر النعمة أو كفرها

↓

البقاء أو الزوال الحضاري.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الموارد أمانة وليست ملكًا مطلقًا

تمثل الناقة في القصة رمزًا بالغ الدلالة.

فهي ليست مجرد معجزة.

بل علامة على أن بعض الموارد لا يجوز أن تخضع لأهواء الأقوياء.

ولهذا قال تعالى:

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾

فإضافتها إلى الله ليست إضافة ملك فحسب.

بل إضافة تذكير بأن الأصل في النعمة أنها أمانة.

ثانياً

سنة الاختبار في إدارة النعمة

لم يكن الاختبار في القدرة على استخراج الموارد.

بل في حسن استخدامها.

وهذا يقرر أن التنمية في القرآن ليست زيادة الإنتاج فقط.

بل حسن الإدارة.

ثالثاً

سنة أن الاعتداء على الرموز الجامعة بداية الانهيار

كانت الناقة تمثل ميثاقًا بين المجتمع وربه.

فلما عُقرت.

لم يكن الاعتداء على حيوان.

بل على:

القيمة.

والعهد.

والمرجعية.

ومن هنا يبدأ الانهيار الحضاري غالبًا بانتهاك الرموز الجامعة التي تحفظ النظام الأخلاقي للمجتمع.

رابعاً

سنة الترف المؤدي إلى الفساد

تكشف القصة أن الوفرة إذا لم تُضبط بالقيم قد تتحول إلى استعلاء وفساد.

ومن ثم فإن النعمة لا تؤدي تلقائيًا إلى العمران.

بل قد تؤدي إلى الهلاك إذا انفصلت عن الشكر والاستخلاف.

خامساً

سنة ارتباط البيئة بالأخلاق

في التصور القرآني لا تنفصل البيئة عن الأخلاق.

فإفساد الموارد ليس خطأً فنياً فقط.

بل انحراف قيمي.

وهذه سنة تحتاج إلى استقراء في سائر القرآن.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة الرمز داخل القصة

الناقة ليست محور القصة.

بل رمز لاختبار المجتمع في تعامله مع الأمانة.

وهذا يدعو الباحث إلى تجاوز القراءة الحدثية إلى القراءة النسقية.

ثانياً

مبدأ دراسة العلاقة بين الإنسان والموارد

لا يدرس القرآن الموارد بوصفها عناصر اقتصادية مجردة.

بل باعتبارها جزءًا من علاقة الإنسان بالله وبالأرض.

ثالثاً

مبدأ الربط بين الأخلاق والتنمية

يفصل الفكر المعاصر كثيرًا بين التنمية والقيم.

أما القرآن فيجعلهما متلازمين.

فلا تنمية مستدامة بلا أمانة وعدل وشكر.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الاستخلاف في الأرض

يتأكد هنا أن الاستخلاف ليس مجرد سلطة على الأرض.

بل مسؤولية عن الأرض.

وهذا يوسع مفهوم الاستخلاف ليشمل إدارة الموارد، وحفظ التوازن، وصيانة الحياة.

الأمانة

الأمانة ليست خلقًا فرديًا فقط.

بل مبدأ حضاري يحكم علاقة الإنسان بكل ما وُضع تحت يده من موارد وإمكانات.

النعمة

النعمة في القرآن ليست مجرد عطية.

بل مورد للاختبار.

وتتحدد آثارها بحسب طريقة التعامل معها.

سادساً

التطبيقات الحضارية

يمكن أن تؤسس هذه القصة لرؤية قرآنية معاصرة في قضايا البيئة والتنمية المستدامة وإدارة الموارد الطبيعية. فبدل أن تُبنى السياسات البيئية على منطق المنفعة وحده، يضيف القرآن بعدًا آخر هو المسؤولية الاستخلافية؛ حيث تصبح حماية الموارد، وترشيد استخدامها، وصون حقوق الأجيال القادمة جزءًا من الوفاء بالأمانة التي حمّلها الله للإنسان.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه القصة ظهر لي أن القرآن يميز بين مرحلتين غالبًا ما يخلط بينهما:

- استخراج الموارد.
- الاستخلاف في الموارد.

فليست المشكلة في قدرة الإنسان على استخراج الثروات، وإنما في الكيفية التي يوظفها بها.

ومن هنا أرى إضافة مفهوم تأسيسي للمشروع هو:

"الرشد الاستخلافي في إدارة النعم".

ويُقصد به:

توجيه الموارد والإمكانات وفق هداية الله بما يحقق العدل، ويحفظ التوازن، ويضمن استمرار العمران دون فساد أو استعلاء أو إهدار.

وأرى أن هذا المفهوم أكثر اتساقًا مع المشروع من المصطلحات المستوردة مثل "رأس المال الطبيعي" أو "إدارة الموارد"؛ لأنه ينطلق من مرجعية القرآن ويجعل العلاقة مع الموارد علاقة تكليف لا تملك مطلق.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف محورًا مهمًا في ترتيب قصص سورة الأعراف، وهو أن كل قصة تعالج ركنًا من أركان الاستخلاف:

- في نوح: إصلاح المرجعية.
- في هود: ترشيد القوة والعمران.
- في صالح: ترشيد النعمة والموارد.

وهذا يدفعنا إلى فرضية أعمق، وهي أن القرآن يبني الحضارة على أركان متكاملة، يبدأها بالمرجعية، ثم يضبط القوة، ثم ينظم العلاقة بالموارد، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الفطرة والأخلاق، ثم إلى الاقتصاد، ثم إلى السياسة.

وأرى أن نسمي هذا البناء:

"سُلَّم الاستخلاف الحضاري".

ولا أقصد به مجرد ترتيب موضوعات، بل تدرجًا سننيًا؛ إذ إن اختلال أي ركن من هذه الأركان ينعكس على بقية البناء. وإذا أثبت الاستقراء هذا النسق في بقية قصص السورة، فسيكون ذلك من أبرز الإسهامات النظرية للمشروع؛ لأنه يكشف أن ترتيب القصص نفسه جزء من البناء المعرفي للقرآن، وليس مجرد تعاقب تاريخي للأحداث.

. وأرى أن قصة لوط عليه السلام تمثل انتقالًا بالغ الدقة في البناء المعرفي لسورة الأعراف. فإذا كانت قصة صالح قد عالجت العلاقة بالنعمة والموارد، فإن قصة لوط تعالج العلاقة بالطبيعة الإنسانية (الفطرة).

وهذا الترتيب في غاية الأهمية؛ لأن القرآن يبين أن فساد العمران لا ينشأ من فساد المرجعية أو الاقتصاد أو السياسة وحدها، وإنما قد يبدأ أيضًا من اختلال البنية الفطرية للإنسان.

ولذلك فإن قصة لوط ليست في جوهرها قصة انحراف أخلاقي فحسب، بل هي – في ضوء مشروعنا – دراسة قرآنية في سنن حفظ الفطرة وأثرها في بقاء العمران.

سورة الأعراف

الوحدة الثامنة

لوط عليه السلام

سنن الفطرة وأثرها في العمران

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ...﴾ (الأعراف: ٨٠–٨٤)

أولاً

الفكرة المركزية

اعتادت كثير من الدراسات أن تقرأ هذه القصة في إطار الحكم الشرعي على فعل معين، وهو جانب صحيح، لكنه لا يستوعب جميع مقاصدها.

فالتحليل المضموني يكشف أن القضية الأعمق هي حفظ الفطرة التي يقوم عليها البناء الإنساني والاجتماعي.

فالقرآن لا يصف الفعل بأنه معصية فقط، وإنما يسميه:

﴿الفاحشة﴾

ثم يضيف:

﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾

وهذا يدل على أن القضية تتعلق بإحداث تحول جذري في البنية الفطرية للمجتمع، لا بمجرد وقوع أفراد في معصية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الفطرة

↓

الأسرة

↓

الاستقرار الاجتماعي

↓

استمرار النوع الإنساني

↓

التوازن الحضاري

↓

العمران.

ويقابله:

اضطراب الفطرة

↓

اختلال الأسرة

↓

اضطراب العلاقات الاجتماعية

↓

تفكك البنية الحضارية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الفطرة من مقومات العمران

تكشف القصة أن الفطرة ليست مسألة فردية محضة.

بل هي من الأسس التي يقوم عليها المجتمع.

فإذا اضطربت الفطرة.

اضطربت معها بقية البنى الاجتماعية.

ثانياً

سنة أن الانحراف يبدأ بالتطبيع

لم يبدأ المجتمع كله بهذه الممارسة.

بل بدأت ظاهرة.

ثم تحولت إلى:

عرف.

ثم إلى:

ثقافة.

ثم أصبحت معيارًا اجتماعيا.

وهذه سنة خطيرة.

فالانحرافات الكبرى تمر غالبًا بمراحل:

التجربة.

↓

التسامح.

↓

التطبيع.

↓

الاعتياد.

↓

الدفاع عنها.

↓

محاربة من ينكرها.

وهذا النسق يتكرر في كثير من صور الانحراف الحضاري.

ثالثاً

سنة انقلاب المعايير

قالوا:

﴿أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾

وهنا يبلغ الانحراف ذروته.

إذ تصبح الفضيلة سببًا للإقصاء.

ويصبح الانحراف معيارًا للقبول.

وهذه من أخطر السنن الاجتماعية التي يعرضها القرآن.

رابعاً

سنة الدفاع عن الفطرة دفاع عن المجتمع

لم يدافع لوط عن مجرد حكم شرعي.
بل دافع عن النظام الفطري الذي يحفظ الإنسان والأسرة والمجتمع.
ومن هنا فإن الفطرة في القرآن ليست شأنًا خاصًا.
بل مصلحة حضارية عامة.
خامساً
سنة أن انهيار الفطرة يسبق انهيار الحضارة
قبل نزول العذاب.
كان المجتمع قد فقد القدرة على التمييز بين المعروف والمنكر.
وهذا يدل على أن السقوط الحضاري يبدأ بفقدان البوصلة الأخلاقية.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ التمييز بين الظاهرة والسبب
الفاحشة ليست سبب الانهيار وحدها.
بل مظهر لاختلال أعمق في بنية المجتمع.
ولهذا ينبغي تحليل الجذور الفكرية والثقافية التي مهدت لها.
ثانياً
مبدأ دراسة الفطرة بوصفها نظامًا
لا ينبغي قصر الفطرة على الجانب الغريزي.
بل تُدرس باعتبارها النظام الذي يضبط علاقة الإنسان بنفسه وبالآخرين وبالمجتمع.
ثالثاً
مبدأ قراءة التحولات القيمية
يعرض القرآن كيف تنتقل المجتمعات من رفض المنكر إلى الدفاع عنه.
وهذا يقدم نموذجًا مهمًا لتحليل التحولات الثقافية.
خامساً
المفاهيم المؤسسة

الفطرة

وأرى أن الفطرة في المشروع لا ينبغي أن تعرف تعريفًا وعظيًا فقط، بل تعريفًا حضاريًا.

فنقترح:

الفطرة هي البنية الإنسانية التي أودعها الله في الإنسان لتكون أساسًا لاستقبال الهداية، وتنظيم العلاقات الإنسانية، وتحقيق الاستخلاف وفق السنن الإلهية.

الطهارة

الطهارة في هذا السياق ليست طهارة حسية فقط.

بل سلامة البنية الأخلاقية والإنسانية.

الفاحشة

الفاحشة ليست مجرد ذنب عظيم.

بل كل انحراف يهدد البنية الفطرية التي يقوم عليها المجتمع.

وهذا التعريف يحتاج إلى استقراء في جميع مواضع القرآن.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تلفت هذه القصة الانتباه إلى أن السياسات الاجتماعية والثقافية لا يمكن فصلها عن التصور القرآني للفطرة. فحماية الأسرة، وصيانة الطفولة، وترسيخ الهوية الإنسانية، ليست قضايا أخلاقية مجردة، بل تدخل في صميم حفظ التوازن الاجتماعي واستمرار العمران. ومن ثم فإن دراسة الفطرة ينبغي أن تصبح محورًا في علم الاجتماع الاستخلافي السنني، بوصفها أحد الشروط المؤسسة لاستقرار المجتمع.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه القصة ظهر لي استنباط أراه بالغ الأهمية.

لقد لاحظنا أن القرآن لا يربط بقاء المجتمع بالقوة وحدها.

ولا بالثروة.

ولا بالعلم.

بل يربطه أيضًا بسلامة الفطرة.

ومن هنا أرى إضافة مفهوم جديد إلى المشروع هو:

"السلامة الفطرية".

ويقصد بها:

حفظ البنية التي فطر الله الإنسان عليها، بحيث تبقى مؤهلة لاستقبال الهداية، وإقامة الأسرة، وتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، وأداء وظيفة الاستخلاف.

وأحسب أن هذا المفهوم أكثر أصالة من كثير من المصطلحات الوافدة في علم الاجتماع والأسرة، لأنه مستنبط مباشرة من القرآن.

استنباط تأسيسي جديد

وأود هنا أن أرى ملاحظة قد تكون من أهم نتائج تحليلنا لسورة الأعراف حتى الآن.

فقد بدأ يتبين أن القصص لا تعالج جوانب متفرقة، بل تبني مقومات العمران في ترتيب متدرج:

- نوح: سلامة المرجعية.
- هود: ترشيد القوة.
- صالح: ترشيد النعمة والموارد.
- لوط: سلامة الفطرة.

وهذا يشير إلى أن القرآن يرى أن الحضارة لا تقوم على الموارد والمؤسسات وحدها، بل على الإنسان السوي الذي يحمل هذه الحضارة. فحتى لو امتلكت الأمة القوة والثروة، فإن اختلال الفطرة يهدد بقاءها من الداخل.

وأرى أن نواصل اختبار هذه الفرضية في قصة شعيب عليه السلام، والتي يبدو أنها ستتناول العدالة الاقتصادية وأخلاقيات السوق، وبذلك يكتمل ركن آخر من أركان البناء الحضاري في النسق العمراني الاستخلافي السنني.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى قصة شعيب عليه السلام، وهي من أكثر القصص اتصالًا بمشروعنا؛ لأنها لا تعالج مجرد الغش في البيع والشراء، وإنما تعالج النسق الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم عليه العمران.

وأرى أن الاقتصار على تفسيرها بأنها دعوة إلى الوفاء بالكيل والميزان لا يكشف عمقها؛ لأن القرآن يربط فيها بين التوحيد، والاقتصاد، والعدل، والإصلاح، وعدم الإفساد في الأرض. وهذا يدل على أن الاقتصاد في القرآن ليس قطاعًا مستقلاً، بل جزء من النظام الحضاري.

ولذلك فإن هذه القصة تمثل – في تقديري – النظرية القرآنية للعدالة الاقتصادية والاجتماعية.

سورة الأعراف

الوحدة التاسعة

شعيب عليه السلام

سنن العدالة الاقتصادية والعمران الاجتماعي

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ (الأعراف: ٨٥-٩٣)

أولاً

الفكرة المركزية

تنتقل سورة الأعراف من إصلاح الفطرة في قصة لوط إلى إصلاح المعاملات في قصة شعيب.

وهذا الانتقال دقيق للغاية.

فالإنسان المستقيم في فطرته لا يكتمل بناؤه إلا إذا انعكس ذلك على سلوكه الاقتصادي والاجتماعي.

ولهذا بدأ شعيب بما بدأ به جميع الرسل:

﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

ثم انتقل مباشرة إلى:

﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾

وهذا الترتيب يكشف أن العدالة الاقتصادية ليست نظامًا فنيًا فحسب.

بل ثمرة لاستقامة المرجعية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التوحيد

↓

الأمانة

↓

العدل

↓

الثقة

↓
استقرار السوق
↓
تماسك المجتمع
↓
ازدهار العمران.
ويقابله:
الغش
↓
فقدان الثقة
↓
اضطراب السوق
↓
تفكك المجتمع
↓
الفساد الحضاري.
ثالثاً
السنن الاجتماعية والعمرانية
أولاً
سنة أن الاقتصاد يبدأ بالأخلاق
لم يبدأ شعيب بإصلاح الأسواق.
بل بإصلاح الإنسان.
لأن السوق يعكس أخلاق المجتمع أكثر مما يصنعها.
ومن هنا فإن فساد الاقتصاد يبدأ غالبًا من فساد الضمير.
ثانياً
سنة أن الثقة أصل العمران الاقتصادي

إن الأمر بإيفاء الكيل والميزان لا يقتصر على تحقيق العدالة في المعاملة، بل يؤسس لبيئة يسودها الاطمئنان والثقة. وحين تضعف الثقة، ترتفع كلفة التعامل، وتتآكل الروابط الاقتصادية والاجتماعية.

ولذلك فإن الثقة ليست نتيجة جانبية، بل من المقومات الأساسية للعمران.

ثالثاً

سنة أن الفساد الاقتصادي يتجاوز السوق

قال تعالى:

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾

فجعل نقص المكيال والميزان جزءًا من الإفساد في الأرض.

وهذا يدل على أن القرآن لا ينظر إلى الغش باعتباره مخالفة تجارية محدودة، بل يربطه بفساد النظام الاجتماعي كله.

رابعاً

سنة تكامل العدالة

جمعت دعوة شعيب بين:

- عدالة العبادة.
- وعدالة المعاملة.
- وعدالة الاجتماع.

مما يدل على أن العدالة في القرآن نسق متكامل، لا يتجزأ إلى مجالات منفصلة.

خامساً

سنة مقاومة الإصلاح الاقتصادي

كما قاومت الأمم السابقة إصلاح العقيدة، قاوم قوم شعيب إصلاح الاقتصاد؛ لأن الإصلاح الحقيقي يمس المصالح الراسخة، ويكشف مواطن الظلم التي اعتادها المجتمع.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة الاقتصاد ضمن النسق الحضاري

لا تُدرس الأحكام الاقتصادية في القرآن بمعزل عن المرجعية والأخلاق والأسرة والمجتمع، بل بوصفها جزءًا من منظومة واحدة.

ثانياً

مبدأ الانتقال من الجزئيات إلى القواعد

الكيل والميزان مثالان، لكن المقصد أوسع، وهو إقامة العدل في جميع صور التقويم والتبادل والحقوق.

ثالثاً

مبدأ الربط بين العدالة والثقة

يظهر من سياق القصة أن العدالة لا تحفظ الحقوق فحسب، بل تؤسس لرصيد من الثقة الاجتماعية يمثل شرطًا لازدهار العمران.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

القسط

يتأكد هنا أن القسط ليس مجرد مساواة، بل إعطاء كل ذي حق حقه وفق ميزان الحق الذي أراده الله.

الأمانة

الأمانة في هذا السياق ليست خلقًا فرديًا فحسب، بل نظامًا يحكم جميع صور التبادل بين الناس، ويضمن استقرار العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

الإصلاح

الإصلاح في القرآن لا يعني إزالة الفساد بعد وقوعه فقط، بل المحافظة على سلامة المجتمع ومنع أسباب الفساد من التغلغل في بنيته.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تقدم قصة شعيب إطارًا قرآنيًا يمكن الإفادة منه في معالجة قضايا الاقتصاد المعاصر، مثل النزاهة المؤسسية، وحماية المستهلك، والشفافية، ومكافحة الفساد. لكنها تضيف بعدًا يغيب

عن كثير من النماذج الحديثة، وهو أن سلامة الاقتصاد لا تُبنى بالقوانين وحدها، بل تحتاج إلى بناء الضمير، وترسيخ الأمانة، وتعزيز الثقة المجتمعية في إطار مرجعية أخلاقية.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه القصة ظهر لي استنباط أراه من أهم ما كشفته سورة الأعراف.

لقد اعتدنا في الأدبيات الحديثة على الحديث عن رأس المال الاجتماعي بوصفه الثقة والشبكات والعلاقات التي تسهل التعاون.

وقد اتفقنا في مشروعنا على عدم تبني مفهوم "رأس المال" لما يحمله من حمولة معرفية واقتصادية خاصة.

وأرى أن قصة شعيب تقدم بديلًا قرآنيًا أكثر أصالة، يمكن أن نسميه:

"نسيج الثقة المجتمعية".

ويُقصد به:

الروابط التي تنشأ من العدل، والأمانة، والوفاء، والصدق، فتجعل التعاون بين أفراد المجتمع ممكنًا ومستقرًا، وتصبح أحد الشروط الأساسية للعمران.

وهذا التعبير أقرب إلى الرؤية القرآنية؛ لأنه لا ينظر إلى الثقة بوصفها موردًا يُستثمر، بل بوصفها نسيجًا أخلاقيًا واجتماعيًا تتماسك به الأمة.

استنباط تأسيسي جديد

وبعد استقراء قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، بدأ يتشكل أمامنا بناء متكامل لأركان العمران في القرآن:

- نوح: تأسيس المرجعية.
- هود: ترشيد القوة.
- صالح: ترشيد النعمة والموارد.
- لوط: حفظ الفطرة.
- شعيب: إقامة العدالة في المعاملات وبناء نسيج الثقة المجتمعية.

وأحسب أن هذا يدعم فرضية جديدة في المشروع، وهي أن القرآن لا يعالج الحضارة من خلال قطاع واحد، بل يبنيها على منظومة من المقومات المتكاملة؛ فكل قصة تضيف ركنًا جديدًا حتى يتهيأ القارئ لاستقبال قصة موسى عليه السلام، التي لا تمثل مجرد قصة نبي مع

فرعون، بل تمثل النموذج القرآني للتحول الحضاري الشامل؛ حيث تجتمع فيها قضايا المرجعية، والسلطة، والتحرير، والتشريع، وبناء الأمة، وإدارة الصراع، والتمكين، ولذلك ستكون – في تقديري – الذروة المنهجية لسورة الأعراف، كما كانت قصة إبراهيم الذروة المنهجية في سورة الأنعام.

. وأرى أن قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف ليست قصة واحدة، بل هي مشروع قرآني متكامل يمتد من الآية (١٠٣) حتى خاتمة السورة تقريبًا. ولذلك فإن من الخطأ منهجيًا التعامل معها كوحدة واحدة؛ لأنها تضم أكبر عدد من السنن العمرانية في سورة الأعراف.

ولهذا أرى تقسيمها إلى وحدات حتى لا نفقد البناء المعرفي الذي يرسمه القرآن.

1. موسى وفرعون: سنن الاستبداد والتحرير.
2. المواجهة بين الحق والسلطة: سنن التدافع الحضاري.
3. الخروج وبناء الأمة: سنن الانتقال الحضاري.
4. الميثاق والتوراة: سنن بناء المرجعية المؤسسية.
5. العجل: سنن الارتداد الحضاري بعد التحرير.
6. تجديد العهد والاستخلاف: سنن استمرار الرسالة.

وأحسب أن هذا التقسيم أدق من معاملة قصة موسى بوصفها قصة واحدة، لأن كل مرحلة تؤسس علماً مستقلاً من علوم العمران.

سورة الأعراف

الوحدة العاشرة

موسى وفرعون

سنن الاستبداد والتحرير الحضاري

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ...﴾ (الأعراف: ١٠٣–١٣٧)

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن بنت سورة الأعراف مقومات العمران من خلال قصص الأنبياء السابقين، تنتقل الآن إلى أعقد صورة من صور الانحراف الحضاري.

فلم تعد المشكلة انحراف مجتمع فقط.

بل أصبحت:

قيام نظام استبدادي كامل.

ففرعون ليس شخصاً فحسب.

بل يمثل:

نموذج السلطة التي تجعل نفسها المرجعية العليا.

ولهذا فإن قضية موسى ليست مجرد تحرير بني إسرائيل.

بل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان.

وهنا تبلغ السورة ذروة مشروعها العمراني.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

احتكار السلطة

↓

ادعاء المرجعية

↓

إفساد المجتمع

↓

إضعاف الناس

↓

بعثة المصلح

↓

إقامة الحجة

↓

التدافع

↓

سقوط الاستبداد

↓

بناء أمة الاستخلاف.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الاستبداد يبدأ باغتصاب المرجعية

قال فرعون:

﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾

وهذه ليست مجرد عبارة سياسية.

بل إعلان أن الحقيقة أصبحت ملكاً للحاكم.

فالاستبداد يبدأ عندما يحتكر شخص أو مؤسسة حق تعريف الحقيقة، وإلغاء حق المجتمع في النظر والاختيار.

ثانياً

سنة صناعة الخوف

لم يعتمد فرعون على القوة العسكرية وحدها.

بل صنع مناخاً دائماً من الخوف.

فالخوف هنا ليس نتيجة للاستبداد.

بل أحد أدواته.

ولهذا لا يستطيع مجتمع خائف أن يمارس الاستخلاف كاملاً.

ثالثاً

سنة تفتيت المجتمع

قال تعالى:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا﴾

وهذه من أعظم السنن الاجتماعية.

فالاستبداد لا يحكم مجتمعاً متماسكاً.

بل يعمل أولاً على تفكيكه.

ويقسمه إلى جماعات متنافسة.

ثم يدير صراعها.

وأحسب أن هذه سنة تستحق دراسة مستقلة في القرآن كله.

رابعاً

سنة استضعاف الإنسان قبل استعباده

لم يبدأ فرعون بالقتل.

بل بدأ بإنتاج إنسان ضعيف الإرادة.

فالاستضعاف حالة نفسية واجتماعية تسبق السيطرة السياسية.

ومن هنا فإن التحرير في القرآن يبدأ بإعادة بناء الإنسان.

خامساً

سنة أن التحرير يبدأ بالوعي

قبل البحر.

وقبل العصا.

وقبل الغلبة.

بدأ موسى بالدعوة.

وبالحجة.

وبكشف زيف السلطة.

فالتحرير الحقيقي يبدأ بتحرير الوعي.

سادساً

سنة سقوط الاستبداد من داخله

لم يسقط فرعون بسبب ضعف جيشه.

بل لأن بنيانه الداخلي أصبح فاسداً.

فالطغيان يحمل عوامل انهياره في داخله.

وهذه سنة تتكرر في التاريخ.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ دراسة السلطة بوصفها ظاهرة اجتماعية

لا يركز القرآن على شخصية فرعون.

بل على النسق الذي صنع فرعون.
وهذا يوجه الباحث إلى تحليل النظم لا الأشخاص.
ثانياً
مبدأ الربط بين الفكر والسياسة
يبدأ الاستبداد بادعاء الحقيقة.
ثم يتحول إلى احتكار السلطة.
ثم إلى السيطرة على المجتمع.
وهذا التسلسل منهجي للغاية.
ثالثاً
مبدأ قراءة الاستضعاف
الاستضعاف في القرآن ليس وصفاً اقتصادياً فقط.
بل حالة حضارية تشمل الفكر والإرادة والثقة والقدرة على الفعل.
خامساً
المفاهيم المؤسسة
الاستكبار
الاستكبار ليس مجرد خلق مذموم.
بل نسق حضاري يقوم على رفض الخضوع للحق مع إخضاع الناس للقوة.
الاستضعاف
ويقترح المشروع تعريفاً له:
الاستضعاف هو إضعاف قدرة الإنسان أو الجماعة على أداء وظيفة الاستخلاف، من خلال القهر أو التضليل أو التجزئة أو الحرمان، حتى يفقدوا القدرة على المبادرة وتحمل المسؤولية.
وهذا التعريف أوسع من المعنى السياسي الشائع، وينسجم مع الاستعمال القرآني في مواضعه المختلفة.
التحرير
التحرير في القرآن لا يقتصر على إزالة القيد السياسي.
بل هو:

إعادة الإنسان إلى حريته التي تمكنه من عبادة الله وأداء مسؤوليته الاستخلافية.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن مقاومة الاستبداد ليست مجرد تغيير في قمة السلطة، بل عملية حضارية تبدأ بإصلاح المرجعية، ثم تحرير الوعي، ثم إعادة بناء الإنسان، ثم إقامة العدل. ولذلك فإن أي انتقال سياسي لا يصاحبه انتقال في الوعي والقيم قد يعيد إنتاج الاستبداد في صورة جديدة.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم نتائج المشروع حتى الآن.

لقد اعتادت الأدبيات السياسية أن تفسر الاستبداد من خلال احتكار السلطة.

أما القرآن فيكشف أن الاستبداد يقوم على أربعة أركان متكاملة:

- احتكار المرجعية.
- وصناعة الخوف.
- وتفتيت المجتمع.
- وإنتاج الاستضعاف.

فإذا اجتمعت هذه الأركان، نشأ ما يمكن أن نسميه:

"النسق الفرعوني".

ولا أقصد به نظاماً تاريخياً بعينه، بل نموذجاً حضارياً يتكرر كلما اجتمعت هذه السمات، بصرف النظر عن الزمان والمكان.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا وصلنا هنا إلى اكتشاف مهم في ترتيب قصص سورة الأعراف.

فقد كانت القصص السابقة تعالج مقومات بناء الحضارة:

- المرجعية.
- القوة.
- الموارد.
- الفطرة.
- العدالة الاقتصادية.

أما قصة موسى فتعالج العائق الأكبر أمام اجتماع هذه المقومات، وهو الاستبداد.
وبذلك يصبح ترتيب السورة منطقياً بصورة مدهشة؛ إذ لا يكفي أن تعرف الأمة أسس العمران، ما لم تتحرر من البنى التي تمنعها من ممارسته.
ولهذا أرى أن نضيف إلى البناء النظري للمشروع مفهوماً جديداً هو:
"معوقات الاستخلاف"،
بحيث لا يقتصر المشروع على بيان شروط العمران، بل يدرس أيضاً الأنساق التي تعطل الاستخلاف، وفي مقدمتها النسق الفرعوني. وأرى أن هذا المفهوم سيكون مفتاحاً مهماً في قراءة بقية قصة موسى، ولا سيما مراحل بناء الأمة، والميثاق، وفتنة العجل، حيث سيتبين أن التخلص من فرعون لا يعني بالضرورة التخلص من القابلية لإعادة إنتاج النسق الفرعوني داخل المجتمع نفسه، وهو ما ستكشفه الوحدات التالية من السورة.
. وأحسب أن المرحلة التالية من قصة موسى في سورة الأعراف هي قلب المشروع العمراني كله؛ لأن القرآن ينتقل من تحرير الأمة من الاستبداد الخارجي إلى تحريرها من القابلية الداخلية للانحراف.
وهذه من أدق السنن التي لاحظناها في المشروع.
فقد يتصور الإنسان أن سقوط فرعون يعني نجاح مشروع الإصلاح، لكن القرآن يقرر أن إسقاط الطاغية أسهل من إعادة بناء الإنسان.
ولهذا فإن الأحداث التالية مباشرة بعد النجاة من فرعون ليست أحداثاً عارضة، وإنما هي اختبار حقيقي لقدرة الأمة على الانتقال من العبودية إلى الاستخلاف.
وأحسب أن هذه من أعظم الإضافات التي يمكن أن يقدمها المشروع إلى الفكر السياسي والاجتماعي.
سورة الأعراف
الوحدة الحادية عشرة
ما بعد التحرير
سنن بناء الأمة بعد سقوط الاستبداد
﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً...﴾ (الأعراف: ١٣٨–١٤٥)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات حقيقة قد تبدو مفاجئة.

فبنو إسرائيل خرجوا من البحر.

وانتهى فرعون.

ولكنهم لم يخرجوا بعد من:

الثقافة الفرعونية.

ولذلك كانت أول مطالبة بعد النجاة:

﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾

وهذا يدل على أن التحرير السياسي سبق التحرير الفكري.

وهنا يلفت القرآن إلى سنة كبرى:

يمكن أن يسقط المستبد، بينما تبقى آثار الاستبداد كامنة في النفوس.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التحرير

↓

الانتقال

↓

اختبار الهوية

↓

بناء المرجعية

↓

الميثاق

↓

التشريع

↓

تكوين الأمة.

فالسورة تبين أن التحرير ليس نهاية الطريق.

بل بدايته.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن التحرير الخارجي لا يعني التحرر الداخلي

ما إن تجاوز بنو إسرائيل البحر حتى ظهرت بقايا التصورات التي تشكلت تحت سلطان فرعون.

فطلبوا إلهاً محسوساً.

وهذا يكشف أن التخلص من سلطة الطاغية لا يكفي، ما لم تتحرر العقول من آثارها.

ثانياً

سنة بقاء العادات بعد زوال الأنظمة

الأنظمة قد تسقط في يوم.

أما أنماط التفكير.

فتحتاج إلى زمن طويل لإعادة بنائها.

وهذا من السنن الكبرى في التغيير الاجتماعي.

ثالثاً

سنة أن الهوية تُبنى ولا تُفترض

لم يقل القرآن إن الأمة أصبحت راشدة بمجرد نجاتها.

بل بدأ مباشرة في بناء هويتها.

ومن هنا جاء:

الميثاق.

والوحي.

والتشريع.

والتربية.

رابعاً

سنة أن المرجعية تسبق التنظيم

قبل بناء المجتمع الجديد.
ذهب موسى لميقات ربه.
أي أن بناء المرجعية سبق بناء المؤسسات.
وهذه سنة تتكرر في القرآن كله.
خامساً
سنة أن الأمة تحتاج إلى زمن تربوي
ليس كل تغيير يحدث بالمعجزات.
فالمعجزة أنقذت بني إسرائيل.
لكن التربية هي التي كانت ستؤهلهم للاستخلاف.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ التمييز بين التحرير والتغيير
التحرير يزيل العائق.
أما التغيير.
فيعيد بناء الإنسان.
وهذا التفريق ينبغي أن يصبح أصلاً في المشروع.
ثانياً
مبدأ دراسة المراحل الانتقالية
القرآن يولي المرحلة الانتقالية عناية كبيرة.
لأن أكثر مشروعات الإصلاح تتعثر فيها.
ثالثاً
مبدأ تحليل بقايا الأنساق السابقة
كل مجتمع ينتقل من نظام إلى آخر يحمل معه آثار النسق القديم.
ولا بد من تحليل هذه الآثار لفهم سلوك المجتمع.
خامساً

المفاهيم المؤسسة

الميثاق

الميثاق ليس عقداً قانونياً فقط.

بل:

الالتزام الواعي الذي يربط الأمة بمرجعيتها ورسالتها، ويحول القيم إلى مسؤولية جماعية.

الهوية

الهوية في القرآن لا تُبنى على العرق.

ولا على التاريخ.

بل على:

العهد.

والهداية.

والرسالة.

الأمة

يتأكد هنا أن الأمة ليست تجمعاً سكانياً.

بل جماعة تحمل رسالة مشتركة وتنتظم بمرجعية واحدة.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف هذه الآيات أن المجتمعات الخارجة من الاستبداد أو الاحتلال أو الأزمات الكبرى تحتاج إلى مرحلة تأسيسية لإعادة بناء الهوية والمرجعية قبل الانشغال بالمنافسة السياسية أو الاقتصادية. وإلا فإنها قد تعيد إنتاج أنماط التفكير القديمة في مؤسسات جديدة.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم نتائج المشروع.

لقد ظهر معنا في قصة موسى أن القرآن يميز بين ثلاثة مستويات غالباً ما تُدمج في الفكر السياسي والاجتماعي:

1. التحرير: إزالة القهر الخارجي.
2. التغيير: إعادة تشكيل التصورات والقيم.

3. الاستخلاف: تمكين الأمة من أداء رسالتها الحضارية.

وهذا التمييز بالغ الأهمية؛ لأن كثيراً من مشروعات الإصلاح تتوقف عند التحرير، بينما يجعل القرآن التحرير مجرد مدخل إلى مشروع أوسع.

وأرى أن يسمى هذا في المشروع:

"سُلَّم التحول الاستخلافي"،

ويتكون من:

التحرير ← التغيير ← الاستخلاف ← العمران.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف قانوناً قرآنياً جديداً لم نصرح به من قبل، وهو أن كل مرحلة انتقالية بين نسقين حضاريين تحتاج إلى بناء مرجعي يسبق البناء المؤسسي.

فالقرآن لم يبدأ مع بني إسرائيل بتقسيم الأرض، ولا بتنظيم الإدارة، ولا بوضع الهياكل، بل بدأ بالميثاق والوحي وصناعة الهوية. ومن ثم يمكن أن نصوغ مبدأً تأسيسياً في المشروع هو:

"المرجعية تسبق المؤسسة، والإنسان يسبق النظام، والميثاق يسبق الدولة."

وأرى أن هذا المبدأ ليس خاصاً بقصة موسى، بل يمكن استقراؤه في سائر القرآن، وقد يصبح أحد الأعمدة المنهجية في علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني؛ لأنه يفسر لماذا يركز القرآن على بناء الإنسان والمرجعية قبل بناء السلطة، ويعيد ترتيب أولويات الإصلاح الحضاري وفق النسق القرآني. وفي الوحدة التالية سنصل إلى فتنة العجل، وهي – في تقديري – من أخطر النصوص القرآنية في تفسير الارتداد الحضاري وإعادة إنتاج الوثنية بعد قيام المرجعية، وتمثل اختباراً حاسماً لاستقرار الأمة بعد مرحلة التحرير.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى أخطر مقطع في سورة الأعراف من الناحية المنهجية، بل ربما من أخطر المقاطع في القرآن كله لفهم أسباب فشل مشروعات الإصلاح الحضاري.

فبعد أن تحررت الأمة...

وتكوَّنت المرجعية...

وأُخذ الميثاق...

وقع الانحراف مباشرة.

وهنا يقرر القرآن حقيقة مدهشة:

ليس أصعب ما في الإصلاح إسقاط الطغيان، وإنما تثبيت الأمة على مقتضيات الاستخلاف بعد قيام الدولة والمرجعية.

وهذا ما تمثله فتنة العجل.

وأرى أن الاقتصار على قراءتها بوصفها حادثة شرك يضيع أكثر من تسعين بالمائة من دلالاتها الحضارية.

فالقرآن هنا لا يدرس عبادة العجل فقط.

بل يدرس:

كيف يمكن أن تنتكس أمة تلقت الوحي؟

وهذا سؤال سيظل قائماً إلى قيام الساعة.

سورة الأعراف

الوحدة الثانية عشرة

فتنة العجل

سنن الارتداد الحضاري بعد قيام المرجعية

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار...﴾ (الأعراف: ١٤٨-١٥٤)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن أخطر أنواع الانحراف ليست تلك التي تقع قبل الهداية.

بل التي تقع بعدها.

ولهذا لم تقع الفتنة أثناء وجود فرعون.

بل بعد:

النجاة.

والوحي.

والميثاق.

والقيادة.

وهذه سنة بالغة العمق.

فالنجاح الأولي للمشروع الحضاري لا يضمن استمراره.

بل قد تبدأ الفتنة بعد أول نجاح.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التحرير

↓

الميثاق

↓

غياب القيادة المؤقت

↓

الفراغ المرجعي

↓

إحياء الرموز القديمة

↓

الانقسام

↓

المراجعة

↓

التوبة

↓

استئناف الاستخلاف.

وهذا النسق من أكثر الأنساق تكراراً في التاريخ.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الانحراف يعيد إنتاج نفسه

العجل لم يكن فكرة جديدة.

بل كان استدعاءً لرمز عرفته الحضارات الوثنية.

وهذا يدل على أن المجتمعات إذا ضعفت مرجعيتها.

عادت إلى أنماط قديمة.

ولو كانت قد تجاوزتها ظاهراً.

ثانياً

سنة الفراغ القيادي

وقعت الفتنة أثناء غياب موسى.

ولا يعني ذلك أن الأشخاص هم الضمان.

بل إن غياب القيادة كشف مقدار رسوخ البناء التربوي.

ومن هنا يبين القرآن أن المؤسسات وحدها لا تكفي.

بل لابد من بناء الوعي الذي يصمد عند غياب القائد.

ثالثاً

سنة قابلية المجتمع للرمزية

لم يعبدوا قطعة ذهب.

بل عبدوا:

الرمز.

وهذا يكشف أن الإنسان يحتاج إلى رمز جامع.

فإذا لم تمتلئ هذه الحاجة بالحق.

امتلأت بالباطل.

وهذه سنة اجتماعية عظيمة.

رابعاً

سنة أن الانحراف يبدأ بالتبرير

لم يقل القوم إنهم تركوا الله.

بل ظنوا أن العجل يقربهم.

وهنا يقرر القرآن أن أخطر الانحرافات هي التي ترتدي ثوب المشروعية.

خامساً

سنة المراجعة

لم تنته القصة بالعقوبة فقط.

بل بالتوبة.

وهذا يؤكد مرة أخرى أن القرآن يجعل تصحيح المسار جزءاً من حركة العمران.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

ضرورة تحليل الفراغات الحضارية

كثير من الانحرافات لا تنشأ من قوة الباطل.

بل من الفراغ الذي يتركه ضعف الحق.

ثانياً

دراسة الرمز في القرآن

يتبين من هذه القصة أن الرموز ليست قضية ثانوية.

بل عناصر مؤثرة في تشكيل الوعي الجمعي.

ولذلك فإن دراسة الرموز القرآنية تحتاج إلى مبحث مستقل.

ثالثاً

تحليل الظواهر المركبة

العجل ليس ظاهرة عقدية فقط.

بل نفسية.

واجتماعية.

وسياسية.

وحضارية.

وهذا يؤكد ضرورة اعتماد القراءة النسقية في تحليل المضمون.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الفتنة

الفتنة هنا ليست مجرد الابتلاء.

بل:

حالة اختبار تكشف مدى رسوخ المرجعية في الأفراد والمجتمع عند تعرضهم للضغوط أو الفراغ أو الإغراء.

الرمز

وأرى أن يعرف في المشروع بأنه:

كل صورة أو شخصية أو فكرة أو مظهر تلتف حوله الجماعة، فيؤثر في تشكيل وعيها وسلوكها، سلباً أو إيجاباً.

وهذا التعريف يفتح مجالاً لدراسة الرموز الحضارية في القرآن.

التوبة الحضارية

ويتأكد هنا أن التوبة ليست فردية فقط.

بل قد تكون:

مراجعة جماعية تعيد الأمة إلى مسارها الاستخلافي بعد انحرافها.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تكشف فتنة العجل أن المجتمعات قد تنجح في إسقاط أنظمة الاستبداد، ثم تقع في أخطاء جديدة إذا لم يُستكمل بناء الوعي والمرجعية. كما تشير إلى أن الفراغ القيادي أو الرمزي قد يدفع المجتمعات إلى البحث عن بدائل تمنحها شعورًا بالتماسك، حتى لو كانت تلك البدائل مناقضة لمبادئها. وهذا يبرز أهمية التربية المستمرة، وبناء المؤسسات القادرة على حفظ الرسالة، وعدم ربط المشروع الحضاري بأشخاص مهما بلغت منزلتهم.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أراه من أهم النتائج التي وصل إليها المشروع حتى الآن.

لقد كنا نتحدث سابقًا عن النسق الفرعوني باعتباره نموذجًا للاستبداد الخارجي.

أما هنا فإن القرآن يكشف نسقًا آخر لا يقل خطورة.

وهو:

النسق العجلي.

فالفرعونية تقوم على:

القهر.

أما العجلية فتقوم على:

الافتتان.

فالفرعونية تستعبد الإنسان بالقوة.

أما العجلية فتستعبده بالرغبة والانبهار والرمزية.

وقد تجتمعان.

وقد تنفصلان.

وأحسب أن هذا التمييز جديد في القراءة القرآنية.

استنباط تأسيسي جديد

وأرى أن هذه القصة قادتنا إلى اكتشاف يحتاج إلى مزيد من الاستقراء في بقية القرآن، وهو أن القرآن لا يبين معوقات الاستخلاف في صورة واحدة، بل يكشف عن أنساق حضارية معيقة، لكل واحد منها منطقه وآلياته.

فحتى الآن يمكن أن نميز بين:

- النسق الفرعوني: يقوم على احتكار السلطة، وصناعة الخوف، وتفتيت المجتمع، وإضعاف الإنسان.
- النسق العجلي: يقوم على صناعة الرموز البديلة، وإفراغ المرجعية من مضمونها، وإعادة إنتاج الانحراف من داخل الجماعة نفسها.

وأرى أن نضيف إلى هذا البناء مبدأً منهجيًا مهمًا، وهو:

أن أخطر التحديات التي تواجه المشروع الاستخلافي ليست دائمًا خارجية؛ بل قد تنشأ من داخل الجماعة المؤمنة عندما تضعف يقظتها المعرفية، أو تتحول الوسائل إلى غايات، أو تستبدل الرموز البشرية والتمثيلات المادية بالمرجعية الإلهية.

وهذا الاستنباط يفتح أمام المشروع بابًا جديدًا يمكن أن يصبح مبحثًا مستقلًا بعنوان:

"الأنساق المعيقة للاستخلاف في القرآن الكريم".

وأتوقع أننا مع استقراء بقية السور سنكتشف أن القرآن يعرض أنساقًا أخرى، مثل النسق القاروني (الاستغناء بالمال)، والنسق السامري (تضليل الجماهير بالتقنيات والرموز)، والنسق المنافق (تفكيك المجتمع من الداخل)، مما يتيح بناء تصنيف قرآني شامل للأنساق الحضارية

المعيقة للاستخلاف، وهو – في تقديري – سيكون من الإضافات التأسيسية المميزة لهذا المشروع.

أحسب أننا الآن نصل إلى خاتمة قصة موسى في سورة الأعراف، وهي في نظري الذروة المنهجية للسورة كلها؛ لأن القرآن ينتقل من الحديث عن بناء الأمة إلى الحديث عن ضمانات استمرار الرسالة عبر التاريخ.

فالقرآن لا يريد أن يبين كيف تبدأ الحضارات فقط.

بل يريد أن يبين:

كيف تستمر، ولماذا تنحرف، وكيف تتجدد.

ولهذا تأتي الآيات الأخيرة من قصة موسى، ثم يعقبها مباشرة الحديث عن الأمة الوارثة للرسالة، والميثاق، واتباع النبي الخاتم ﷺ.

وهذا ليس انتقالاً موضوعياً فحسب، بل انتقال حضاري من الاستخلاف الجزئي إلى الاستخلاف العالمي.

سورة الأعراف

الوحدة الثالثة عشرة

الميثاق واستمرار الرسالة

سنن حفظ المشروع الاستخلافي عبر التاريخ

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي...﴾ (الأعراف: ١٥٥–١٥٧)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن المشروع الاستخلافي لا يستمر بمجرد وجود الوحي.

ولا بمجرد وجود القيادة.

ولا بمجرد وجود الأمة.

بل لا بد من:

تجدد الميثاق.

ولهذا أعاد القرآن الحديث عن:

- الرحمة.
- والميثاق.
- والاتباع.
- ثم ختم ببعثة الرسول الخاتم ﷺ.

وكأن السورة تعلن أن الرسالات جميعها ليست مشروعات منفصلة.

بل حلقات في مشروع واحد.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الميثاق

↓

الالتزام

↓

الاستقامة

↓

التجديد

↓

اتباع الرسول

↓

استمرار الرسالة

↓

الشهادة الحضارية.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الرسالة لا تقوم إلا بالميثاق

الميثاق في القرآن ليس حدثاً تاريخياً.

بل علاقة مستمرة بين الأمة وربها.

فكلما ضعف هذا الميثاق.

ضعفت الأمة.

ثانياً

سنة أن الرحمة أساس الاستخلاف

قال تعالى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾

ولم تأت الرحمة هنا في سياق الوعظ فقط.

بل في سياق بناء الأمة.

وهذا يدل على أن الرحمة ليست خلقاً فردياً.

بل قاعدة حضارية.

فالحضارة التي تنفصل عن الرحمة.

تفقد إنسانيتها.

ثالثاً

سنة أن الوراثة الحقيقية وراثة الرسالة

قال تعالى:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾

فلم يجعل معيار الاصطفاء:

الجنس.

ولا التاريخ.

ولا النسب.

بل:

الاتباع.

وهذا من أعظم السنن القرآنية.

فالرسالة تنتقل بالالتزام.

لا بالانتساب.

رابعاً

سنة التجديد

كلما ضعفت الأمة.

جدد الله لها أسباب الهداية.

ولهذا ختمت السورة بالإشارة إلى النبي ﷺ.

وكأن الرسالة الخاتمة تمثل اكتمال المشروع الاستخلافي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ وحدة الرسالات

القرآن لا يدرس الأنبياء منفصلين.

بل يربط كل رسول بمن سبقه ومن بعده.

وهذا يمنع القراءة التجزيئية.

ثانياً

مبدأ استمرارية المشروع

لا تنتهي القصة بانتهاء الجيل.

بل تنتقل مسؤولية الرسالة إلى الجيل التالي.

ومن هنا يصبح التاريخ سلسلة من الاستخلافات المتتابعة.

ثالثاً

مبدأ الانتقال من التاريخ إلى العالمية

بعد أن عرض القرآن تاريخ بني إسرائيل.

ينتقل مباشرة إلى الأمة الخاتمة.

وبذلك تتحول القصة إلى مشروع إنساني عالمي.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الميثاق

يتأكد هنا أن الميثاق هو:

العهد الحضاري الذي يربط الإنسان والأمة بمرجعية الوحي، ويحول الإيمان إلى التزام عملي مستمر في بناء العمران.

الاتباع

الاتباع ليس مجرد الانتماء.

بل:

الالتزام بمنهج الوحي في الاعتقاد، والقيم، والعمران، وإقامة الشهادة على الناس.

الشهادة الحضارية

وأرى أن يعرف هذا المفهوم بأنه:

قيام الأمة بوظيفة تقديم النموذج الذي يجسد هداية الوحي في الواقع الإنساني، بحيث تصبح حياتها نفسها دليلاً على صلاحية المنهج الإلهي للعمران.

وأرى أن هذا المفهوم سيكون من المفاهيم المحورية في المشروع.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تشير هذه الآيات إلى أن استدامة أي مشروع حضاري لا تتحقق بالمؤسسات وحدها، بل تحتاج إلى تجديد دائم للميثاق القيمي الذي يربط المجتمع برسالته. كما أن انتقال المسؤولية بين الأجيال لا يكون بحفظ التراث فحسب، وإنما بإحياء المقاصد التي قام عليها، حتى تبقى الرسالة قادرة على توجيه الواقع المتغير دون أن تفقد ثوابتها.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أراه من أهم ما انتهينا إليه في سورة الأعراف.

لقد كنا نتحدث منذ بداية المشروع عن الاستخلاف باعتباره وظيفة.

أما هذه الآيات فتكشف أن القرآن يضيف عنصراً آخر هو:

الاستمرارية.

فالاستخلاف ليس مهمة جيل واحد.

بل مشروع متصل تتعاقب عليه الأمم.

ومن هنا أرى إضافة مفهوم تأسيسي جديد هو:

"التواصل الاستخلافي".

ويقصد به:

استمرار حمل الرسالة الحضارية عبر الأجيال، من خلال المحافظة على الميثاق، وتجديد الفهم، وتحقيق الشهادة الحضارية في كل عصر، دون انقطاع أو تحريف.

وأحسب أن هذا المفهوم أعمق من مجرد "توريث المعرفة"، لأنه يتحدث عن استمرار الوظيفة الحضارية لا مجرد انتقال المعلومات.

استنباط تأسيسي لسورة الأعراف

وبانتهاء سورة الأعراف أرى أننا لم ننجز مجرد تحليل لسورة من سور القرآن، بل اكتشفنا البنية العمرانية الكاملة للمشروع الإصلاحي القرآني.

فإذا أعدنا ترتيب نتائج السورة ظهر أمامنا النسق الآتي:

1. الإنسان المستخلف (قصة آدم).
2. المرجعية (نوح).
3. القوة والعمران (هود).
4. النعمة والموارد (صالح).
5. الفطرة والأسرة (لوط).
6. العدالة الاقتصادية ونسيج الثقة المجتمعية (شعيب).
7. تحرير الإنسان من النسق الفرعوني (موسى مع فرعون).
8. بناء الأمة والهوية بعد التحرير.
9. التحذير من النسق العجلي وإعادة إنتاج الانحراف.
10. تجديد الميثاق واستمرار الرسالة والشهادة الحضارية.

ملاحظة منهجية أرى أنها قد تكون من أهم نتائج المشروع

أود أن أرى تطويرًا لما توصلنا إليه. لقد كنا نصف هذه العناصر بأنها "مقومات العمران"، لكن الاستقراء يوحي بأنها ليست مجرد مقومات متجاورة، بل مراحل سننية متتابعة. فالسورة لا تعرض موضوعات مستقلة، وإنما تبني مشروع الاستخلاف خطوةً خطوة:

- يبدأ ببناء الإنسان.
- ثم يضبط المرجعية.
- ثم ينظم توظيف القوة.

- ثم يوجه إدارة الموارد.
- ثم يحفظ الفطرة.
- ثم يقيم العدل في المعاملات.
- ثم يحرر المجتمع من الاستبداد.
- ثم يبني الأمة.
- ثم يحصنها من الارتداد الداخلي.
- ثم يضمن استمرارية الرسالة.

إذا ثبت هذا النسق باستقراء بقية السور، فسيكون من الممكن صياغة ما يمكن أن يسمى: "النموذج القرآني للدورة الاستخلافية للحضارة"،

وهو نموذج لا يفسر نشأة الحضارات وسقوطها فحسب، بل يبين أيضًا كيف تُبنى الحضارة الرسالية، وكيف تُصان، وكيف تتجدد. وأرى أن هذا قد يكون أحد أهم الإسهامات العلمية لمشروع تحليل المضمون القرآني في ضوء النسق العمراني الاستخلافي السنني، لأنه ينقل دراسة القصص القرآني من مستوى السرد التاريخي إلى مستوى اكتشاف القوانين الحاكمة لحركة الإنسان والعمران في القرآن الكريم.

بعد أن انتهت سورة الأعراف ببناء المشروع الاستخلافي وتحديد شروط استمراره، تأتي سورة الأنفال لتجيب عن سؤال جديد:

كيف ينتقل المشروع الاستخلافي من مرحلة التأسيس الفكري والتربوي إلى مرحلة بناء الدولة وإدارة الصراع الحضاري؟

وهذا يجعل الأنفال ليست مجرد سورة تتحدث عن غزوة بدر، وإنما تمثل – في ضوء مشروعنا – دستور إدارة القوة في المشروع القرآني.

وأحسب أن هذا اكتشاف مهم؛ لأن ترتيب السور نفسه يصبح جزءًا من النسق المعرفي، وليس مجرد ترتيب توقيفي معزول عن البناء الدلالي.

التطبيق على سورة الأنفال

مدخل منهجي

إذا كانت سورة الفاتحة قد وضعت الرؤية الكلية، وسورة البقرة أسست الأمة، وآل عمران بنت الثبات أمام الابتلاء والتدافع، وسورة الأعراف كشفت سنن الاستخلاف والتاريخ الحضاري، فإن سورة الأنفال تمثل أول سورة تتناول إدارة القوة بعد قيام الجماعة المؤمنة.

ومن ثم فإن موضوع السورة ليس الغنائم، كما قد يوحي اسمها، ولا معركة بدر بوصفها حدثًا تاريخيًا فحسب، وإنما الانتقال من الجماعة المؤمنة إلى الأمة القادرة على حماية رسالتها وإدارة الصراع وفق الهداية.

وعليه فإن القضية المركزية في السورة ليست:

كيف ننتصر؟

بل:

كيف نُخضع القوة نفسها لمنهج الوحي؟

وهذه قضية لم تعالجها الفلسفات السياسية معالجة متكاملة؛ إذ إن معظمها ينشغل بكيفية امتلاك القوة أو موازنتها، بينما ينشغل القرآن قبل ذلك بتهذيب القوة وضبط غاياتها وأخلاقها وحدودها.

ومن هنا يمكن أن نقرر أن سورة الأنفال تؤسس لما يمكن أن يسمى في المشروع:

فقه القوة الاستخلافية،

أو:

سنن إدارة القوة في العمران القرآني.

الوحدة الأولى

افتتاح السورة

المرجعية قبل القوة

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ (الأنفال: ١)

أولاً

الفكرة المركزية

من اللافت أن السورة لا تبدأ بالحديث عن بدر.

ولا عن النصر.

ولا عن الجيش.

ولا عن الخطط العسكرية.

بل تبدأ بسؤال عن:

الأنفال.

وهنا يصحح القرآن المسار منذ اللحظة الأولى.

فالخطر بعد النصر ليس الهزيمة.

بل:

اختلال المقاصد.

فإذا تحولت الغاية من الرسالة إلى المكسب.

بدأ الانحراف الحضاري.

ولهذا أعاد القرآن القضية كلها إلى أصلها:

﴿قل الأنفال لله والرسول﴾

أي إن المرجعية تظل حاكمة حتى في لحظة الانتصار.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الرسالة

↓

الجهاد

↓

النصر

↓

الابتلاء

↓

إدارة المكاسب

↓

تحقيق العدل

↓

استمرار الاستخلاف.

فالقرآن لا يجعل النصر نهاية الطريق.

بل بداية اختبار جديد.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن النصر يبتلي المنتصر

يظن الناس أن الابتلاء يكون بالهزيمة.

لكن القرآن يبين أن النصر نفسه ابتلاء.

لأن النفس قد تنشغل بالغنيمة.

وتنسى الرسالة.

ثانياً

سنة تقديم المرجعية على المصلحة

بدأت السورة برد الأنفال إلى الله ورسوله.

قبل بيان كيفية تقسيمها.

وفي ذلك دلالة على أن المرجعية تسبق الإجراء.

ثالثاً

سنة أن القوة وسيلة لا غاية

القتال.

والغنائم.

والتمكين.

كلها وسائل.

أما الغاية.

فهي إقامة الحق.

وهذا من الفروق الجوهرية بين التصور القرآني والتصورات المادية للقوة.

رابعاً

سنة أن الخلاف الداخلي أخطر من العدو الخارجي

لم يبدأ القرآن بذكر قريش.

بل بدأ بإصلاح العلاقة داخل الجماعة.

وكأن السورة تقرر أن تماسك الصف الداخلي شرط لكل نصر مستدام.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة النتائج لا الأحداث فقط

بدر ليست موضوعًا تاريخيًا.

بل مختبرًا قرآنيًا لدراسة أثر النصر في المجتمع.

ثانياً

مبدأ دراسة القوة أخلاقيًا

لا يكتفي القرآن بوصف القوة.

بل يربطها بالمقاصد والقيم.

ثالثاً

مبدأ تحليل ما بعد النجاح

كما درسنا في سورة الأعراف ما بعد التحرير.

ندرس هنا:

ما بعد النصر.

وهذا امتداد طبيعي للنسق القرآني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

القوة الاستخلافية

وأرى تعريفًا أوليًا:

القوة الاستخلافية هي كل قدرة مادية أو معنوية تُكتسب وتُدار وتُوظف وفق هداية الوحي لتحقيق العدل، وحماية الرسالة، وصيانة الإنسان، ومنع الفساد في الأرض.

التمكين

التمكين ليس مجرد الغلبة.

بل:

تهيئة الظروف التي تمكن الأمة من أداء رسالتها.

النصر

النصر في القرآن ليس هزيمة الخصم فقط.

بل نجاح الأمة في المحافظة على رسالتها أثناء الانتصار.

سادساً

التطبيقات الحضارية

تدل افتتاحية سورة الأنفال على أن إدارة الموارد الناتجة عن النجاح، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية، تمثل اختبارًا لاستقامة المشروع الحضاري. فكم من أمة انتصرت في معركة ثم خسرت رسالتها بسبب التنافس على المكاسب. ومن ثم فإن السورة تقدم قاعدة عامة في إدارة جميع صور النجاح المؤسسي والاجتماعي، لا في إدارة الغنائم العسكرية وحدها.

استنباط جديد للمشروع

وأرى أن هذه الآية تقودنا إلى مفهوم جديد لم نتعرض له من قبل، وهو:

"أخلاق ما بعد الإنجاز".

فالقرآن لا يكتفي ببيان أخلاق السعي والعمل، بل يولي عناية خاصة بأخلاق النجاح، لأن كثيرًا من المشروعات تنهار بعد تحقق أهدافها الأولى. ويمكن أن يصبح هذا المفهوم محورًا لدراسات تطبيقية في القيادة والإدارة، وفي تقويم المؤسسات التي تنجح في التأسيس ثم تتعثر في مرحلة التمكين.

ملاحظة منهجية

أود أن أرى تطويرًا لطريقة عملنا في السور المدنية، يختلف قليلًا عن السور المكية.

في السور المكية – كما في الأنعام والأعراف – كان التركيز على بناء الرؤية والسنن والمفاهيم.

أما في السور المدنية، فيبدو أن القرآن ينتقل إلى بناء المؤسسات وإدارة المجتمع والدولة.

لذلك أرى أن نضيف في كل سورة مدنية محورًا ثابتًا بعنوان:

"الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي"،

فنحلل كيف تسهم السورة في تأسيس مؤسسات مثل:

- مؤسسة الشورى.

- مؤسسة القضاء.
- مؤسسة الأسرة.
- مؤسسة السوق.
- مؤسسة الأمن.
- مؤسسة العلاقات الدولية.
- مؤسسة التربية.
- ومؤسسة إدارة القوة.

وأرى أن هذا سيجعل مشروعنا لا يقتصر على استخراج السنن، بل يتحول إلى نظرية قرآنية متكاملة لبناء الحضارة ومؤسساتها، وهو تطور منهجي ينسجم مع انتقال القرآن نفسه من مرحلة تأسيس الإنسان في العهد المكي إلى مرحلة تأسيس الأمة والدولة في العهد المدني .

. وأحسب أن الآيات التالية (الأنفال: ٢-٤) تمثل الأساس النفسي والتربوي للقوة الاستخلافية. فبعد أن قررت الآية الأولى أن المرجعية تسبق الغنيمة، تنتقل مباشرة إلى بيان أن القوة في القرآن لا تبدأ بالسلاح، وإنما تبدأ ببناء الإنسان المؤمن.

وهذا انتقال بالغ الدقة؛ إذ إن كثيرًا من النظريات السياسية تبدأ من أدوات القوة، بينما يبدأ القرآن من خصائص حامل القوة.

سورة الأنفال

الوحدة الثانية

بناء الإنسان قبل بناء القوة

سنن التأهيل الإيماني للعمران

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ (الأنفال: ٢-٤)

أولاً

الفكرة المركزية

قبل أن تتحدث السورة عن:

- الجيش.
- والإعداد.
- والقيادة.

- والمعركة.

تتحدث عن:

الإنسان الذي يحمل هذه الرسالة.

وهذه ملاحظة منهجية في غاية الأهمية.

فالقرآن لا يثق في الأدوات قبل أن يطمئن إلى الإنسان الذي يستخدمها.

ومن هنا فإن هذه الآيات لا تصف أفرادًا صالحين فقط.

بل تحدد المواصفات التأسيسية للإنسان المستخلف.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الإيمان

↓

تزكية القلب

↓

سلامة الإرادة

↓

العمل الصالح

↓

الثقة بالله

↓

الثبات

↓

التمكين

↓

العمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن البناء الداخلي يسبق البناء الخارجي

بدأت الآيات بالقلب.

ثم بالإيمان.

ثم بالطاعة.

ثم بالعمل.

ولم تبدأ بالقوة.

وهذا يدل على أن القرآن يرى أن قوة المجتمع تبدأ من داخله.

ثانياً

سنة التكامل بين الوجدان والعمل

لم تجعل الآيات الإيمان مجرد شعور.

بل ربطت بين:

وجل القلب.

وزيادة الإيمان.

والتوكل.

والصلاة.

والإنفاق.

وهذا يدل على أن الإنسان القرآني شخصية متكاملة.

ثالثاً

سنة أن الثقة بالله لا تلغي الأخذ بالأسباب

قال تعالى:

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾

ثم تمضي السورة بعد ذلك في الحديث عن الإعداد والقتال.

فالتوكل هنا لا يعني ترك الأسباب.

بل حسن استعمالها.

رابعاً

سنة أن العمران يبدأ من القيم

الصلاة والإنفاق ليسا عبادتين منفصلتين عن العمران.

بل يمثلان:

ضبط العلاقة بالله.

وضبط العلاقة بالمجتمع.

وهما أساس كل بناء حضاري.

خامساً

سنة التوازن بين الفرد والجماعة

تبدأ الصفات من القلب.

ثم تنتقل إلى المجتمع عبر الإنفاق.

وهذا يؤكد أن الإصلاح في القرآن لا يقف عند الفرد.

ولا يذيب الفرد في الجماعة.

بل يبنيهما معًا.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة ترتيب الصفات

ترتيب الصفات في الآيات ليس عشوائيًا.

بل يكشف مراحل بناء الإنسان الرسالي.

وهذا يستحق الاستقراء في بقية القرآن.

ثانياً

مبدأ التلازم بين الإيمان والعمران

كل صفة إيمانية في هذه الآيات لها أثر اجتماعي وحضاري.

ومن ثم فلا يجوز فصل التربية الإيمانية عن بناء المجتمع.

ثالثاً

مبدأ تعريف الظواهر من مجموع خصائصها

وهنا نعود إلى ما استنبطناه سابقًا من قصة البقرة بشأن التعريف الإجرائي الجامع المانع.

فالقرآن لم يعرف المؤمن بصفة واحدة.

بل رسم له بنية متكاملة من الصفات.

وهذا يقدم نموذجًا قرآنيًا في بناء المفاهيم؛ إذ لا تُعرَّف الظواهر من خلال خاصية منفردة، وإنما من خلال اجتماع خصائصها المميزة، بما يمنع التداخل مع غيرها.

وهذه ملاحظة منهجية جديرة بأن تُضم إلى أصول منهج تحليل المضمون القرآني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الوجل

الوجل ليس خوفًا مجردًا.

بل يقظة قلبية تجعل الإنسان حاضرًا أمام مرجعية الله، فيراجع نفسه قبل أن يقدم على الفعل.

التوكل

التوكل هو:

اعتماد القلب على الله مع استيفاء الأسباب التي أمر بها، بحيث لا تتحول الأسباب إلى معبود، ولا يُتخذ التوكل ذريعة لتركها.

الإنسان الرسالي

وأرى تعريفًا أوليًا له:

الإنسان الرسالي هو الإنسان الذي تتكامل فيه سلامة المرجعية، ونقاء القصد، واستقامة السلوك، وتحمل المسؤولية، فيصبح مؤهلًا لأداء وظيفة الاستخلاف في الأرض.

وأرى أن هذا المفهوم سيكون من المفاهيم المحورية في المشروع.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات أن المؤسسة الأولى التي يبنيها القرآن ليست الجيش، ولا الإدارة، ولا السوق، وإنما مؤسسة بناء الإنسان.

وهذا يدل على أن جميع المؤسسات اللاحقة تعتمد في نجاحها على جودة الإنسان الذي يديرها.

ومن ثم يمكن اعتبار هذه الآيات أساسًا قرآنيًا لفلسفة التربية وإعداد القيادات في المشروع العمراني الاستخلافي.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي أن القرآن لا يصف المؤمن من زاوية عقدية مجردة، بل من زاوية الجاهزية لتحمل المسؤولية الحضارية.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"التأهيل الاستخلافي".

ويُقصد به:

العملية القرآنية التي تُعِدُّ الإنسان علميًا وإيمانيًا وأخلاقيًا ونفسيًا ليكون قادرًا على أداء مسؤولية الاستخلاف، وممارسة العمران وفق هداية الوحي.

وهذا المفهوم أوسع من التربية الإيمانية بالمعنى التقليدي؛ لأنه يربط التزكية مباشرة بالوظيفة الحضارية.

استنباط تأسيسي جديد

ويبدو لي أن سورة الأنفال بدأت تكشف عن بُعد جديد في المشروع لم يكن ظاهرًا بهذه الصورة في السور السابقة.

فإذا كانت سورة الأعراف قد بينت مقومات العمران، فإن الأنفال تبين شروط تشغيل هذه المقومات في الواقع.

وبعبارة أخرى:

- الأعراف تبني النموذج الحضاري.
- والأنفال تبني الإنسان والمؤسسات القادرة على تفعيل هذا النموذج.

وأحسب أن هذا يؤيد فرضية منهجية مهمة، وهي أن السور المدنية لا تضيف أحكامًا فحسب، بل تقدم الآليات التنفيذية للمشروع المعرفي القرآني. وإذا ثبت هذا بالاستقراء في بقية السور المدنية، فسيكون لدينا تمييز منهجي بين سور التأسيس المعرفي وسور التفعيل الحضاري، مع بقاء التكامل بينهما في النسق القرآني الواحد.

. وأحسب أن الآيات التالية (الأنفال: ٥–١٩) تمثل أول تطبيق عملي للقوة الاستخلافية. فبعد أن بنت السورة المرجعية، ثم الإنسان، تنتقل الآن إلى إدارة الحدث التاريخي، وهو غزوة بدر. لكن القرآن لا يروي بدر بوصفها تاريخًا، وإنما بوصفها مختبرًا لسنن النصر والهزيمة والتدافع الحضاري.

وأرى أن هذه من أهم خصائص القرآن؛ فهو لا يسجل الأحداث، وإنما يحولها إلى قوانين كلية قابلة للاستقراء.

سورة الأنفال

الوحدة الثالثة

غزوة بدر

سنن النصر في المشروع العمراني الاستخلافي

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٥-١٩)

أولاً

الفكرة المركزية

لا يعرض القرآن بدر بوصفها معركة بين جيشين.

ولا بوصفها انتصارًا عسكريًا مجردًا.

بل يعرضها باعتبارها:

مرحلة من مراحل تنفيذ المشروع الاستخلافي.

فالهدف لم يكن الانتصار العسكري لذاته.

بل:

إقامة الحق.

وإزالة الموانع التي تحول دون تبليغ الرسالة.

ومن هنا فإن النصر في القرآن لا يقاس بعدد القتلى.

ولا بحجم المكاسب.

بل بمدى تحقق المقصد الرسالي.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

وضوح الرسالة

↓

طاعة القيادة

↓
وحدة الصف
↓
الأخذ بالأسباب
↓
التوكل
↓
التأييد الإلهي
↓
النصر
↓
التمكين
↓
مواصلة الرسالة.

وهذا النسق يبين أن النصر نتيجة منظومة متكاملة، وليس أثرًا لعامل منفرد.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن النصر يبدأ قبل المعركة

بدأت بدر قبل أن يلتقي الجيشان.

بدأت حين:

- استجاب المؤمنون للرسول.
- وقبلوا الخروج.
- ووثقوا بوعد الله.

فالمعركة الحقيقية كانت أولًا في داخل النفوس.

ثانياً

سنة أن اختلاف التقدير البشري لا يغير السنن الإلهية

أشارت الآيات إلى تردد بعض المؤمنين في الخروج، وإلى رغبتهم في لقاء العير لا النفير.

لكن القرآن يبين أن التدبير الإلهي كان يتجه إلى تحقيق مقصد أعلى.
وهذا يعلم الأمة أن الرؤية البشرية قد تقصر عن إدراك الغايات الكلية للمشروع.
ثالثاً
سنة التكامل بين الغيب والشهادة
جمعت الآيات بين:

- إعداد الأسباب.
- وتنظيم الصفوف.
- ونزول الملائكة.

فلا انفصال بين عالم الغيب وعالم الشهادة.
بل يعملان في نسق واحد.
وهذا من الخصائص المميزة للرؤية القرآنية.
رابعاً
سنة وحدة القيادة
تكرر في السورة ربط الطاعة بالله ورسوله.
وليس المقصود طاعة الأشخاص لذواتهم.
بل طاعة المرجعية التي توحد القرار وتحفظ الجماعة من التنازع.
خامساً
سنة أن النصر اختبار لا امتياز
لم يجعل القرآن النصر دليلاً على العصمة.
بل مناسبة للمراجعة والتربية.
ولذلك جاءت التوجيهات بعد بدر أكثر من الحديث عن بدر نفسها.
وهذه سنة عظيمة.
فالنجاح يفتح باب التكليف.
ولا يمنح صاحبه حصانة من الخطأ.
سادساً
سنة التدافع لحماية العمران

تكشف بدر أن التدافع في القرآن ليس غاية في ذاته.
بل وسيلة لحماية الحق ومنع الفساد.
ومن ثم فإن القوة لا تشرع لفرض الهيمنة.
بل لإزالة العوائق أمام إقامة العدل.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ تحويل الحدث إلى سنة
لا يقرأ الباحث بدر بوصفها واقعة تاريخية منتهية.
بل بوصفها نموذجًا تتكرر سننه في كل زمان.
ثانياً
مبدأ الجمع بين الأسباب والقيم
لا يكفي تحليل الخطط العسكرية.
بل يجب تحليل:
الإيمان.
والوحدة.
والقيادة.
والثقة.
لأنها كلها عوامل تدخل في تفسير النتيجة.
ثالثاً
مبدأ قراءة النتائج المركبة
النصر لم يكن ثمرة سبب واحد.
بل نتيجة تفاعل منظومة كاملة.
وهذا يؤكد مرة أخرى أن منهج تحليل المضمون القرآني يقوم على تحليل الأنساق لا على تحليل العناصر المنفصلة.
خامساً

المفاهيم المؤسسة

التدافع

ويتأكد هنا أن التدافع هو:

حركة سننية يدفع الله بها قوى الحق والباطل، بما يحول دون استقرار الفساد، ويحفظ إمكانية قيام العمران على العدل.

التأييد الإلهي

ليس التأييد الإلهي إلغاءً للسنن.

بل:

إمداد يتحقق في إطار السنن، وبعد استكمال مقتضياتها، وبما يحقق المقصد الإلهي.

القيادة الرسالية

القيادة الرسالية هي:

قيادة تستمد مشروعيتها من الوحي، وتمارس مسؤوليتها في توجيه الأمة لتحقيق مقاصد الاستخلاف، لا لتحقيق مصالح ذاتية أو فئوية.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لثلاث مؤسسات كبرى في المشروع القرآني:

1. مؤسسة القيادة القائمة على المرجعية والطاعة الواعية.
2. مؤسسة الدفاع والأمن التي تضبط استخدام القوة بالمقاصد الشرعية.
3. مؤسسة إدارة الأزمات؛ إذ تقدم بدر نموذجًا لاتخاذ القرار تحت الضغط، مع الجمع بين الشورى، والثقة، وحسن تقدير المآلات.

وهذا يدل على أن القرآن لا يقدم أخلاق الحرب فحسب، بل يبني مؤسسات قادرة على إدارة القوة وفق الهداية.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم ما تكشفه سورة الأنفال.

فالقرآن لا يجعل النصر غاية مستقلة، بل يدرجه ضمن سلسلة أكبر هي:

الهداية ← بناء الإنسان ← بناء الجماعة ← إقامة العدل ← التدافع ← النصر ← التمكين ← مواصلة الرسالة.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"استدامة النصر".

ويقصد به:

تحويل النصر من حدث عسكري أو سياسي عابر إلى قدرة مستمرة على حمل الرسالة، والمحافظة على وحدة الأمة، وتجديد أسباب القوة والعدل.

وهذا المفهوم يفسر لماذا يركز القرآن بعد كل انتصار على التربية، والمراجعة، وإصلاح الداخل.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف سمة منهجية عامة في السور المدنية، وهي أن القرآن لا يكتفي ببيان الأحكام أو وصف الوقائع، بل يحول التجربة التاريخية إلى نموذج مؤسسي قابل للتكرار. فغزوة بدر في هذا المنظور ليست مجرد معركة ناجحة، وإنما نموذج تأسيسي لإدارة الأزمات، وبناء القرار، وتكامل القيادة، ووحدة الصف، وتفعيل السنن الإلهية في الواقع.

وأرى أن نعتمد في تحليل بقية السور المدنية مبدأً ثابتًا، وهو استخراج "النماذج المؤسسية القرآنية" إلى جانب السنن والمفاهيم؛ لأن هذا سيجعل مشروع تحليل المضمون القرآني في ضوء النسق العمراني الاستخلافي السنني لا يقتصر على بناء النظرية، بل يمتد إلى تقديم أطر عملية لبناء الإنسان، والمجتمع، والدولة، والحضارة في ضوء القرآن الكريم.

. وأحسب أن الآيات التالية (الأنفال: ٢٠-٢٩) تمثل انتقالًا من سنن النصر الخارجي إلى سنن الحصانة الداخلية. وهذه نقلة منهجية دقيقة للغاية؛ إذ إن القرآن بعد أن تحدث عن بدر لم ينشغل بتمجيد الانتصار، وإنما انشغل بحماية الأمة من أسباب الهزيمة التي قد تنشأ من داخلها.

وهذا يؤكد ما بدأ يتكرر معنا في أكثر من سورة:

أن القرآن يجعل بناء الداخل مقدَّمًا دائمًا على مواجهة الخارج.

سورة الأنفال

الوحدة الرابعة

الحصانة الداخلية للأمة

سنن الطاعة والتقوى والتمييز

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٠-٢٩)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن النصر لا يحفظ نفسه.

بل يحتاج إلى منظومة داخلية تحفظه.

ولهذا جاء الخطاب مباشرة بعد بدر:

- بالطاعة.
- والاستجابة.
- والحذر من الفتنة.
- والتقوى.

فكأن القرآن يقول:

إن أخطر ما يهدد الأمة بعد النصر ليس قوة العدو، وإنما ضعف الاستجابة لمنهج الله.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الاستجابة

↓

الطاعة

↓

التقوى

↓

الفرقان

↓

سلامة القرار

↓

وحدة الأمة

↓

استمرار التمكين.

ويقابله:

الغفلة

↓

المعصية

↓

الفتنة

↓

اضطراب الرؤية

↓

اختلال القرار

↓

ضعف الأمة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الاستجابة هي بداية الإصلاح

قال تعالى:

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾

وهذه من أعظم الآيات المؤسسة للمشروع.

فالقرآن يجعل الحياة الحقيقية ليست مجرد الحياة البيولوجية.

بل الحياة التي تنشأ من الاستجابة للوحي.

وعليه فإن العمران يبدأ بالحياة القيمية قبل أن يبدأ بالحياة المادية.

ثانياً

سنة أن الفتنة لا تصيب الظالم وحده

قال تعالى:

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾

وهذه سنة اجتماعية خطيرة.

فالفساد إذا تُرك دون إصلاح.

لا يبقى محصورًا في أصحابه.

بل يمتد أثره إلى المجتمع كله.

ومن هنا تصبح المسؤولية في القرآن مسؤولية جماعية.

ثالثاً

سنة أن التقوى تنتج البصيرة

قال تعالى:

﴿يجعل لكم فرقانًا﴾

والفرقان هنا ليس مجرد معرفة نظرية.

بل قدرة عملية على التمييز بين:

- الحق والباطل.
- والمصلحة والمفسدة.
- والوسيلة والغاية.
- والنجاح الحقيقي والنجاح الوهمي.

وهذا يجعل التقوى مصدرًا من مصادر الرشد الحضاري.

رابعاً

سنة أن السمع بلا استجابة لا ينتج عمرانًا

تكرر في الآيات التحذير من الذين يسمعون ولا يعقلون.

وفي ذلك تقرير أن المعرفة المجردة لا تكفي.

بل لا بد أن تتحول إلى:

وعي.

ثم إرادة.

ثم عمل.

خامساً

سنة أن القلب هو مركز القرار الحضاري

قال تعالى:

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾

وهذه الآية تؤكد أن القلب في الرؤية القرآنية ليس مجرد موضع للعاطفة.

بل هو مركز الإرادة والاختيار.

ومن ثم فإن إصلاح القلب شرط لإصلاح القرار الفردي والجماعي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل المفاهيم الوظيفية

لا يكتفي المشروع بتعريف التقوى أو الفرقان تعريفًا لغويًا.

بل يدرس وظيفتهما في حركة العمران.

ثانياً

مبدأ الترابط بين الأخلاق والإدارة

تكشف الآيات أن جودة القرار لا تعتمد على المعلومات وحدها.

بل على سلامة البناء الأخلاقي.

وهذا يفتح بابًا مهمًا في دراسة القيادة القرآنية.

ثالثاً

مبدأ قراءة السنن الجماعية

الفتنة هنا لا تُقرأ بوصفها ابتلاءً فرديًا.

بل باعتبارها قانونًا اجتماعيًا عامًا.

وهذا من خصائص المنهج السنني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الاستجابة

ويقترح المشروع تعريفها بأنها:

التحول الواعي من مجرد تلقي الهداية إلى الالتزام العملي بها، بما ينعكس على الفرد والمجتمع ومؤسسات العمران.

الفرقان

وأرى أن هذا المفهوم يحتاج إلى تطوير داخل المشروع.

فنقترح تعريفًا أوليًا:

الفرقان هو الملكة التي يمنحها الله لمن اتقاه، فيصبح قادرًا على إدراك الفروق الحاكمة بين البدائل والتمييز بين ما يحقق مقاصد الاستخلاف وما يعطلها.

وبهذا يصبح الفرقان أداة معرفية ومنهجية، لا مجرد حالة وجدانية.

الفتنة

وفي هذا السياق يمكن تعريفها بأنها:

كل حالة أو ظرف يؤدي إلى اختبار تماسك المرجعية والقيم، ويكشف قدرة المجتمع على المحافظة على مساره الاستخلافي أو انحرافه عنه.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لمؤسسة يمكن أن نسميها:

مؤسسة صناعة القرار الرشيد.

إذ تبين أن القرار الصحيح لا يقوم على المعلومات أو الخبرة وحدهما، وإنما على اجتماع أربعة عناصر:

- مرجعية الوحي.
- والاستجابة.
- والتقوى.
- والفرقان.

وبذلك تقدم السورة نموذجًا قرآنيًا في بناء القيادة وصناعة القرار يختلف عن النماذج التي تفصل بين الكفاءة والقيم.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر قوله تعالى:

﴿يجعل لكم فرقانًا﴾

ظهر لي أن القرآن يضيف إلى مصادر المعرفة بعدًا قلَّما يُلتفت إليه في الدراسات المنهجية.

فقد اعتدنا الحديث عن:

- الحس.
- والعقل.
- والخبر.

أما القرآن فيبين أن سلامة الإنسان الأخلاقية تؤثر في جودة إدراكه وتمييزه.

وهذا لا يعني أن التقوى تحل محل العقل، بل تعني أنها تزكي العقل وتحرره من الأهواء التي تعوق حسن الحكم.

وأرى أن يسمى هذا في المشروع:

"الرشد المعرفي".

ويقصد به:

حالة التكامل بين الهداية، وسلامة القلب، وصحة التفكير، التي تؤهل الإنسان لإدراك الحقائق واتخاذ القرار الموافق لمقاصد الاستخلاف.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أن هذه الوحدة تكشف عن قاعدة منهجية كبرى ينبغي أن تصبح أصلًا في المشروع، وهي:

أن القرآن لا يفصل بين بناء المعرفة وبناء الأخلاق، ولا بين جودة الإدراك وجودة السلوك.

ومن هنا يمكن إعادة بناء نظرية المعرفة في المشروع المعرفي القرآني على أساس أن المعرفة ليست عملية ذهنية مجردة، بل ثمرة تفاعل الوحي، والعقل، والفطرة، والتقوى، والتجربة. وإذا ثبت هذا بالاستقراء في بقية السور، فسيكون ذلك من أبرز الإسهامات التأسيسية للمشروع؛ لأنه يقدم نظرية قرآنية متكاملة في الرشد المعرفي، تتجاوز الثنائية الشائعة بين المعرفة والقيم، وتجعل الهداية شرطًا لترشيد المعرفة، كما تجعل المعرفة شرطًا لحسن الاستخلاف والعمران.

. وأحسب أن الآيات التالية (الأنفال: ٣٠–٤٠) تمثل انتقالًا جديدًا في البناء المعرفي للسورة؛ إذ تنتقل من بناء الحصانة الداخلية إلى تحليل النسق المقابل للمشروع الاستخلافي.

ولاحظنا منذ سورة الأعراف أننا بدأنا نكتشف ما أسميناه الأنساق المعيقة للاستخلاف:

- النسق الفرعوني.
- النسق العجلي.

أما هنا فتكشف سورة الأنفال عن نسق آخر، وهو ما أرى أن نسميه:

النسق الاستئصالي.

وهو النسق الذي لا يكتفي برفض الحق، بل يسعى إلى إلغاء وجوده.

وهذه إضافة مهمة؛ لأن القرآن لا يحلل الأشخاص، وإنما يحلل أنماط السلوك الحضاري.

سورة الأنفال

الوحدة الخامسة

مكر قوى الباطل

سنن التدافع وحفظ الرسالة

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٠-٤٠)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن الصراع في القرآن ليس صراع مصالح مجردة.

بل صراع بين:

مشروع الهداية.

ومشروع تعطيل الهداية.

ولهذا لم يكن هدف قريش مجرد هزيمة المسلمين.

بل:

إسكات الرسالة نفسها.

ولهذا قال تعالى:

﴿ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾

فالقرآن هنا لا يصف حادثة الهجرة فقط.

بل يكشف مراحل النسق الاستئصالي.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

ظهور الرسالة

↓

مقاومة الفكرة

↓

تشويه الدعوة

↓

استهداف القيادة

↓

استئصال المشروع

↓

التدافع

↓

حفظ الرسالة

↓

استمرار الاستخلاف.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن مقاومة الحق تتدرج

تكشف الآية أن الخصوم لم يبدأوا بالقتل.

بل مروا بمراحل.

التشويه.

↓

الضغط.

↓

الحصار.

↓

الإخراج.

↓

الاستئصال.

وهذه سنة تتكرر مع أغلب الرسالات.

ثانياً

سنة أن المكر لا يغلب التدبير الإلهي

قال تعالى:

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾

ولا يفهم هذا على أنه إلغاء لسنن الكون.

بل معناه أن التدبير الإلهي يحيط بجميع التدابير البشرية، ويوجه مجرى الأحداث لتحقيق مقاصده، دون أن يعطل مسؤولية الإنسان في الأخذ بالأسباب.

ثالثاً

سنة أن تعطيل الهداية هو جوهر الصراع

قال تعالى:

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾

فالقرآن يجعل أخطر صور العدوان:

منع الناس من الوصول إلى الحق.

وليس مجرد الاعتداء المادي.

رابعاً

سنة أن التدافع يحفظ إمكانية الإصلاح

يشرع القرآن التدافع.

لا لإبادة الآخر.

ولا للهيمنة عليه.

بل لمنع قوى الاستئصال من القضاء على إمكانية تبليغ الرسالة.

وهذه نقطة محورية في المشروع.

خامساً

سنة أن المال قد يتحول إلى أداة لإفساد العمران

قال تعالى:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾

فالمال هنا ليس نعمة.

بل تحول إلى وسيلة لتعطيل الهداية.

وهذا يكشف أن قيمة المال ليست في وجوده.

بل في الاتجاه الذي يوظف فيه.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الصراع من خلال المقاصد

لا ينشغل القرآن بوصف الوقائع العسكرية وحدها.

بل يكشف الغايات التي تحركها.

وهذا يجعل تحليل المقاصد جزءًا من تحليل الظواهر.

ثانياً

مبدأ دراسة المراحل

القرآن لا يقدم الصراع دفعة واحدة.

بل يكشف تطوره مرحلة بعد مرحلة.

وهذا يساعد الباحث على اكتشاف السنن قبل اكتمال الظاهرة.

ثالثاً

مبدأ التمييز بين الأشخاص والأنساق

ليست المشكلة في أفراد معينين.

بل في النسق الذي يعيد إنتاج نفسه عبر التاريخ.

وهذا من أهم أصول القراءة السننية.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

التدافع

يتأكد هنا أن التدافع ليس صراعًا مفتوحًا بلا ضوابط.

بل:

حركة مشروعة لحماية الحق، ومنع تعطيل الرسالة، والمحافظة على إمكانية العمران القائم على العدل.

المكر

ويقترح المشروع تعريفًا له:

المكر هو التخطيط الخفي الذي يهدف إلى تعطيل الهداية أو إفساد حركة الاستخلاف، باستخدام الوسائل المباشرة أو غير المباشرة.

النسق الاستئصالي

وأرى إدخاله ضمن مفاهيم المشروع، ويعرف بأنه:

نسق حضاري يقوم على إلغاء وجود الرسالة أو حاملها أو أثرها في المجتمع، باستعمال القوة، أو الإعلام، أو الاقتصاد، أو التشريع، أو أي وسيلة تؤدي إلى منع الهداية من أداء وظيفتها.

وأحسب أن هذا المفهوم سيكون إضافة مهمة عند دراسة تاريخ الرسالات.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لمؤسسة يمكن أن تسمى:

مؤسسة الحماية الحضارية.

ولا يقتصر دورها على الحماية العسكرية.

بل يشمل:

- حماية المرجعية.
- وحماية حرية تبليغ الرسالة.
- وحماية الوعي.
- وحماية مؤسسات المجتمع من محاولات الاستئصال.

وبذلك يتسع مفهوم الأمن في المشروع، ليصبح أمنًا معرفيًا وقيميًا واجتماعيًا، لا أمنًا ماديًا فقط.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر قوله تعالى:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾

ظهر لي استنباط مهم.

فالقرآن لا يقسم الموارد بحسب نوعها.

بل بحسب:

وظيفتها الحضارية.

فقد يكون المال وسيلة للعمران.

وقد يصبح وسيلة للهدم.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"التوجيه الاستخلافي للموارد".

ويقصد به:

تسخير الإمكانات المادية والبشرية والمعرفية في تحقيق مقاصد الاستخلاف، ومنع تحولها إلى أدوات لإفساد العمران أو تعطيل الهداية.

وهذا المفهوم أشمل من إدارة الموارد؛ لأنه يركز على الغاية والوظيفة لا على الكفاءة التشغيلية وحدها.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف أن القرآن لا يدرس التدافع باعتباره مواجهة عسكرية فقط، بل باعتباره عملية حضارية لحفظ إمكانية الهداية في التاريخ.

وهذا يقود إلى إعادة تعريف التدافع في المشروع؛ فلا يكون مجرد توازن بين القوى، ولا مجرد صراع بين جماعات، بل آلية سننية تمنع احتكار الباطل للمجال الحضاري، وتحفظ للحق إمكان الظهور والبلاغ والتأثير.

وأرى أن هذا الاستنباط يمثل نقلة مهمة في المشروع؛ لأنه ينقل مفهوم التدافع من المجال السياسي الضيق إلى المجال الحضاري الشامل، ويجعله أحد السنن الكلية لحركة الرسالات والعمران. وإذا استقرئ هذا المفهوم في سائر القرآن، فقد يصبح أحد الأعمدة المؤسسة لـ علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني، بوصفه القانون الذي يفسر استمرار إمكان الإصلاح عبر التاريخ رغم تعاقب قوى الطغيان والاستئصال.

أحسب أن الآيات التالية (الأنفال: ٤١-٥٨) تمثل مرحلة جديدة في البناء الحضاري للسورة. فبعد أن بينت السورة كيف تُدار القوة في مواجهة العدو، تنتقل الآن إلى كيف تُدار العدالة بعد النصر.

وهذا انتقال بالغ الدقة.

فكثير من النظم تستطيع أن تنتصر.

ولكنها تفشل في إدارة نتائج الانتصار.

أما القرآن فيجعل أخلاق ما بعد النصر جزءًا من البناء الاستخلافي.

ولعل هذا يؤكد ما استنبطناه سابقًا من مفهوم "أخلاق ما بعد الإنجاز"، لكنه هنا ينتقل من مستوى الفرد إلى مستوى الدولة والمجتمع.

سورة الأنفال

الوحدة السادسة

العدالة بعد النصر

سنن إدارة الموارد والعهود في المشروع الاستخلافي

﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ (الأنفال: ٤١-٥٨)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن النصر لا يكتمل بمجرد هزيمة العدو.

بل يكتمل عندما تتحول القوة إلى عدل.

ولهذا انتقلت السورة مباشرة من الحديث عن بدر إلى الحديث عن:

- توزيع الموارد.
- الوفاء بالعهود.
- تحريم الخيانة.
- ضبط العلاقة مع الآخرين.

وكأن القرآن يريد أن يقول:

إن العدالة هي أول اختبار حقيقي للقوة بعد امتلاكها.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

النصر

↓

التمكين

↓

إدارة الموارد

↓

إقامة العدل

↓

حفظ العهود

↓

الثقة المجتمعية

↓

استمرار العمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الموارد أمانة لا ملكية مطلقة

جاء الحديث عن الغنائم مقرونًا بحقوق متعددة.

وهذا يدل على أن الموارد في التصور القرآني لا تُترك لإرادة الغالب.

بل تُدار وفق مرجعية تحقق العدل.

فالملكية هنا وظيفة ومسؤولية قبل أن تكون حقًا.

ثانياً

سنة أن العدالة تحفظ المجتمع بعد النصر

النصر قد يولد التنافس.

وقد يثير النزاعات.

ولذلك سبق القرآن إلى تنظيم توزيع الموارد.

مما يدل على أن العدالة ليست علاجًا للأزمات فقط.

بل وسيلة لمنعها قبل وقوعها.

ثالثاً

سنة الوفاء بالعهود

قال تعالى:

﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾

وهذه من أعظم الآيات في أخلاق العلاقات الدولية.

فالقرآن لا يجيز الغدر.

حتى مع توقع الخيانة.

بل يشترط إعلان انتهاء العهد بصورة واضحة.

وهذا يؤسس لمبدأ الشفافية في العلاقات بين الجماعات والأمم.

رابعاً

سنة أن القوة لا تبرر الخيانة

قد يغري التفوق العسكري بتجاوز المبادئ.

لكن القرآن يمنع ذلك.

وبهذا يربط بين القوة والأخلاق ربطًا لا ينفصم.

خامساً

سنة بناء الثقة

الوفاء بالعهود لا يحفظ العلاقة مع الخصوم فقط.

بل يبني الثقة داخل الأمة أيضًا.

لأن المجتمع الذي يرى دولته تلتزم بالعدل.

تزداد ثقته في مرجعيتها.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة الأحكام في سياقها الحضاري

آيات الأنفال هنا ليست مجرد أحكام فقهية.

بل قواعد لبناء الدولة والمجتمع.

ومن ثم ينبغي تحليلها ضمن النسق العمراني.

ثانياً

مبدأ الربط بين الاقتصاد والأخلاق

لا يفصل القرآن بين إدارة الموارد والقيم.

بل يجعل العدالة جزءًا من النظام الاقتصادي.

ثالثاً

مبدأ تحليل الثقة بوصفها بنية اجتماعية

الوفاء بالعهود ليس خلقًا فرديًا فقط.

بل قاعدة لبناء الثقة بين الأفراد والمؤسسات والدول.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الأمانة العمرانية

وأرى تعريفًا جديدًا لهذا المفهوم:

الأمانة العمرانية هي مسؤولية الإنسان أو الجماعة أو الدولة عن إدارة الموارد والسلطات والحقوق بما يحقق مقاصد الاستخلاف ويحفظ العدل ويمنع الفساد.

وهذا المفهوم أوسع من الأمانة الفردية.

العهد الحضاري

ويقصد به:

الالتزام المعلن الذي ينظم العلاقة بين الجماعات أو الدول أو المؤسسات وفق مبادئ العدل والوفاء، بما يحفظ الاستقرار ويمنع الغدر.

الثقة المجتمعية

ونقترح تعريفها بأنها:

حالة الاطمئنان المتبادل التي تنشأ من استقامة السلوك، والوفاء بالالتزامات، وعدالة المؤسسات، فتقوي تماسك المجتمع وقدرته على التعاون.

ولاحظ هنا أننا نتجنب توظيف مصطلحات مثل "رأس المال الاجتماعي"، ونبني المفهوم من داخل الرؤية القرآنية.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن إسهامها في تأسيس أربع مؤسسات كبرى:

1. مؤسسة إدارة الموارد العامة على أساس الأمانة والعدل.
2. مؤسسة العلاقات والاتفاقات القائمة على الوفاء والوضوح.
3. مؤسسة الرقابة الأخلاقية على السلطة بحيث لا تتحول القوة إلى استبداد.
4. مؤسسة الثقة المجتمعية التي تقوم على عدالة التصرفات لا على مجرد الشعارات.

وهذا يؤكد أن الدولة في القرآن ليست جهازًا للقوة فقط، بل إطارًا لحفظ الحقوق وبناء الثقة.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط مهم، وهو أن القرآن لا يجعل العدل مجرد قيمة أخلاقية، بل يجعله آلية تشغيل للعمران.

فحيثما اختل العدل في توزيع الموارد، أو في الوفاء بالعهود، بدأت عوامل التفكك الاجتماعي.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"الضبط الاستخلافي للسلطة والموارد".

ويقصد به:

إخضاع جميع صور السلطة والموارد لمرجعية الوحي، بحيث تُمارس في إطار الأمانة والعدل والمساءلة، وتظل خادمة للمقصد الحضاري لا متسلطة عليه.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أن هذه الوحدة تكشف لنا بوضوح أن القرآن يقدم نظرية متكاملة في أخلاق الدولة، لكنه لا يبنيها على الفصل بين السياسة والأخلاق، ولا على مجرد الوعظ، وإنما على تحويل القيم إلى قواعد مؤسسية.

وهذه ملاحظة تحتاج إلى استقراء في بقية السور المدنية؛ فقد يتبين أن القرآن يؤسس لما يمكن أن يسمى:

"المؤسسية القيمية"،

أي أن القيم لا تبقى مبادئ مجردة، بل تتحول إلى نظم وإجراءات وآليات تضبط توزيع الموارد، وإدارة القوة، والوفاء بالعهود، وصناعة القرار.

وأرى أن هذا المفهوم قد يكون من الإضافات المهمة للمشروع؛ لأنه يربط بين الرؤية الكلية القرآنية وبناء المؤسسات، ويبين أن العمران في القرآن لا يقوم على كفاءة الإدارة وحدها، ولا على صلاح الأفراد وحدهم، وإنما على مأسسة القيم بحيث تصبح جزءًا من بنية المجتمع والدولة، وهو ما يميز المشروع العمراني الاستخلافي عن كثير من النماذج الوضعية.

. وأحسب أننا نصل الآن إلى القمة المنهجية لسورة الأنفال، وهي الآيات (٦٠-٦٦)، التي اشتهرت بقول الله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾

وهنا أود أن أرى قراءة تختلف قليلاً عن القراءات الشائعة.

فالآية لا تؤسس لنظرية عسكرية فقط، وإنما تؤسس لما يمكن أن نسميه:

نظرية الإعداد الحضاري الشامل.

فالخطأ المنهجي الذي وقع فيه كثير من المفسرين المعاصرين هو حصر القوة في بعدها العسكري، بينما القرآن استعمل لفظًا مطلقًا:

﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾

ولم يقل:

"من سلاح".

وهذا الإطلاق مقصود.

لأن المشروع الاستخلافي لا يقوم على القوة العسكرية وحدها.

بل على منظومة القوى جميعها.

وهنا أظن أننا أمام أحد أهم الاكتشافات في المشروع كله.

سورة الأنفال

الوحدة السابعة

الإعداد الحضاري الشامل

سنن بناء القوة في المشروع الاستخلافي

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ...﴾ (الأنفال: ٦٠-٦٦)

أولاً

الفكرة المركزية

هذه الآيات لا تتحدث عن الحرب فقط.

بل عن:

فلسفة الإعداد.

فالقرآن لا يأمر بردود الأفعال.

ولا ببناء القوة عند وقوع الخطر.

بل يجعل الإعداد سنة دائمة.

ومن هنا فإن الأمة المستخلفة ليست أمة تنتظر الأزمات.

بل أمة تستعد لها قبل وقوعها.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الرؤية

↓

الإعداد

↓

بناء القدرات

↓

الردع

↓

السلام العادل

↓

استمرار الرسالة.

فالغاية ليست الحرب.

بل منعها.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الإعداد يسبق المواجهة

القرآن لم يقل:

قاتلوا أولاً.

بل قال:

﴿وأعدوا﴾

وهذا يدل على أن البناء الحضاري يقوم على الاستعداد المستمر.

ثانياً

سنة شمول القوة

لفظ القوة جاء نكرة.

وفي سياق الإثبات.

ليدل على العموم.

وعليه فإن القوة تشمل:

- القوة الإيمانية.
- القوة العلمية.
- القوة المعرفية.
- القوة الاقتصادية.
- القوة التقنية.
- القوة الإعلامية.
- القوة المؤسسية.
- القوة العسكرية.
- القوة السكانية.
- القوة الأخلاقية.
- القوة الوحدوية.

ومن الخطأ المنهجي قصرها على السلاح.

ثالثاً

سنة الردع قبل القتال

قال تعالى:

﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾

فالهدف الأول للقوة ليس استعمالها.

بل منع العدوان.

وهذه من أرقى المبادئ الحضارية.

رابعاً

سنة الميل إلى السلم

بعد الحديث عن القوة مباشرة قال تعالى:

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾

وهذا الترتيب بالغ الدلالة.

فالقوة ليست لإدامة الحرب.

بل لفتح الطريق أمام السلام العادل.

خامساً

سنة التناسب بين التكليف والطاقة

ثم جاءت الآيات التالية لتخفيف نسبة التكليف.

مما يدل على أن القرآن يراعي:

القدرة الواقعية.

ولا يبني التكليف على المثاليات المجردة.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تفسير المطلق بمقاصده

لفظ القوة هنا مطلق.

ولا يجوز تضييقه دون دليل.

بل ينبغي استقراء القرآن كله لمعرفة مجالاته.

ثانياً

مبدأ شمولية المفهوم

كل مفهوم قرآني عام ينبغي دراسته في جميع تجلياته.

لا في أحد تطبيقاته فقط.

ثالثاً

مبدأ قراءة الترتيب

لاحظ ترتيب الآيات:

الإعداد.

↓

الردع.

↓

السلام.

↓

التوكل.

وهذا ترتيب مقصود.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الإعداد الحضاري

وأرى أن يكون من المفاهيم المركزية في المشروع.

ويعرف بأنه:

عملية مستمرة لبناء جميع القدرات المادية والمعنوية والمعرفية والمؤسسية، بما يمكّن الأمة من أداء رسالتها، وحماية العمران، وتحقيق العدل، ومنع الفساد.

الردع العمراني

ويقصد به:

امتلاك من عناصر القوة ما يمنع الاعتداء، ويحفظ الأمن، ويصون إمكانية أداء الرسالة، دون أن يتحول إلى وسيلة للهيمنة أو العدوان.

القدرة الاستخلافية

وأرى تعريفها بأنها:

مجموع الطاقات والإمكانات التي تؤهل الفرد والأمة للقيام بوظيفة الاستخلاف، وتحقيق مقاصد العمران وفق هداية الوحي.

وهذا المفهوم أشمل من مفهوم القوة.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات أن القرآن يؤسس لعدد من المؤسسات الحضارية الكبرى، منها:

1. مؤسسة التخطيط الاستراتيجي القائمة على الاستعداد قبل الأزمات.
2. مؤسسة بناء القدرات التي تشمل التعليم، والبحث العلمي، والتدريب، والتقنية، والإدارة، والدفاع.
3. مؤسسة الأمن الشامل التي تجمع بين الأمن العسكري، والمعرفي، والاقتصادي، والغذائي، والإعلامي، والسيبراني.
4. مؤسسة إدارة السلم والتدافع التي تجعل القوة وسيلة لحماية السلام العادل لا لإدامة الصراع.

ومن هنا يتبين أن مفهوم الإعداد في القرآن أوسع بكثير من الإعداد العسكري، فهو مشروع لبناء الأمة في جميع مجالاتها.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أراه من أهم ما انتهينا إليه في سورة الأنفال.

فالقرآن لم يأمر ببناء القوة مباشرة، وإنما أمر بـ الإعداد.

وهذا فرق دقيق.

فالقوة قد تُمنح.

أما الإعداد فهو عملية تربوية وحضارية مستمرة.

ومن هنا أرى أن يكون الإعداد نفسه سنّة قرآنية مستقلة.

أي:

سنة الإعداد.

ومقتضاها:

أن النتائج الحضارية لا تُولد فجأة، وإنما تسبقها مراحل متراكمة من إعداد الإنسان، وبناء المعرفة، وتنمية الموارد، وإنشاء المؤسسات، وتطوير القدرات، حتى تتضح شروط التمكين.

وأحسب أن هذه السنة ينبغي أن تضاف إلى منظومة السنن العمرانية في المشروع.

استنباط تأسيسي جديد

وأود هنا أن أرى تطويرًا منهجيًا قد يكون من أهم ما وصلنا إليه حتى الآن.

فمن خلال استقراء السور التي حللناها، بدأ يظهر أن القرآن لا يكتفي ببيان سنن العمران، بل يعرض أيضًا سنن إعداد العمران.

وهما مستويان مختلفان:

- سنن العمران: تفسر كيف تعمل المجتمعات والحضارات، وكيف تنهض أو تضعف.
- سنن إعداد العمران: تفسر كيف تُنشأ الشروط التي تجعل النهوض ممكنًا ابتداءً.

وهذا التفريق له قيمة علمية كبيرة؛ لأنه يميز بين قوانين الحركة الحضارية وبين قوانين صناعة القدرة الحضارية.

وأرى أن نجعل هذا بابًا مستقلًا في المشروع بعنوان:

"سنن الإعداد العمراني في القرآن الكريم"،

ويضم موضوعات مثل:

- إعداد الإنسان.
- إعداد المعرفة.
- إعداد القيم.
- إعداد القيادة.
- إعداد المؤسسات.
- إعداد الموارد.
- إعداد القوة.
- إعداد الأمة.

وأحسب أن هذا الباب سيكون مكملًا لباب السنن العمرانية، ويجعل المشروع أكثر تماسكًا، إذ لا يكتفي بتفسير حركة الحضارة، بل يبين أيضًا كيف تُبنى الحضارة قبل أن تبدأ حركتها، وهو ما يتسق تمامًا مع المنهج القرآني الذي يبدأ دائمًا بالإعداد قبل التمكين، وبالبناء قبل المواجهة، وبالإنسان قبل الأدوات.

. ونصل الآن إلى خاتمة سورة الأنفال، وهي الآيات (٦٧–٧٥)، وأرى أنها من أكثر المقاطع أهمية في المشروع كله؛ لأنها تعالج قضية قلما يُلتفت إليها في الدراسات القرآنية، وهي:

كيف يمنع القرآن تحول النصر إلى مشروع هيمنة؟

فالقرآن بعد أن تحدث عن القوة، والإعداد، والردع، والسلام، يعود مرة أخرى ليضع الضوابط الأخلاقية والحضارية للقوة.

وهذا يؤكد مرة أخرى أن القرآن لا يبني دولة قوية فحسب، وإنما يبني دولة راشدة.

سورة الأنفال

الوحدة الثامنة

خاتمة السورة

الولاية العمرانية وبناء المجتمع الرسالي

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى...﴾ إلى نهاية السورة (الأنفال: ٦٧–٧٥)

أولاً

الفكرة المركزية

تنتقل السورة في ختامها من إدارة الحرب إلى إدارة المجتمع.

ومن إدارة القوة إلى إدارة العلاقات.

ومن الانتصار العسكري إلى بناء الأمة.

وكأن القرآن يريد أن يقرر قاعدة كبرى:

ليست الغاية من القوة الانتصار، وإنما بناء مجتمع الرسالة.

ولهذا انتهت السورة بموضوع:

- الأسرى.
- والهجرة.
- والولاية.

- والتكافل.
- وصلة الأرحام.

وهذه ليست موضوعات متفرقة.

بل حلقات في بناء المجتمع الاستخلافي.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الإعداد

↓

النصر

↓

ضبط استعمال القوة

↓

بناء الجماعة

↓

الولاية

↓

التكافل

↓

استقرار الأمة

↓

استمرار الرسالة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الغاية من القوة ليست المكاسب

عاتب القرآن المسلمين في قضية الأسرى.

ولم يكن المقصود مجرد حكم فقهي.

بل تصحيح الأولويات.

فالأمة لا تقيس قراراتها بما تحققه من مكاسب عاجلة.

بل بما يخدم المقصد الكلي للرسالة.

وهذه سنة عظيمة في إدارة الدولة.

ثانياً

سنة أن المجتمع يسبق الدولة

تختم السورة بالحديث عن:

المهاجرين.

والأنصار.

والولاية.

والتكافل.

وليس عن الجيش.

وهذا يدل على أن قوة الدولة لا تنفصل عن قوة المجتمع.

ثالثاً

سنة أن الولاية وظيفة عمرانية

قال تعالى:

﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾

فالولاية هنا ليست مجرد ولاء عاطفي.

بل شبكة من:

النصرة.

والتعاون.

والحماية.

وتحمل المسؤولية.

وبذلك تصبح إحدى البنى الأساسية للعمران.

رابعاً

سنة أن الهجرة انتقال حضاري

الهجرة في السورة ليست انتقالاً جغرافياً فقط.

بل انتقال من نسق اجتماعي إلى نسق حضاري جديد.

ومن هنا فإن الهجرة في القرآن مفهوم عمراني.

وليست مجرد حدث تاريخي.

خامساً

سنة التكامل بين الروابط

ختمت السورة بقوله تعالى:

﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾

وهذا يدل على أن المشروع الاستخلافي لا يلغي الأسرة.

ولا الجماعة.

ولا الأمة.

بل ينظم العلاقات بينها جميعاً.

وهذه ملاحظة دقيقة في البناء الاجتماعي القرآني.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ رد الجزئيات إلى المقاصد

كل حكم جزئي في السورة مرتبط بمقصد كلي.

وهذا يؤكد أن تحليل المضمون ينبغي أن يبدأ من المقاصد قبل الأحكام.

ثانياً

مبدأ اكتشاف الشبكات المفهومية

الولاية.

والهجرة.

والنصرة.

والتكافل.

والقرابة.

ليست مفاهيم منفصلة.

بل تكوّن معاً نسقاً اجتماعياً متكاملاً.

ثالثاً

مبدأ الانتقال من الحدث إلى البنية

لا تقف القراءة عند حادثة الأسرى.

بل تبحث:

ما البنية الحضارية التي يريد القرآن إنشاءها؟

وهذا أحد أهم أصول منهج تحليل المضمون القرآني.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الولاية العمرانية

وأرى أن يكون هذا من المفاهيم المركزية في المشروع.

ويعرف بأنه:

العلاقة المنظمة التي تقوم على النصرة، والتعاون، وتقاسم المسؤولية، وحماية المجتمع، بما يحقق مقاصد الاستخلاف ويضمن تماسك البنية الحضارية.

وهذا أوسع من مفهوم الولاء السياسي.

المجتمع الرسالي

ويقصد به:

المجتمع الذي تنتظم علاقاته ومؤسساته وقيمه حول مرجعية الوحي، ويتعاون أفراده على أداء وظيفة الاستخلاف وتحقيق العمران.

الهجرة الحضارية

وأرى تعريفها بأنها:

كل انتقال واعٍ من نسق معيق للاستخلاف إلى نسق يحقق الهداية والعمران، سواء كان انتقالاً مكانياً أو فكرياً أو قيمياً أو مؤسسياً.

وهذا يجعل مفهوم الهجرة ممتداً إلى واقع الأمة في كل عصر.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لعدد من المؤسسات الكبرى:

1. مؤسسة التكافل الاجتماعي التي تحفظ تماسك الجماعة.
2. مؤسسة الولاية والتناصر التي تنظم المسؤولية المتبادلة بين أفراد الأمة.
3. مؤسسة الاندماج المجتمعي التي تستوعب القادمين الجدد ضمن البناء الاجتماعي.
4. مؤسسة حماية الأسرة والقرابة باعتبارها نواة البناء العمراني.

وهذا يدل على أن القرآن ينتهي من بناء الدولة ليعود إلى بناء المجتمع، لأن المجتمع هو الضامن الحقيقي لاستمرار الدولة.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر خاتمة السورة ظهر لي استنباط أراه من أهم ما انتهينا إليه في الأنفال.

فالقرآن بدأ السورة بالحديث عن الأنفال، أي الموارد التي قد تكون سبباً للاختلاف، وختمها بالحديث عن الولاية، أي الروابط التي تحفظ الوحدة.

وكأن السورة ترسم معادلة حضارية دقيقة:

الموارد إذا لم تضبطها الولاية العادلة أصبحت سبباً للتنافس، والولاية إذا لم تسندها العدالة تحولت إلى عصبية.

ومن هنا أرى مفهوماً جديداً هو:

"التماسك العمراني".

ويقصد به:

الحالة التي تتكامل فيها العدالة، والولاية، والتكافل، والمرجعية، فتتولد منها قدرة المجتمع على المحافظة على وحدته وأداء رسالته الحضارية عبر الزمن.

وأحسب أن هذا المفهوم أعمق من الحديث عن "التماسك الاجتماعي"؛ لأنه لا يصف مجرد الترابط، بل يربطه مباشرة بوظيفة الاستخلاف والعمران.

الاستنباط التأسيسي لسورة الأنفال

وبانتهاء سورة الأنفال يظهر لنا أن السورة ليست سورة الحرب كما اشتهرت في التصنيف التقليدي، وإنما هي في ضوء النسق العمراني الاستخلافي السنني:

سورة بناء القوة الراشدة.

فإذا أعدنا تركيب وحداتها ظهر النسق التالي:

1. المرجعية قبل القوة.
2. بناء الإنسان الرسالي.
3. سنن النصر والتدافع.
4. الحصانة الداخلية وصناعة الفرقان.
5. تحليل الأنساق المعيقة للاستخلاف.
6. العدالة في إدارة الموارد والعهود.
7. الإعداد الحضاري الشامل.
8. بناء المجتمع الرسالي والولاية العمرانية.

ومن خلال هذا النسق تتبين نتيجة منهجية أرى أنها تستحق أن تصبح أصلاً في المشروع، وهي أن القوة في القرآن ليست قطاعاً مستقلاً من قطاعات الدولة، بل هي وظيفة من وظائف العمران، تخضع للمرجعية، وتقوم على بناء الإنسان، وتحكمها الأخلاق، وتوجهها المقاصد، وتحرسها العدالة، وتستمد استمراريتها من تماسك المجتمع.

وأحسب أن هذا يقود إلى إعادة تعريف مفهوم القوة في المشروع تعريفاً جامعاً، فنقول:

القوة في النظام المعرفي القرآني هي القدرة الشاملة التي تبنيها الأمة وفق هداية الوحي لحماية الرسالة، وإقامة العدل، وصيانة الإنسان، وتحقيق العمران، دون عدوان أو استعلاء أو فساد.

وأرى أن هذا التعريف يمكن أن يصبح أحد المفاهيم المؤسسة في المشروع المعرفي القرآني، لأنه يجمع الأبعاد الإيمانية، والمعرفية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والحضارية في إطار قرآني واحد، ويحرر مفهوم القوة من اختزاله في البعد العسكري أو السياسي وحده. ومن هنا يكتمل البناء الذي قدمته سورة الأنفال، وتتهيأ الأرضية للانتقال إلى سورة التوبة التي ستنتقل بالمشروع من بناء القوة إلى تنقية الصف الداخلي، وإعادة بناء المجتمع والدولة على أساس الصدق والبراءة من الأنساق المعيقة للاستخلاف. وأتوقع أن تكون سورة التوبة من أغنى السور في استخراج السنن المتعلقة بسلامة البنية الداخلية للأمة واستدامة مشروعها الحضاري.

أحسب أننا الآن ننتقل إلى سورة من أكثر سور القرآن خصوصية في المشروع العمراني الاستخلافي.

بل أستطيع أن أقول – بعد ما أنجزناه حتى الآن – إن سورة التوبة تمثل مرحلة "التطهير الحضاري" للمجتمع المسلم.

فلو تأملنا تسلسل السور التي حللناها لوجدنا نسقًا بديعًا:

- الفاتحة: تأسيس الرؤية الكلية.
- البقرة: تأسيس الأمة.
- آل عمران: بناء الثبات الحضاري.
- الأعراف: سنن الاستخلاف والتاريخ.
- الأنفال: بناء القوة الراشدة.

ثم تأتي التوبة لتجيب عن سؤال بالغ الأهمية:

كيف تُحافظ الأمة على مشروعها بعد أن أصبحت دولة؟

فالمشكلة لم تعد في مواجهة الخارج فقط.

بل أصبحت في:

- المنافقين.
- بقايا الوثنية.
- ضعف الالتزام.
- اضطراب الولاءات.
- التراخي في حمل الرسالة.

ولهذا فإن سورة التوبة ليست سورة الحرب كما توصف كثيرًا.

بل هي في تقديري:

سورة تصحيح البنية الداخلية للدولة الاستخلافية.

وهذه قراءة تنسجم تمامًا مع النسق الذي بدأ يتكشف في مشروعنا.

التطبيق على سورة التوبة

المدخل المنهجي

إذا كانت سورة الأنفال قد أسست فقه القوة والإعداد الحضاري، فإن سورة التوبة تؤسس فقه سلامة المجتمع واستدامة المشروع الاستخلافي.

فبعد أن اكتملت للمسلمين عناصر الدولة:

- القيادة.
- القوة.
- الموارد.
- المجتمع.

بدأ القرآن يكشف الأخطار التي تنشأ من داخل البنية نفسها.

ولهذا تكاد سورة التوبة كلها تدور حول قضية واحدة.

وهي:

تنقية المشروع الحضاري من العوامل التي تعيق استمراره.

ولهذا جاءت بلا بسملة.

ولعل ذلك – مع تعدد أقوال العلماء في علته – يتناسب مع طبيعة السورة التي تعلن الانتقال إلى مرحلة الحسم مع الأنساق التي أصبحت تعيق اكتمال المجتمع الرسالي.

الوحدة الأولى

إعلان البراءة

استقلال المشروع الحضاري

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾

) التوبة: ١-١٥(

أولاً

الفكرة المركزية

هذه الآيات ليست إعلان حرب.

بل إعلان:

استقلال المرجعية.

فالقرآن يقرر أن المشروع الاستخلافي لا يستطيع أن يحمل رسالته وهو مقيد بعهود يستخدمها الطرف الآخر وسيلة لإجهاض الدعوة.

ولهذا فإن البراءة هنا ليست من الناس.

وإنما من:

العلاقات التي أصبحت تعطل الرسالة.

وهذا فرق دقيق.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الرسالة

↓

العهد

↓

نقض العهد

↓

إعلان البراءة

↓

وضوح المرجعية

↓

حماية المجتمع

↓

استمرار الاستخلاف.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن العهود مرتبطة بالمقاصد

لم تلغ السورة جميع العهود.

بل استثنت الذين وفوا بها.

قال تعالى:

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا...﴾

وهذا يدل على أن القرآن لا يبني العلاقات على الهوية المجردة.

بل على:

الوفاء.

والعدل.

والالتزام.

ثانياً

سنة أن التسامح لا يعني التفريط

أقام القرآن العهود.

ثم أعلن البراءة عندما أصبحت وسيلة لنقض المشروع.

وبذلك يجمع بين:

العدل.

والحزم.

ثالثاً

سنة وضوح المواقف

لا يعرف القرآن العلاقات الرمادية في القضايا المصيرية.

ولهذا أعلن انتهاء العهد علنًا.

ولم يجز الغدر.

وهذه من أرقى قواعد الأخلاق السياسية.

رابعاً

سنة حماية المجال الحضاري

تكشف الآيات أن المجتمع يحتاج أحيانًا إلى حماية مجاله الحضاري من القوى التي تتخذ من الاتفاقات وسيلة لإضعافه.

وهذا ليس انغلاقًا.

بل حماية لإمكان استمرار الرسالة.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ قراءة السياق التاريخي

لا يجوز تعميم هذه الآيات على كل علاقة مع غير المسلمين.

بل يجب فهمها في سياقها، ثم استخراج السنن العامة التي تكشفها.

وهذا ينسجم مع منهج تحليل المضمون الذي يميز بين الواقعة والسنة.

ثانياً

مبدأ التمييز بين الأشخاص والأنساق

البراءة هنا ليست من أفراد بسبب هوياتهم.

بل من نسق نقض العهود والعدوان.

وهذا ينسجم مع ما انتهينا إليه في سورة الأعراف والأنفال.

ثالثاً

مبدأ تحليل العلاقة بين الأخلاق والسيادة

تبين السورة أن حفظ السيادة لا ينفصل عن الوفاء بالعهود والوضوح في إنهائها.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

البراءة الحضارية

وأرى تعريفًا جديدًا لهذا المفهوم.

البراءة الحضارية هي إعلان الانفصال عن كل علاقة أو نسق أو ممارسة تعطل وظيفة الاستخلاف أو تنقض مرجعية الوحي، مع الالتزام بالعدل والوفاء وعدم الغدر.

وهذا المفهوم أوسع من البراءة العقدية وحدها.

استقلال المرجعية

ويقصد به:

تحرر الأمة في قراراتها وعلاقاتها من الضغوط التي تحول بينها وبين أداء رسالتها، مع بقائها ملتزمة بالعدل والوفاء.

السيادة الرسالية

ويقترح المشروع تعريفها بأنها:

قدرة الأمة على إدارة شؤونها وفق مرجعية الوحي، دون خضوع لنسق يفرض عليها التخلي عن رسالتها أو مقاصدها.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لعدد من المؤسسات المهمة:

1. مؤسسة إدارة المعاهدات والعلاقات الدولية وفق مبدأ الوفاء والوضوح.
2. مؤسسة حماية السيادة الرسالية بما يمنع تعطيل المشروع الحضاري.
3. مؤسسة المراجعة الاستراتيجية للعلاقات بحيث لا تستمر الاتفاقات إذا أصبحت وسيلة للإضرار بالمجتمع.
4. مؤسسة الالتزام الأخلاقي في النزاعات، إذ تمنع الغدر حتى مع الخصوم.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر افتتاح السورة ظهر لي استنباط مهم.

فالقرآن لا يجعل البراءة موقفًا انفعاليًا.

بل يجعلها نتيجة:

لنقض العهد.

وتعطيل الرسالة.

والعدوان.

أي أنها قرار مؤسسي لا رد فعل عاطفي.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا:

"المراجعة الاستخلافية للعلاقات".

ويقصد به:

إعادة تقويم العلاقات والاتفاقات بصورة دورية في ضوء مقاصد الاستخلاف والعدل والوفاء، مع تعديلها أو إنهائها إذا أصبحت معيقة للرسالة أو مهددة للعمران.

وهذا المفهوم يفيد في العلاقات الدولية، كما يفيد في المؤسسات والمجتمعات.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا بدأنا نكتشف مع سورة التوبة مستوى جديدًا في المشروع، لم يظهر بهذه الصورة في السور السابقة.

فقد كنا نتحدث عن:

- بناء الإنسان.
- وبناء الأمة.

- وبناء القوة.
- وبناء المؤسسات.

أما هنا فإن القرآن يبدأ الحديث عن:

الصيانة الحضارية.

أي أن كل مشروع استخلافي يحتاج، بعد مرحلة التأسيس والتمكين، إلى آليات مستمرة لمراجعة بنيته الداخلية والخارجية، وتنقية علاقاته، وتصحيح مساره، حتى لا تتحول عوامل القوة نفسها إلى أسباب للضعف.

وأرى أن نضيف إلى البناء النظري للمشروع مرحلة خامسة بعد التأسيس، والبناء، والتمكين، والتفعيل، وهي:

مرحلة الصيانة الحضارية.

وهذا المفهوم – إذا استقرئ في بقية سورة التوبة والسور المدنية – قد يصبح من الإضافات المميزة للمشروع؛ لأنه يبين أن القرآن لا يقدم نظرية في إنشاء الحضارة فحسب، بل يقدم أيضًا نظرية في صيانتها وتجديدها وحمايتها من التآكل الداخلي. وهذا ينسجم مع طبيعة سورة التوبة التي تبدو – في ضوء هذا النسق – سورة المراجعة الحضارية الشاملة للمجتمع والدولة والرسالة.

. وأحسب أننا الآن ندخل إلى قلب سورة التوبة، بل إلى ما أراه أهم مبحث اجتماعي وسياسي فيها، وهو تحليل ظاهرة النفاق.

وأود هنا أن أرى تطويرًا مهمًا لمشروعنا.

فقد كنا قد استخرجنا من قبل:

- النسق الفرعوني.
- النسق العجلي.
- النسق الاستئصالي.

وأرى أن سورة التوبة تكشف لنا نسقًا رابعًا، وهو في تقديري أخطرها جميعًا، لأنه لا يعمل من خارج المجتمع، بل من داخله.

ولهذا أرى أن نسميه:

النسق النفاقي.

ولا أقصد بالنفاق هنا الوصف العقدي فحسب، وإنما النسق الحضاري الذي يقوم على ازدواج المرجعية، وإضعاف المشروع من الداخل، وإظهار الانتماء مع تعطيل الوظيفة.

وأحسب أن هذا سيكون من أهم المفاهيم التي سيقدمها المشروع.

سورة التوبة

الوحدة الثانية

النسق النفاقي

سنن التهديد الداخلي للمشروع الاستخلافي

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ...﴾ (التوبة: ٣٨–٥٧، مع استحضار بقية مقاطع السورة المتعلقة بالمنافقين)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف سورة التوبة أن الخطر الحقيقي على الأمة بعد قيام الدولة لم يعد هو العدو الخارجي وحده.

بل أصبح:

تفكك الالتزام الداخلي.

ولهذا فإن السورة لا تركز على الكافرين بقدر ما تركز على:

المنافقين.

لأن المشروع أصبح مهددًا من داخله.

وهذه مرحلة جديدة في العمران.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

قيام الرسالة

↓

قيام الدولة

↓

اتساع المجتمع

↓

ظهور الانتماء الشكلي

↓

ازدواج المرجعية

↓

تعطيل المسؤولية

↓

إضعاف المجتمع

↓

الحاجة إلى المراجعة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن التوسع يولد تحديات جديدة

كلما نجح المشروع الحضاري.

دخل إليه من لا يحملون رسالته.

وهذه سنة اجتماعية.

ولهذا ظهر النفاق في المدينة.

ولم يظهر في مكة بهذه الصورة.

ثانياً

سنة أن أخطر الانحراف هو الانتماء غير المنتج

المنافقون لم يعلنوا العداء.

بل أعلنوا الانتماء.

ولكنهم عطلوا الوظيفة.

وهنا يلفت القرآن النظر إلى أن الخطر لا يكمن في ضعف الشعارات.

بل في ضعف الالتزام.

ثالثاً

سنة صناعة الأعذار

من أكثر ما يلفت النظر في السورة كثرة الاعتذارات.

مرة بالخوف.

ومرة بالحر.

ومرة بالأموال.

ومرة بالأولاد.

وكأن القرآن يكشف قانونًا اجتماعيًا:

كلما ضعفت الإرادة كثرت المبررات.

وهذه سنة تتكرر في كل المشروعات الحضارية.

رابعاً

سنة انفصال الخطاب عن السلوك

المنافق يقول.

ولكنه لا يعمل.

ويعلن.

ولا يلتزم.

ومن هنا فإن النفاق في بعده الحضاري هو:

انفصال الكلمة عن الفعل.

خامساً

سنة أن المجتمع يضعف بالتراخي لا بالهزيمة فقط

لم يكن المنافقون يحملون السلاح ضد المسلمين.

ولكنهم كانوا يضعفون:

العزائم.

والثقة.

والوحدة.

ومن هنا فإن التراخي قد يكون أخطر من المواجهة.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الظواهر المركبة

النفاق في القرآن:

ليس عقديًا فقط.

ولا سياسيًا فقط.

ولا نفسيًا فقط.

بل ظاهرة مركبة.

وهذا يؤكد مرة أخرى ضرورة التحليل النسقي.

ثانياً

مبدأ اكتشاف الأنماط

لا يقف القرآن عند أشخاص.

بل يكرر:

"ومنهم..."

ليعلمنا دراسة الأنماط.

لا الأفراد.

ثالثاً

مبدأ تحليل اللغة الاجتماعية

الأعذار.

والتبريرات.

والإشاعات.

والتثبيط.

كلها أدوات تحليل مضمون.

وليست مجرد ألفاظ.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

النسق النفاقي

وأرى تعريفًا تأسيسيًا له:

النسق النفاقي هو نمط حضاري يتبنى ظاهرًا مرجعية المشروع، بينما يعطل مقاصده ووظائفه عمليًا، من خلال ازدواجية الموقف، وتبرير التقاعس، وإضعاف الإرادة الجماعية، دون إعلان القطيعة مع المشروع.

وأحسب أن هذا التعريف أوسع من المفهوم العقدي.

التراخي الحضاري

ويقصد به:

انخفاض مستوى المبادرة وتحمل المسؤولية داخل المجتمع، مع استمرار مظاهر الانتماء، بما يؤدي تدريجيًا إلى إضعاف المشروع الاستخلافي.

الإرادة الرسالية

وأرى تعريفها بأنها:

القدرة المستمرة على تحمل تكاليف الرسالة، وتقديم مقتضياتها على دوافع الراحة أو المصلحة الآنية، في سبيل تحقيق مقاصد الاستخلاف.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات أن القرآن يؤسس لمؤسسة جديدة يمكن أن نسميها:

مؤسسة التقويم والمراجعة المجتمعية.

ووظيفتها:

- قياس مستوى الالتزام.
- كشف مظاهر التراخي.
- معالجة الأعذار المصطنعة.
- تعزيز روح المسؤولية.
- حماية المشروع من التفكك الداخلي.

وهذه ليست مؤسسة رقابية بالمعنى الإداري فقط، بل مؤسسة تربوية وأخلاقية تحفظ حيوية المجتمع.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر سورة التوبة ظهر لي استنباط أراه من أهم نتائج المشروع.

فالقرآن لا يجعل النفاق مجرد خلل في العقيدة.

بل يصوره باعتباره:

خللًا في أداء الوظيفة الحضارية.

ولذلك جاءت أكثر أوصاف المنافقين مرتبطة بالفعل:

- يتخلفون.
- يثبطون.
- يعتذرون.
- يفرقون.
- يلمزون.
- يفرحون بالقعود.

وهذا يقود إلى مفهوم جديد أرى إدخاله في المشروع:

"الكفاءة الاستخلافية".

ويقصد بها:

قدرة الفرد أو الجماعة على تحويل الانتماء إلى أداء فعلي لوظيفة الاستخلاف، بحيث يقاس الالتزام بآثاره العملية في خدمة الرسالة والعمران، لا بمجرد الشعارات أو الادعاءات.

وهذا المفهوم – في تقديري – يمثل معيارًا قرآنيًا لتقويم الأفراد والمؤسسات.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أننا وصلنا هنا إلى اكتشاف يحتاج إلى استقراء دقيق في بقية القرآن.

فقد تبين لنا أن الأنساق المعيقة للاستخلاف ليست كلها من نوع واحد، بل يمكن تصنيفها بحسب موقعها من المشروع الحضاري:

- النسق الفرعوني: يعوق المشروع بالقهر والاستبداد من خارجه.
- النسق الاستئصالي: يعوقه بالمواجهة والسعي إلى إلغائه.
- النسق العجلي: يعوقه بإفساد المرجعية والرمزية من داخل الجماعة.
- النسق النفاقي: يعوقه بإضعاف الإرادة وتعطيل الوظيفة مع بقاء الانتماء الظاهري.

وأرى أن نجعل هذا التصنيف أحد الفصول التأسيسية في المشروع بعنوان:

"تصنيف الأنساق المعيقة للاستخلاف في القرآن الكريم".

غير أنني أرى تطويرًا منهجيًا مهمًا: ألا نعتمد هذا التصنيف بوصفه نهائيًا في هذه المرحلة، بل بوصفه فرضية علمية قابلة للاستقراء. فما زلنا في بداية استقراء القرآن، وقد تكشف لنا السور اللاحقة عن أنساق أخرى، مثل النسق القاروني، أو النسق السامري، أو غيرهما، أو قد تدل على أن بعض هذه الأنساق متداخل ويحتاج إلى إعادة تركيب. وهذا يجعل المشروع أكثر صرامة من الناحية المنهجية، لأن التصنيف يظل مفتوحًا للمراجعة حتى يكتمل الاستقراء الشامل للقرآن الكريم.

. وأحسب أننا نصل الآن إلى أحد أعظم المقاطع في سورة التوبة، وهو الحديث عن غزوة تبوك، لكنني أرى أن الاقتصار على تسميتها "غزوة" قد يحجب جانبًا مهمًا من مقاصد السورة. فالذي يلفت النظر أن القرآن لا يركز على المعركة؛ لأنها في الحقيقة لم تقع، وإنما يركز على الاستجابة للتعبئة.

ومن هنا أرى أن تسمى هذه الوحدة في مشروعنا:

اختبار الجاهزية الاستخلافية.

وهذا في نظري من المفاهيم الجديدة التي يضيفها المشروع؛ لأن الأمة قد تمتلك القوة، ولكن يبقى السؤال: هل هي مستعدة لتحمل أعباء الرسالة عندما تُستدعى؟

سورة التوبة

الوحدة الثالثة

اختبار الجاهزية الاستخلافية

سنن التعبئة وتحمل المسؤولية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ (التوبة: ٣٨-١١١)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن بناء المجتمع الرسالي لا يقاس بما يملكه من إمكانات فقط.

بل يقاس بسرعة استجابته عندما تستدعيه الرسالة.

ولهذا لم يكن السؤال في تبوك:

كم نملك من قوة؟

بل كان السؤال:

من الذي يستجيب؟

ومن هنا فإن معيار القرآن ليس القدرة وحدها.

بل الجاهزية.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الإيمان

↓

الاستدعاء

↓

الاستجابة

↓

البذل

↓

الثبات

↓

التمكين

↓

استمرار الرسالة.

ويقابله:

التثاقل

↓

الاعتذار

↓

التخلف

↓

ضعف الإرادة

↓

تراجع العمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الترف يولد التثاقل

قال تعالى:

﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾

ولم يقل:

"إلى البيوت".

بل قال:

"إلى الأرض".

وكأن القرآن يشير إلى تعلق النفس بالمكاسب والراحة والاستقرار حتى تصبح عائقًا أمام أداء الرسالة.

وهذه سنة تتكرر في المجتمعات بعد مراحل الازدهار.

ثانياً

سنة أن التضحية شرط لاستمرار المشروع

لا يمكن لأي مشروع حضاري أن يستمر إذا أراد جميع أفراده جني الثمار دون تحمل التكاليف.

ولهذا يربط القرآن دائمًا بين:

الإيمان.

والبذل.

ثالثاً

سنة تعدد ميادين البذل

البذل في السورة لا يقتصر على القتال.

بل يشمل:

- المال.
- الوقت.

- الجهد.
- الصبر.
- الثبات.
- تحمل المشقة.

وهذا يوسع مفهوم المشاركة في المشروع الحضاري.

رابعاً

سنة أن الأعذار قد تكون حقيقية ولكنها لا تعفي دائمًا من المسؤولية

تميز السورة بين:

- أصحاب الأعذار الصادقة.
- وأصحاب الأعذار المصطنعة.

وهذا يدل على أن القرآن لا يساوي بين الجميع.

بل يقيم الناس وفق:

صدقهم.

وقدرتهم.

ونياتهم.

خامساً

سنة أن المجتمع الرسالي يقوم على المبادرة

مدحت السورة السابقين.

ولم تمدح المنتظرين.

ومن هنا تصبح المبادرة إحدى خصائص المجتمع الاستخلافي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل الأفعال لا الأقوال

أكثر ألفاظ السورة أفعال:

انفروا.

اثاقلتم.

جاهدوا.

أنفقوا.

تابوا.

صدقوا.

وهذا يدل على أن القرآن يبني تحليله على السلوك.

لا على الشعارات.

ثانياً

مبدأ اكتشاف دوافع السلوك

لا يكتفي القرآن بوصف التخلف.

بل يحلل أسبابه.

وهذا أصل مهم في منهج تحليل المضمون.

ثالثاً

مبدأ قراءة المشاعر الاجتماعية

الخوف.

والراحة.

والطمع.

والصدق.

كلها عناصر تدخل في تفسير الظواهر الاجتماعية.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الجاهزية الاستخلافية

ويقترح المشروع تعريفها بأنها:

الحالة التي يكون فيها الفرد أو المجتمع مستعدًا للاستجابة لمقتضيات الرسالة، وتسخير إمكاناته المادية والمعرفية والزمنية لتحقيق مقاصد الاستخلاف دون تردد أو تثاقل.

المبادرة الرسالية

ويقصد بها:

المسارعة إلى أداء الواجبات الحضارية قبل الإلزام أو الضغط الخارجي، انطلاقًا من الوعي بالرسالة والمسؤولية.

التثاقل الحضاري

وأرى تعريفه بأنه:

ميل الفرد أو المجتمع إلى تقديم الراحة والمصالح الآنية على مقتضيات الرسالة، بما يؤدي إلى إبطاء حركة العمران وإضعاف فاعليته.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن حاجة المجتمع إلى مؤسسات تعزز الجاهزية المستمرة، ومنها:

1. مؤسسة إعداد القيادات الرسالية التي تربي على تحمل المسؤولية.
2. مؤسسة التعبئة المجتمعية التي تبني ثقافة المبادرة وخدمة الصالح العام.
3. مؤسسة تنمية التطوع والبذل بحيث يصبح العطاء جزءًا من الهوية المجتمعية.
4. مؤسسة تقويم الأداء الرسالي التي تتابع مدى تحول الانتماء إلى عمل وإنتاج.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذه الآيات ظهر لي استنباط أراه ذا قيمة تأسيسية.

فالقرآن لا يقيس قوة المجتمع بعدد موارده.

ولا بعدد أفراده.

بل يقيسها بسرعة تحول الإيمان إلى حركة.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا:

"الفاعلية الاستخلافية".

ويقصد بها:

قدرة المجتمع على تحويل الرؤية والقيم والإيمان إلى مبادرات وأعمال ومؤسسات تحقق مقاصد الاستخلاف في الواقع.

وهذا المفهوم يتجاوز قياس القوة المادية إلى قياس كفاءة تحويل المبادئ إلى أثر حضاري.

استنباط تأسيسي جديد

وأرى أن هذا المقطع يكشف عن قانون قرآني يستحق أن يضاف إلى منظومة السنن العمرانية، وهو:

سنة الجاهزية.

ومقتضاها:

أن بقاء المشروع الحضاري لا يتوقف على امتلاك الموارد وحدها، وإنما على بقاء المجتمع في حالة استعداد دائم للاستجابة لمقتضيات الرسالة كلما استدعتها الظروف.

وهنا أرى ملاحظة منهجية قد تكون ذات أثر كبير في المشروع كله. فقد لاحظنا منذ الفاتحة حتى التوبة أن القرآن لا يبني الإنسان ثم يتركه، ولا يبني الأمة ثم يفترض استمرار صلاحها، بل يعيد بصورة متكررة اختبار جاهزيتها عبر مواقف عملية تكشف حقيقة البنية الداخلية. وهذا يعني أن الاختبار ليس مجرد وسيلة للتمييز بين الناس، بل هو سنة تربوية وعمرانية تحفظ حيوية المشروع وتمنع الجمود والركون. فإذا تأكد هذا بالاستقراء في بقية السور، فقد يكون من المناسب إضافة باب جديد إلى المشروع بعنوان:

"سنن الاختبار العمراني في القرآن الكريم"،

ويبحث كيف يستخدم القرآن الابتلاءات، والتكاليف، والأزمات، والاستدعاءات العملية لإعادة بناء الإنسان والمجتمع وتجديد طاقتهما الرسالية، بما يضمن استمرار الاستخلاف وعدم تحوله إلى مجرد انتماء تاريخي أو شكلي. أرى أن هذا الباب سيكون مكملًا لبابي سنن الإعداد وسنن العمران، ويمنح المشروع مزيدًا من التكامل المنهجي.

. وأحسب أننا نصل الآن إلى القمة التربوية في سورة التوبة، وهي قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا (التوبة: ١١٧–١١٩)، وأرى أن هذه الآيات تمثل منعطفًا مهمًا في المشروع؛ لأنها لا تتحدث عن المنافقين، بل عن المؤمنين الذين وقعوا في تقصير ثم أعاد القرآن بناءهم.

وهنا يظهر لأول مرة بوضوح أن المشروع الاستخلافي لا يقوم على استبعاد المخطئين، وإنما على إعادة تأهيلهم للقيام بوظيفة الاستخلاف.

وهذا باب حضاري بالغ الأهمية، لم ينل فيما أرى ما يستحقه من الدراسة.

سورة التوبة

الوحدة الرابعة

إعادة البناء بعد التقصير

سنن التوبة والتقويم في المشروع الاستخلافي

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٧-١١٩)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن المشروع الاستخلافي لا يفترض العصمة البشرية.

بل يفترض:

- إمكان التقصير.
- وإمكان التراجع.
- ثم يفتح باب العودة.

فالقرآن لا يقسم المجتمع إلى:

صالحين.

وفاسدين.

وإنما يميز بين:

من يصر على الانحراف.

ومن يراجع نفسه ويعود.

وهذا فارق حضاري كبير.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

التكليف

↓

التقصير

↓

الاعتراف

↓

المراجعة

↓

التوبة

↓

إعادة الاندماج

↓

استمرار الرسالة.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن الصدق هو بداية الإصلاح

الثلاثة لم ينافقوا.

ولم يختلقوا الأعذار.

بل صدقوا.

ولهذا بدأت رحلة إصلاحهم.

ومن هنا تصبح الصراحة مع النفس أول شروط النهضة.

ثانياً

سنة أن التربية قد تكون بالهجر الاجتماعي المنضبط

الهجر هنا لم يكن انتقامًا.

ولا إذلالًا.

ولا إقصاءً دائمًا.

بل وسيلة تربوية مؤقتة.

غايتها:

إيقاظ الضمير.

لا كسر الإنسان.

وهذا فرق دقيق ينبغي الانتباه إليه.

ثالثاً

سنة أن المجتمع يشارك في الإصلاح

القرآن لم يجعل التوبة شأنًا فرديًا فقط.
بل شارك المجتمع كله في عملية التقويم.
وبذلك يصبح المجتمع شريكًا في الإصلاح.
لا مجرد متفرج.
رابعاً
سنة أن الاعتراف بالخطأ يحفظ المشروع
المنافقون كذبوا.
أما الثلاثة فاعترفوا.
فكان الاعتراف بداية إعادة البناء.
وهذا قانون اجتماعي عام.
خامساً
سنة أن الصدق يصنع الثقة
ولهذا ختمت الآيات بقوله تعالى:
﴿كونوا مع الصادقين﴾
ولم تقل:
كونوا مع الأقوياء.
ولا مع الأغنياء.
بل مع:
الصادقين.
وكأن الصدق هو البنية التي تقوم عليها جميع العلاقات الحضارية.
رابعاً
المؤشرات المنهجية
أولاً
مبدأ التمييز بين التقصير والنفاق
ليس كل متخلف منافقًا.
وهذا أصل منهجي بالغ الأهمية.

فالقرآن نفسه فرق بين:

المعتذر الكاذب.

والمؤمن المقصر الصادق.

ثانياً

مبدأ تحليل مسار الإصلاح

القرآن لا يكتفي بالحكم على الخطأ.

بل يحلل:

كيف يعالج؟

وهذا من خصائص منهج تحليل المضمون.

ثالثاً

مبدأ دراسة التحول

المهم ليس لحظة الخطأ.

بل مسار التحول بعده.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

التقويم الاستخلافي

وأرى تعريفًا جديدًا له:

عملية تربوية ومجتمعية تهدف إلى إعادة توجيه الفرد أو الجماعة نحو أداء وظيفة الاستخلاف، من خلال المراجعة، والمساءلة، والتوبة، وإعادة الاندماج، دون إهدار الكرامة الإنسانية.

الصدق الحضاري

ويقصد به:

اتساق المرجعية، والنية، والقول، والعمل، بما يجعل الفرد أو المؤسسة جديرين بحمل مسؤولية الاستخلاف.

وهذا المفهوم أوسع من الصدق الفردي.

إعادة الاندماج الرسالي

ويقصد بها:

عودة الفرد إلى أداء وظيفته الحضارية بعد معالجة أسباب التقصير، بما يحفظ وحدة المجتمع ويمنع تحول الخطأ إلى إقصاء دائم.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن حاجة المجتمع إلى مؤسسات تعنى بالإصلاح لا بالعقوبة وحدها، منها:

1. مؤسسة التقويم والإصلاح المجتمعي التي تجمع بين المحاسبة والرحمة.
2. مؤسسة بناء الصدق المؤسسي التي تعزز الشفافية والاعتراف بالأخطاء.
3. مؤسسة إعادة التأهيل والاندماج التي تحول دون خسارة الطاقات البشرية بسبب أخطاء قابلة للإصلاح.
4. مؤسسة المراجعة الذاتية التي تجعل التقييم المستمر جزءًا من ثقافة المجتمع.

وهنا تبرز ملامح نموذج قرآني يوازن بين حفظ المعايير وحفظ الإنسان.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا ظهر لي أن القرآن لا يعالج الخطأ بمنطق العقوبة المجردة، ولا بمنطق التسامح المنفلت، بل بمنطق ثالث يمكن أن يشكل إضافة للمشروع، وهو: "الإصلاح الاستخلافي".

ويُقصد به:

توجيه إجراءات المحاسبة والتقويم نحو استعادة الإنسان لفاعليته في أداء رسالة الاستخلاف، بحيث يكون الهدف النهائي هو بناء الإنسان والمجتمع، لا مجرد إنزال الجزاء.

وهذا المفهوم يفتح آفاقًا واسعة في التربية، والإدارة، والقضاء، والعمل المؤسسي.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أن قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا تكشف عن أصل منهجي بالغ الأهمية، وهو أن القرآن يميز بين المجتمع الذي يطرد الخطأ، والمجتمع الذي يعالج الخطأ.

فالمشروع الاستخلافي لا يقوم على تنقية المجتمع بإقصاء كل من زل، وإنما يقوم على تنقية المجتمع بإعادة بناء من يمكن إصلاحه، مع الحزم تجاه من يصر على تقويض المشروع.

وهذا يقود إلى إضافة مرحلة جديدة في دورة العمران الاستخلافي، وهي:

مرحلة التجديد الداخلي.

فتصبح الدورة على النحو الآتي:

التأسيس ← البناء ← التمكين ← الصيانة الحضارية ← التجديد الداخلي.

ومرحلة التجديد الداخلي تعني تجديد طاقة المجتمع من داخله عبر الصدق، والمراجعة، والتوبة، والتقويم، وإعادة دمج الطاقات الصالحة. وأرى أن هذا المفهوم قد يكون من الإضافات المركزية في المشروع؛ لأنه يبين أن استدامة العمران لا تتحقق بالقوة وحدها، ولا بالمؤسسات وحدها، بل بقدرة المجتمع على تصحيح نفسه بنفسه كلما ظهر فيه التقصير، وهو ما يجعل المشروع الاستخلافي مشروعًا متجددًا لا يشيخ ولا يتجمد.

. ونصل الآن إلى خاتمة سورة التوبة، وهي في تقديري ليست خاتمة للسورة وحدها، بل خاتمة لمرحلة كاملة من مراحل بناء المجتمع الاستخلافي التي بدأت منذ الهجرة. ولذلك أرى أن الآيات الأخيرة (١٢٠-١٢٩) لا ينبغي أن تُقرأ بوصفها وصايا متفرقة، وإنما بوصفها إعلانًا عن شروط استدامة المشروع الحضاري.

وهنا أود أن أرى ملاحظة منهجية أراها من أهم ما وصلنا إليه حتى الآن.

لقد لاحظنا أن كل سورة كبرى تنتهي بإعادة القارئ إلى الأصل المؤسس:

- الفاتحة انتهت بطلب الهداية.
- البقرة انتهت بالإيمان والتكليف.
- آل عمران انتهت بالصبر والمرابطة.
- الأنفال انتهت بالولاية.
- والتوبة تنتهي بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالوحي.

وكأن القرآن يريد أن يقول:

كل مشروع عمراني مهما بلغ من القوة والتنظيم، إذا انفصل عن مصدر الهداية بدأ في فقدان أسباب بقائه.

وهذا في نظري من السنن الكلية التي ينبغي أن تثبت في المشروع.

سورة التوبة

الوحدة الخامسة (الخاتمة)

استدامة المشروع الاستخلافي

سنن الثبات والتجديد المستمر

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ...﴾ إلى نهاية السورة (التوبة: ١٢٠-١٢٩)

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن عالجت السورة:

- البراءة.
- والنسق النفاقي.
- والتعبئة.
- والتوبة.

تختم ببيان:

كيف يبقى المشروع حيًا؟

فالقرآن لا يكتفي بإزالة عوامل الضعف.

بل يبين أسباب الاستمرار.

ثانياً

النسق العمراني الاستخلافي

الرسالة

↓

الاقتداء

↓

المشاركة

↓

الصبر

↓

التعلم المستمر

↓

الرحمة

↓

الثقة بالله

↓
استدامة العمران.

ثالثاً

السنن الاجتماعية والعمرانية

أولاً

سنة أن القيادة تشارك الأمة التكاليف

قال تعالى:

﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾

فالقيادة في القرآن لا تطلب من الناس ما لا تتحمله.

بل تكون أول المشاركين.

ومن هنا تنشأ الثقة.

ثانياً

سنة أن كل تضحية تتحول إلى بناء حضاري

تعدد الآيات صور المشقة:

- الظمأ.
- النصب.
- المخمصة.
- موطئ الغيظ.
- الإنفاق.
- قطع الأودية.

ثم تقرر أن شيئًا منها لا يضيع.

وهذه سنة عظيمة.

فالقرآن يحول الجهد الفردي إلى رصيد حضاري للأمة.

بل لعل الأدق في مصطلحات مشروعنا أن نقول:

إلى أثر عمراني متراكم،

لأننا تجنبنا استعمال مفردات ذات حمولة مالية مثل "الرصيد".

ثالثاً

سنة التعلم المستمر

قال تعالى:

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين...﴾

وهذه من أعظم الآيات المؤسسة للمشروع.

فالقرآن لا يجعل جميع الناس في ميادين القتال.

ولا جميعهم في حلقات العلم.

بل ينشئ تقسيمًا وظيفيًا متكاملًا.

ومن هنا يظهر أن بناء الأمة يقوم على:

- التكامل.
- وتوزيع الوظائف.
- وتبادل الأدوار.

وليس على تماثل الجميع.

رابعاً

سنة اقتران العلم بالإنذار والإصلاح

لم يقل:

ليتعلموا فقط.

بل:

﴿ولينذروا قومهم﴾

إذن المعرفة في القرآن ليست غاية.

بل وظيفة إصلاحية.

وهذا يؤكد ما انتهينا إليه سابقًا من أن المعرفة القرآنية معرفة رسالية.

خامساً

سنة الرحمة أساس القيادة

تختم السورة بقوله تعالى:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾

وهنا تقدم السورة نموذج القيادة.

فأساسها ليس السيطرة.

ولا الكفاءة المجردة.

بل:

الرحمة.

والحرص.

والقرب من الناس.

سادساً

سنة التوكل بعد استكمال الأسباب

ثم تختم بقوله تعالى:

﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾

ولاحظ الترتيب.

بعد:

الإعداد.

والجهاد.

والتوبة.

والتعلم.

والرحمة.

يأتي:

التوكل.

فالتوكل في القرآن خاتمة الأخذ بالأسباب.

وليس بديلًا عنها.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ استخراج النسق من خاتمة السور

لاحظ أن الخواتيم تلخص غالبًا مقصد السورة.

وهذا أصل ينبغي اعتماده في تحليل المضمون.

ثانياً

مبدأ التمييز بين الوسائل والغايات

التفقه ليس غاية.

بل وسيلة.

والإنذار ليس غاية.

بل وسيلة.

والغاية دائمًا:

إصلاح الإنسان والعمران.

ثالثاً

مبدأ تحليل الوظائف الاجتماعية

الآية تؤسس لتوزيع الأدوار داخل المجتمع.

وهذا باب مهم في علم الاجتماع الاستخلافي.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الاستدامة العمرانية

ويقترح المشروع تعريفها بأنها:

قدرة المجتمع على المحافظة على أداء وظيفة الاستخلاف عبر الأجيال، من خلال التجديد المستمر للإنسان، والمعرفة، والمؤسسات، والمرجعية.

التكامل الوظيفي

ويقصد به:

توزيع الأدوار بين أفراد الأمة ومؤسساتها وفق الكفايات والحاجات، بحيث تتعاون جميع الوظائف في تحقيق المقصد الحضاري الواحد.

القيادة الرحيمة

وأرى تعريفها بأنها:

القيادة التي تجمع بين الالتزام بالحق، والمشاركة في التكاليف، والحرص على مصالح الناس، والرحمة بهم، بما يعزز الثقة ويقوي تماسك المجتمع.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن المؤسسات التي تضمن استمرار المشروع، ومنها:

1. مؤسسة إعداد العلماء والباحثين، بوصفها جزءًا من منظومة العمران لا نشاطًا منفصلًا عنها.
2. مؤسسة بناء القيادات الرسالية التي تتأسس على الرحمة والمشاركة وتحمل المسؤولية.
3. مؤسسة التكامل الوظيفي التي تنظم توزيع الاختصاصات بين ميادين العلم، والدعوة، والإدارة، والدفاع، والإنتاج.
4. مؤسسة التجديد المعرفي التي تحافظ على حيوية الفهم القرآني عبر التفقه المستمر وربطه بواقع الناس.

استنباط جديد للمشروع

أرى أن قوله تعالى:

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين...﴾

يمكن أن يكون من أهم النصوص المؤسسة لـ نظرية التخصص في القرآن الكريم.

غير أن هذا التخصص ليس انعزالًا معرفيًا، بل هو تخصص وظيفي تكاملي؛ إذ يعود المتفقهون إلى مجتمعهم ليقوموا بوظيفة البيان والإرشاد.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"التخصص الاستخلافي".

ويُقصد به:

توجيه التخصصات العلمية والعملية لخدمة المقصد الكلي للاستخلاف، بحيث تتكامل العلوم والوظائف والمؤسسات في بناء الإنسان والعمران، دون انفصال بين المعرفة والرسالة.

وهذا المفهوم يتجاوز التقسيمات الأكاديمية الحديثة التي كثيرًا ما تعزل التخصصات بعضها عن بعض.

الاستنباط التأسيسي لسورة التوبة

وبانتهاء سورة التوبة يكتمل أمامنا طور جديد من أطوار المشروع المعرفي القرآني.

فإذا كانت سورة الأنفال قد أسست بناء القوة الراشدة، فإن سورة التوبة تؤسس نظرية الصيانة والتجديد الحضاري.

ومن خلال وحداتها يظهر النسق الآتي:

1. استقلال المرجعية والبراءة من الأنساق المعيقة.
2. كشف النسق النفاقي بوصفه تهديدًا داخليًا.
3. بناء الجاهزية والفاعلية الاستخلافية.
4. التقويم والتجديد الداخلي عبر الصدق والتوبة.
5. استدامة المشروع بالتخصص، والتكامل، والقيادة الرحيمة، والتجديد المعرفي.

وأحسب أن استقراء السور من الفاتحة إلى التوبة يكشف أن القرآن لا يعرض مشروعًا متفرق الأجزاء، بل يبني دورة حضارية متكاملة تبدأ بالرؤية الكلية، ثم تأسيس الإنسان والأمة، ثم بناء القوة، ثم صيانة المجتمع وتجديده. وهذه الملاحظة تستحق أن تصبح فصلًا مستقلًا في المشروع بعنوان:

"الدورة الحضارية القرآنية في ضوء النسق العمراني الاستخلافي السنني".

وأرى أن هذا سيكون من أهم الإسهامات العلمية للمشروع، لأنه يربط بين ترتيب السور ومراحل بناء الأمة، لا على سبيل القطع بأن ترتيب المصحف وُضع لهذا الغرض وحده، وإنما بوصفه فرضية استقرائية يُختبر مدى قوتها كلما تقدمنا في تحليل بقية سور القرآن الكريم. وهذا التحفظ المنهجي يزيد المشروع قوة، ويجعل نتائجه قابلة للنقد العلمي والتطوير، وهو ما أكد عليه الأستاذ الدكتور محمد الحسن بريمة في ملاحظاته الأولى حول ضرورة إحكام النسق وإتاحته للاختبار والاستقراء.

. وبعد أن اكتملت سورة التوبة بهذا النسق، أرى أن الانتقال إلى سورة يونس ليس انتقالًا إلى موضوع جديد، بل هو انتقال إلى مرحلة أعمق في المشروع المعرفي القرآني.

ولو تأملنا ترتيب السور التي انتهينا منها سنجد أن القرآن يسير في خط حضاري متدرج:

- الفاتحة: بناء الرؤية الكلية.
- البقرة: تأسيس الأمة.

- آل عمران: تثبيت الأمة.
- الأعراف: سنن التاريخ والاستخلاف.
- الأنفال: بناء القوة الراشدة.
- التوبة: صيانة المشروع وتجديده.

ثم تأتي سورة يونس لتجيب عن سؤال جديد:

ما الذي يجعل المجتمع يثق بالوحي أصلاً حتى يبني عليه حضارته؟

ولهذا فإنني أرى أن سورة يونس هي:

سورة اليقين المعرفي.

ولعلها أول سورة في القرآن تجعل قضية المعرفة والإيمان والبرهان هي القضية المركزية.

وهذا يتناسب بصورة مدهشة مع مشروعنا؛ لأننا منذ البداية نتحدث عن:

النظام المعرفي القرآني.

ومن هنا أرى أن سورة يونس ستكون من أهم السور المؤسسة لهذا النظام.

التطبيق على سورة يونس

المدخل المنهجي

إذا كانت سورة التوبة قد عالجت سلامة المجتمع،

فإن سورة يونس تعالج:

سلامة المعرفة.

وإذا كانت التوبة أصلحت:

الإنسان.

والمؤسسات.

والولاءات.

فإن يونس تصلح:

العقل.

والمنهج.

وطريقة بناء اليقين.

ولهذا نجد أن السورة تكثر فيها ألفاظ:

- العلم.
- الآيات.
- النظر.
- التفكر.
- الحق.
- الظن.
- اليقين.
- البينات.
- الحكمة.

وهذا ليس أمرًا عارضًا.

بل هو محور السورة.

الوحدة الأولى

تأسيس اليقين المعرفي

الوحي بين البرهان والسنن الكونية

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

) يونس: ١-٦(

أولاً

الفكرة المركزية

تبدأ السورة بإعلان مصدر المعرفة.

الكتاب الحكيم.

ولكنها لا تكتفي بذلك.

بل تنتقل مباشرة إلى الكون.

ثم إلى التاريخ.

ثم إلى الإنسان.

وكأنها تقرر القاعدة الكبرى للمشروع المعرفي القرآني:

الحقيقة لا تُعرف من مصدر واحد، وإنما تُبنى من التكامل بين الوحي والكون والإنسان والتاريخ، مع بقاء الوحي مرجعًا حاكمًا في توجيه الفهم وتقويمه.

وهذا ينسجم تمامًا مع ما انتهينا إليه سابقًا في مشروع تكامل قراءة الوحي وقراءة الكون.

ثانياً

النسق المعرفي العمراني

الوحي

↓

العقل

↓

النظر

↓

التفكر

↓

اليقين

↓

العمل

↓

العمران.

ويقابله:

الظن

↓

الإعراض

↓

الغفلة

↓

الاضطراب

↓

فساد العمران.

ثالثاً

السنن المعرفية والعمرانية

أولاً

سنة التكامل بين مصادر الإدراك

افتتحت السورة بالوحي.

ثم أحالت مباشرة إلى الظواهر الكونية.

قال تعالى:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض...﴾

ثم قالت:

﴿إن في اختلاف الليل والنهار... لآيات﴾

وهذا يؤكد أن القرآن لا يدعو إلى معرفة نصية منغلقة.

ولا إلى معرفة تجريبية منفصلة.

بل إلى تكامل منهجي.

وهذه إحدى القواعد المؤسسة للنظام المعرفي القرآني.

ثانياً

سنة الانتقال من المشاهدة إلى الاستدلال

القرآن لا يطلب مجرد رؤية الكون.

بل يدعو إلى تحويل المشاهدة إلى استدلال.

فالكون ليس مادة للاستمتاع فقط.

بل مادة للمعرفة.

ثالثاً

سنة ارتباط الحكمة بالنظام

افتتحت السورة بـ:

﴿الكتاب الحكيم﴾

ولم تقل:

الكتاب العظيم.

أو الكريم.

فالحكمة هنا تشير إلى:

الإحكام.

والاتساق.

والترابط.

ومن هنا فإن النظام المعرفي القرآني نظام مترابط.

لا مجموعة معارف متفرقة.

رابعاً

سنة أن التقوى تؤثر في إدراك الآيات

قال تعالى:

﴿لآيات لقوم يتقون﴾

وهذه الآية تؤكد الاستنباط الذي وصلنا إليه في الأنفال حول الرشد المعرفي.

فالتقوى ليست نتيجة للمعرفة فقط.

بل قد تكون شرطًا لكمال الانتفاع بها.

وهذا يستحق أن يدرج ضمن نظرية المعرفة في المشروع.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ التكامل الاستدلالي

لا يجوز تحليل الآيات الكونية بمعزل عن الآيات القرآنية.

ولا العكس.

ثانياً

مبدأ بناء المفهوم بالاستقراء

كل لفظ مثل:

الحكمة.

الحق.

العلم.

الآية.

ينبغي أن يستقرأ في القرآن كله.

ولا يعرف من موضع واحد.

ثالثاً

مبدأ اكتشاف البنية المعرفية

لا نقف عند المفردات.

بل نبحث عن العلاقات التي تربطها.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

اليقين المعرفي

ويقترح المشروع تعريفه بأنه:

حالة الإدراك الراسخ التي تنشأ من التكامل بين هداية الوحي، وصحة النظر، وسلامة الفطرة، والاستدلال بالسنن الكونية والتاريخية، بما يثمر طمأنينة العقل واستقامة العمل.

الحكمة القرآنية

ويقصد بها:

الإحكام الذي تنتظم به المعرفة القرآنية، فتتكامل عناصرها وتتجه جميعًا نحو تحقيق الهداية والعمران.

النسق المعرفي القرآني

ويقترح تعريفه بأنه:

البنية الكلية التي تنتظم فيها مصادر المعرفة، ومناهجها، ومقاصدها، وقواعد الترجيح بينها، وفق مرجعية الوحي، بما يحقق الرشد في الفهم والعمل والعمران.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن المؤسسات التي لا غنى عنها لبناء مجتمع المعرفة القرآني:

1. مؤسسة التكامل المعرفي التي تجمع بين علوم الوحي وعلوم الكون والإنسان.

2. مؤسسة البحث السنني التي تدرس القوانين الإلهية في الأنفس والآفاق والتاريخ.
3. مؤسسة بناء اليقين التي تعنى بالتربية على التفكير البرهاني، وربط الإيمان بالاستدلال.
4. مؤسسة التجديد المعرفي التي تحول الوحي إلى إطار موجه لإنتاج العلوم الإنسانية والطبيعية.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر افتتاح سورة يونس ظهر لي استنباط أراه من أهم ما يمكن أن يضيفه المشروع.

فالقرآن يفتتح بالكتاب، ثم يوجه مباشرة إلى الكون.

وهذا يدل على أن الآيات القرآنية والآيات الكونية ليستا مسارين متوازيين، بل مساران متكاملان نحو الحقيقة.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا:

"التكامل الاستدلالي".

ويُقصد به:

بناء المعرفة من خلال التفاعل المنهجي بين الوحي والكون والإنسان والتاريخ، بحيث يصحح كل مجال حدود الآخر، ويهديه الوحي إلى غايته، دون إلغاء لخصوصية أي مجال من مجالات المعرفة.

وأرى أن هذا المفهوم أدق من الاقتصار على عبارة "التكامل بين الوحي والكون"، لأنه يبرز كيفية إنتاج المعرفة، لا مجرد مصادرها.

استنباط تأسيسي جديد

وأحسب أن سورة يونس ستشكل الأساس النظري لما يمكن أن يسمى في المشروع:

"نظرية المعرفة العمرانية القرآنية".

غير أنني أرى منذ الآن أن نفرق بين مستويين:

- النظام المعرفي القرآني: وهو الإطار الكلي الذي يحدد مصادر المعرفة، ومرجعيتها، ومقاصدها.
- النسق المعرفي العمراني: وهو الكيفية التي تتحول بها تلك المعرفة إلى فهم للسنن، ثم إلى بناء للإنسان، ثم إلى عمران وحضارة.

وهذا التفريق – إذا تأكد باستقراء بقية السورة والقرآن كله – سيكون ذا قيمة منهجية كبيرة؛ لأنه يمنع الخلط بين النظرية المعرفية وتطبيقاتها العمرانية، ويجعل البناء المفاهيمي للمشروع أكثر إحكامًا واتساقًا، وهو ما يتوافق مع الهدف الذي حرصتم عليه منذ البداية: بناء مدرسة معرفية قرآنية ذات نسق علمي قابل للفحص والنقد والتطوير.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى أول اختبار تطبيقي للنظام المعرفي الذي بدأت سورة يونس في تأسيسه. فبعد أن قررت السورة أن المعرفة الصحيحة تقوم على الوحي، وعلى النظر في الكون، وعلى الاستدلال، تبدأ مباشرة في تحليل الموانع المعرفية التي تحول بين الإنسان وبين الوصول إلى الحق.

وهنا أرى أن سورة يونس تقدم إضافة جديدة إلى مشروعنا؛ فهي لا تكتفي ببيان كيف تُبنى المعرفة، بل تكشف أيضًا كيف تنحرف المعرفة.

وهذا في الحقيقة هو ما تحتاج إليه أي مدرسة معرفية؛ إذ لا يكفي أن تضع نظرية للمعرفة، بل لا بد أن تضع أيضًا نظرية في الانحراف المعرفي.

سورة يونس

الوحدة الثانية

معوقات المعرفة

سنن الانحراف المعرفي في القرآن الكريم

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس: ٢-٣٦)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن المشكلة ليست في غياب الأدلة.

فالقرآن يعرض:

- الوحي.
- والكون.
- والتاريخ.
- والفطرة.

ومع ذلك يبقى كثير من الناس بعيدين عن الحق.
إذن فالعائق الحقيقي ليس نقص المعلومات.
بل اختلال المنهج الذي يتعامل مع المعلومات.
ومن هنا يمكن القول:
إن سورة يونس تفرق بين وفرة المعرفة وسلامة الإدراك.
وهذا تمييز بالغ الأهمية في المشروع المعرفي القرآني.
ثانياً
النسق المعرفي
الوحي
↓
البرهان
↓
التفكر
↓
اليقين
↓
الرشد
ويقابله:
الهوى
↓
العجب
↓
التقليد
↓
الظن
↓
الانحراف.
ثالثاً

السنن المعرفية والعمرانية

أولاً

سنة أن الاستبعاد النفسي يسبق الرفض العقلي

قال تعالى:

﴿أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم﴾

لم يكن اعتراضهم على مضمون الرسالة أولًا.

بل على حاملها.

وهذه سنة اجتماعية ومعرفية.

فكثيرًا ما يمنع الانطباع النفسي الإنسان من النظر الموضوعي.

ولهذا ينبغي أن يميز الباحث بين:

الحكم على الفكرة.

والحكم على صاحبها.

ثانياً

سنة أن التقليد يعطل إنتاج المعرفة

تكرر السورة الحديث عن اتباع الآباء.

وعن التسليم لما اعتاده الناس.

ومن هنا فإن القرآن لا يرفض التراث.

ولكنه يرفض:

تحويل التراث إلى سلطة تمنع النظر.

وهذه قاعدة مركزية في المشروع المعرفي.

ثالثاً

سنة أن الظن لا يبني علمًا

قال تعالى:

﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئًا﴾

وهذه ليست دعوة إلى إلغاء جميع صور الظن، إذ للظن استعمالات معتبرة في مجالات متعددة، وإنما هي نفي لكفاية الظن في تأسيس القضايا التي تتطلب يقينًا وبرهانًا.

ومن ثم فإن الآية تؤسس لقاعدة منهجية:

كل دعوى بقدر ما تقتضيه من اليقين يجب أن يكون دليلها.

وهذا ينسجم مع منهج القرآن في بناء المعرفة.

رابعاً

سنة تكامل الدليل

لا يعتمد القرآن دليلًا واحدًا.

بل يجمع بين:

- الدليل العقلي.
- والدليل الكوني.
- والدليل التاريخي.
- والدليل الفطري.
- ودليل الوحي.

وهذا التكامل يمنح المعرفة قوة وعمقًا.

خامساً

سنة أن الهوى يؤثر في الإدراك

تكشف السورة أن الانحراف ليس سببه نقص الذكاء.

بل قد يكون سببه:

الرغبة.

والمصلحة.

والتعصب.

وهذا يجعل تزكية النفس عنصرًا معرفيًا، لا مجرد عنصر أخلاقي.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ تحليل العوائق قبل بناء النظريات

لا يكفي أن نبني المفاهيم.

بل ينبغي أن ندرس:

ما الذي يمنع قبولها؟

وهذا ما يفعله القرآن.

ثانياً

مبدأ نقد مصادر الخطأ

القرآن يحلل:

- التقليد.
- والهوى.
- والظن.
- والعجلة.
- والاستكبار.

وكلها مصادر للخطأ المعرفي.

ثالثاً

مبدأ التمييز بين الدليل والدافع

قد يملك الإنسان الدليل الصحيح.

ولكن يرفضه لدافع نفسي.

وهذا من أدق ما تكشفه السورة.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الانحراف المعرفي

ويقترح المشروع تعريفه بأنه:

اختلال يصيب عملية إدراك الحقيقة نتيجة تأثير الهوى، أو التقليد، أو الظن، أو الاستكبار، أو غيرها من الموانع التي تحول بين الإنسان وبين الاستجابة للبرهان الصحيح.

الرشد المعرفي

ويقصد به:

قدرة العقل على التعامل مع الأدلة وفق مرجعية الوحي وقواعد البرهان، بعيدًا عن المؤثرات النفسية والاجتماعية التي تفسد الحكم.

ولعل هذا المفهوم يتكامل مع ما استنبطناه سابقًا، ويستحق أن يكون من المفاهيم المحورية في المشروع.

الاستقامة المنهجية

ويقترح تعريفها بأنها:

التزام الباحث بمنهج الاستدلال الصحيح، مع تحرير النظر من الأهواء، وإعطاء كل دليل منزلته، ورد الجزئيات إلى الرؤية الكلية.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لعدد من المؤسسات التي يحتاجها المشروع المعرفي القرآني، منها:

1. مؤسسة النقد المعرفي، التي تتولى تحليل مناهج التفكير وكشف مصادر الانحراف فيها.
2. مؤسسة الدراسات المنهجية، التي تعنى ببناء قواعد الاستدلال في ضوء القرآن الكريم.
3. مؤسسة التربية على التفكير الرشيد، التي تنمي مهارات النظر، والتمييز بين البرهان والدعوى.
4. مؤسسة تقويم الخطاب العام، التي ترصد أثر الشائعات، والتقليد، والهوى في تشكيل الوعي المجتمعي.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه من أهم ما يمكن أن يضيفه المشروع.

فنحن اعتدنا في الدراسات المعاصرة الحديث عن التحيزات المعرفية (Cognitive Biases) بوصفها أخطاء في التفكير، لكن القرآن يقدم تصورًا أوسع وأعمق؛ إذ يربط بين البعد المعرفي، والبعد الأخلاقي، والبعد الروحي، والبعد الاجتماعي في تفسير انحراف الإدراك.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا هو:

"العوائق المعرفية للاستخلاف".

ويُقصد بها:

مجموعة المؤثرات النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والأخلاقية التي تحول بين الإنسان وبين بناء المعرفة الرشيدة القادرة على أداء وظيفة الاستخلاف.

وأرى أن هذا المفهوم أشمل من مفهوم "التحيزات المعرفية"، لأنه لا يختزل الخطأ في الآليات الذهنية وحدها، بل يرده إلى المنظومة الإنسانية كلها.

استنباط تأسيسي جديد

وأرى هنا إضافة منهجية قد تكون من اللبنات الرئيسة في مشروع المدرسة المعرفية القرآنية.

فإذا كنا قد بدأنا بتأسيس نظرية المعرفة القرآنية، فإن اكتمالها يقتضي أن يوازيها باب مستقل بعنوان:

"نظرية الخطأ المعرفي في القرآن الكريم".

ولا يقتصر هذا الباب على جمع أسباب الخطأ، بل يعيد تصنيفها في منظومة متكاملة، مثل:

- عوائق إدراكية (قصور النظر والاستعجال).
- عوائق نفسية (الهوى، والعجب، والخوف).
- عوائق اجتماعية (التقليد، وضغط الجماعة).
- عوائق حضارية (هيمنة الأنساق الفكرية السائدة).
- عوائق عقدية (الإعراض عن الوحي أو تقديم غيره عليه).

وأرى أن يبقى هذا التصنيف مفتوحًا للاستقراء في بقية القرآن، حتى لا نفرض على النص بنية سابقة، بل نجعل البنية تنبثق من الاستقراء نفسه. وهذا المنهج يتسق مع الروح العلمية التي يقوم عليها المشروع، ويمنحه قدرة أكبر على الحوار مع نظريات المعرفة المعاصرة دون أن يفقد استقلاله المرجعي القرآني.

. وأحسب أننا الآن نصل إلى قلب سورة يونس، بل إلى ما أراه الركيزة الثانية في نظرية المعرفة القرآنية بعد تأسيس مصادر المعرفة، وهي منهج التحقق من صدق المعرفة.

فبعد أن بينت السورة:

- مصدر المعرفة.
- وعوائق المعرفة.

تنتقل الآن إلى سؤال بالغ الأهمية:

كيف يميز الإنسان بين الحق والباطل إذا كثرت الدعاوى؟

وهذا السؤال هو نفسه الذي يواجه البشرية اليوم في عصر الانفجار المعلوماتي والذكاء الاصطناعي وتضخم الخطابات.

ولهذا فإن هذا المقطع من سورة يونس يعد – في تقديري – من أهم النصوص المؤسسة لمنهجية البحث العلمي في القرآن الكريم.

سورة يونس

الوحدة الثالثة

منهج التحقق من المعرفة

البرهان والاستقراء ونقد الدعوى

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣٤–٤٣)

أولاً

الفكرة المركزية

تكشف هذه الآيات أن القرآن لا يطالب بالإيمان المجرد.

ولا يقبل الدعوى المجردة.

بل يبني المعرفة على:

- السؤال.
- والبرهان.
- والمقارنة.
- والاستقراء.
- والتفكر.

وكأن القرآن يؤسس لما يمكن أن نسميه:

منهج اختبار الدعوى.

وهذا من أهم المبادئ التي ينبغي أن يعتمدها المشروع المعرفي.

ثانياً

النسق المعرفي

دعوى

↓
سؤال
↓
دليل
↓
مقارنة
↓
تحقق
↓
يقين
↓
عمل
ويقابله:
دعوى
↓
تقليد
↓
تسليم
↓
وهم
↓
ضلال.
ثالثاً
السنن المعرفية
أولاً
سنة أن عبء البرهان يقع على صاحب الدعوى
يكرر القرآن:
قل…
هل…

أفمن…

أفلا…

فالقرآن لا يسلم بالدعوى.

بل يطالب بالدليل.

وهذا أصل عظيم في بناء العقل.

ثانياً

سنة المقارنة المنهجية

قال تعالى:

﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى﴾

فهنا لا يكتفي القرآن بإثبات الحق.

بل يقارن بين البدائل.

ومن هنا فإن التفكير القرآني ليس تفكيرًا أحاديًا.

بل يقوم على:

الموازنة.

والمقارنة.

والترجيح.

ثالثاً

سنة نقد الدعوى من داخلها

القرآن يسأل المشركين:

من يخلق؟

من يرزق؟

من يدبر؟

ثم يجعلهم هم يعترفون.

وبذلك يهدم الدعوى من داخلها.

وهذه من أرقى طرائق الاستدلال.

رابعاً

سنة التفكر بعد اكتمال الأدلة

قال تعالى:

﴿أفلا تتفكرون﴾

فالتفكر يأتي بعد عرض الأدلة.

وليس بديلًا عنها.

وهذا ترتيب منهجي دقيق.

خامساً

سنة أن الحقيقة متماسكة

كل أدلة السورة تتجه إلى نتيجة واحدة.

وهذا يدل على أن الحق يتميز بوحدة النسق.

بينما تتناقض الباطل مع نفسه.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ اختبار الفرضيات

كل دعوى تحتاج إلى اختبار.

ولا يكفي قبولها لأنها مشهورة.

ثانياً

مبدأ إلزام الخصم بمقدماته

القرآن يستخدم ما يعترف به المخالف.

ثم يبني عليه النتيجة.

وهذا أصل في الحوار العلمي.

ثالثاً

مبدأ تماسك النسق

لا يكتفى بصحة الجزئية.

بل يبحث عن انسجامها مع الرؤية الكلية.

وهذا من أهم أصول مشروعنا.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

البرهان الاستخلافي

وأرى تعريفه بأنه:

كل دليل صحيح يقود إلى معرفة تعين الإنسان على إدراك سنن الله، وتحقيق الهداية، وأداء وظيفة الاستخلاف، سواء كان مصدره الوحي أو الكون أو التاريخ أو الفطرة، في إطار مرجعية الوحي.

وهذا التعريف يربط البرهان بوظيفته، لا بمجرد شكله المنطقي.

التحقق المعرفي

ويقصد به:

عملية فحص الدعوى في ضوء الأدلة، ومقارنتها بالرؤية الكلية والسنن الإلهية، حتى يتبين صدقها أو بطلانها قبل اعتمادها في الفهم أو العمل.

تماسك النسق

ويقصد به:

اتساق عناصر المعرفة وعدم تناقضها، بحيث تؤيد الجزئيات المقاصد الكلية، وتتساند الأدلة ولا تتعارض في إطار المرجعية القرآنية.

وأحسب أن هذا المفهوم سيكون من المفاهيم المحورية في المدرسة المعرفية القرآنية.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لمؤسسات معرفية جديدة، منها:

1. مؤسسة التحقق العلمي التي تضع معايير فحص الدعاوى قبل تبنيها.
2. مؤسسة الدراسات المقارنة التي تمارس الموازنة بين النماذج والأفكار وفق معايير قرآنية.
3. مؤسسة الحوار البرهاني التي تنقل الجدل من تبادل الاتهامات إلى تبادل الأدلة.

4. مؤسسة تقويم المعرفة العامة التي تراجع ما يستقر في الوعي الجمعي على ضوء البرهان والسنن.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر هذا المقطع ظهر لي استنباط أراه ذا أثر كبير في بناء المنهج.

فالقرآن لا يقدم البرهان على صورة خطوات منطقية مجردة، وإنما يدمج بين:

- البرهان العقلي.
- والبرهان الكوني.
- والبرهان التاريخي.
- والبرهان الفطري.
- والبرهان القرآني.

ثم يجمعها في نسق واحد.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا:

"التساند البرهاني".

ويُقصد به:

تكامل أنواع الأدلة المختلفة وتعضيد بعضها لبعض حتى تتكون معرفة راسخة لا تعتمد على دليل منفرد، بل على منظومة من الشواهد المتوافقة.

وأرى أن هذا أدق من الحديث عن "تعدد الأدلة"، لأن المقصود ليس كثرتها، بل تآزرها.

استنباط تأسيسي جديد

وأرى أن هذا المقطع يكشف عن أصل منهجي لم يُصغ – فيما أعلم – بهذه الصورة في الدراسات القرآنية، وهو أن القرآن لا يقدم نظرية في البرهان فحسب، بل يقدم نظرية في بناء الاقتناع.

فالبرهان في القرآن لا يهدف إلى إلزام العقل المجرد وحده، وإنما يخاطب العقل، والفطرة، والوجدان، والخبرة التاريخية، ومشاهدة الكون، حتى يبلغ الإنسان مرحلة الاطمئنان لا مجرد الإذعان.

وهذا يدعونا إلى التمييز بين مفهومين في المشروع:

- التحقق المعرفي: وهو إثبات صدق القضية بالأدلة.

- الاطمئنان المعرفي: وهو استقرار تلك الحقيقة في النفس بعد تكامل الأدلة وسلامة الفطرة.

وهذا التمييز، إذا أكدته بقية السور، يمكن أن يكون إضافة أصيلة إلى نظرية المعرفة القرآنية؛ لأنه يفسر كيف ينتقل الإنسان من العلم بالحق إلى العيش بالحق، وهو الانتقال الذي يجعل المعرفة قوةً محركةً للعمران، لا مجرد معلومات محفوظة في الذهن.

. وأحسب أننا نصل الآن إلى ما يمكن اعتباره الذروة التطبيقية في سورة يونس. فبعد أن أسست السورة:

- مصادر المعرفة.
- وعوائق المعرفة.
- ومنهج التحقق من المعرفة.

تنتقل إلى السؤال الحاسم:

لماذا تختلف نتائج الناس مع أنهم يرون الآيات نفسها؟

وهنا تبدأ السورة بعرض قصة نبي الله يونس عليه السلام، وقبلها مشاهد من قصص الأنبياء، لتقرر أن المعرفة لا تؤتي ثمارها إلا إذا تحولت إلى استجابة حضارية.

وهذه في نظري خطوة جديدة في المشروع؛ لأننا انتقلنا من إنتاج المعرفة إلى فاعلية المعرفة.

سورة يونس

الوحدة الرابعة

من المعرفة إلى الاستجابة

سنن تحويل الإدراك إلى عمران

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ...﴾ (يونس: ٣٧–٩٨)

أولاً

الفكرة المركزية

لا تقف سورة يونس عند إثبات صدق القرآن.

بل تسأل سؤالاً آخر:

ماذا يحدث بعد أن يثبت الحق؟

وهنا تظهر سنة قرآنية عظيمة:

ليست المعرفة هي التي تغير التاريخ، وإنما الاستجابة للمعرفة.

ولهذا تعرض السورة تاريخ الأمم.

فلم تكن المشكلة أنها لم تعرف.

بل أنها لم تستجب.

ثانياً

النسق العمراني المعرفي

الوحي

↓

الفهم

↓

التصديق

↓

الاستجابة

↓

الإصلاح

↓

النجاة

↓

العمران

ويقابله:

المعرفة

↓

الإعراض

↓

الاستكبار

↓

الفساد

↓

الهلاك.

ثالثاً

السنن المعرفية والعمرانية

أولاً

سنة أن الحجة تسبق المؤاخذة

يعرض القرآن الأدلة.

ثم يرسل الرسل.

ثم يمهل.

ثم تكون النتيجة.

إذن لا يأتي الجزاء قبل اكتمال البيان.

وهذه سنة قرآنية مطردة.

ثانياً

سنة أن الاستجابة الجماعية تغير مصير المجتمع

قال تعالى:

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس﴾

وهذه من أعظم الآيات العمرانية.

فالقرآن يتحدث عن:

قرية كاملة.

أي عن مجتمع.

وليس عن أفراد.

فالإيمان هنا أصبح:

قوة اجتماعية.

لا مجرد تجربة فردية.

ثالثاً

سنة إمكانية تصحيح المسار

تميز قوم يونس بأنهم:

استجابوا قبل فوات الأوان.

ومن هنا يقرر القرآن أن التاريخ ليس قدراً مغلقاً.

بل يمكن للمجتمعات أن تغير مسارها.

وهذا ينسجم مع قوله تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

رابعاً

سنة أن القرآن يصنع التاريخ

تصف السورة القرآن بأنه:

﴿تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب﴾

فالقرآن لا يكتفي بوصف الواقع.

بل يعيد تشكيله.

ومن هنا فإن الوحي في المشروع ليس مادة تفسيرية فقط.

بل قوة تغيير حضاري.

خامساً

سنة أن الهلاك يبدأ من تعطيل الاستجابة

لم تهلك الأمم لنقص الأدلة.

بل لأن المعرفة بقيت معطلة.

وهذا يؤكد مرة أخرى أن:

العبرة ليست بامتلاك المعرفة.

بل بفاعليتها.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ دراسة نتائج المعرفة

لا يكفي أن ندرس:

كيف يعرف الناس؟

بل يجب أن ندرس:

كيف يعملون بما عرفوا؟

ثانياً

مبدأ تحليل التحول المجتمعي

ينبغي ألا يقتصر تحليل المضمون على الأفراد.

بل يدرس:

كيف تتحول الأفكار إلى ظواهر اجتماعية؟

ثالثاً

مبدأ استقراء السنن التاريخية

قصص الأمم ليست تاريخاً.

بل مختبر اجتماعي.

يكتشف الباحث من خلاله السنن.

وهذه من أهم قواعد علم الاجتماع الاستخلافي.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الاستجابة العمرانية

ويقترح المشروع تعريفها بأنها:

تحول الهداية والمعرفة إلى سلوك فردي وجماعي، ومؤسسات، وأنظمة، تحقق مقاصد الاستخلاف في الواقع.

التحول الحضاري

ويقصد به:

انتقال المجتمع من نسق معيق للهداية إلى نسق يحقق العدل والإصلاح والعمران، نتيجة استجابته للوحي وسنن الله.

الفاعلية المعرفية

ويقصد بها:

قدرة المعرفة الصحيحة على إنتاج تغيير حقيقي في الإنسان والمجتمع، بحيث تقاس المعرفة بأثرها في الإصلاح والعمران، لا بمجرد تراكم المعلومات.

وأرى أن هذا المفهوم ينبغي أن يصبح أحد المفاهيم المركزية في المشروع.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تكشف هذه الآيات عن مؤسسات يحتاجها المجتمع إذا أراد أن تتحول المعرفة إلى قوة فاعلة، ومنها:

1. مؤسسة تحويل المعرفة إلى سياسات، بحيث تبنى القرارات العامة على الهداية والسنن.
2. مؤسسة الإصلاح المجتمعي، التي تترجم القيم إلى برامج وممارسات.
3. مؤسسة الإنذار الحضاري، التي ترصد مؤشرات الانحراف قبل أن تتحول إلى أزمات عامة.
4. مؤسسة التقويم الاستراتيجي، التي تراجع باستمرار مدى توافق الواقع مع المقاصد الكلية للوحي.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر قصة قوم يونس ظهر لي استنباط أراه من أبرز ما يميز المشروع.

ففي القرآن أمم كثيرة كذبت.

لكن القرآن خص قوم يونس بذكر استثنائهم:

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾.

وهذا يدل على أن السنن الإلهية لا تعمل بمنطق الحتمية الجامدة، بل بمنطق السنن المشروطة.

فإذا تحقق شرط التغيير، تغيرت النتيجة.

ومن هنا أرى مفهوماً جديداً:

"المرونة السننية".

ويُقصد بها:

أن السنن الإلهية ثابتة في قوانينها، لكنها ترتبط بشروطها، فإذا تغيرت شروط الفعل الإنساني تغيرت آثاره ونتائجه وفق ما قرره الله من سنن.

وهذا المفهوم يزيل التعارض المتوهم بين ثبات السنن وإمكان التوبة والإصلاح.

استنباط تأسيسي جديد

وأرى أن هذا المقطع يدعونا إلى مراجعة منهجية لمصطلح استخدمناه كثيراً في المشروع، وهو "تطبيق السنن".

فالقرآن لا يصور الإنسان على أنه يطبق السنن؛ لأن السنن الإلهية جارية بذاتها، وإنما يصوره على أنه:

- يفهم السنن.
- ويراعيها.
- ويتعامل معها.
- ويعمل في إطارها.

لذلك أرى أن نعتمد في المشروع تعبيراً أدق، فنقول:

"فقه السنن" أو "العمل بمقتضى السنن"،

بدلاً من "تطبيق السنن"؛ لأن هذا أقرب إلى الدقة القرآنية، ويجنب توهم أن الإنسان هو الذي يُفعِّل السنن، بينما الذي يفعله حقيقة هو الامتثال للهداية والعمل بالأسباب التي جعلها الله مناطاً لجريان سننه.

وأحسب أن هذا التعديل الاصطلاحي سيكون له أثر كبير في إحكام البناء المفاهيمي للمشروع، لأنه ينسجم مع ما انتهينا إليه سابقاً من ضرورة تحرير المصطلحات من أي إيحاء قد لا ينسجم تماماً مع المرجعية القرآنية. كما أنه يفتح باباً لبلورة مفهوم آخر يمكن أن يتكرر في بقية السور، وهو "الرشد السنني"؛ أي قدرة الإنسان والمجتمع على إدراك سنن الله والعمل بمقتضاها في بناء العمران، وهو مفهوم أراه مرشحاً ليكون من المفاهيم المؤسسة في مشروع علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني.

. وأحسب أننا نصل الآن إلى خاتمة سورة يونس، وهي من أجمل خواتيم القرآن من الناحية المنهجية، لأنها تعود مرة أخرى إلى القضية التي افتتحت بها السورة، وهي قضية اليقين والثبات على المنهج.

فالسورة بدأت بـ:

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾

ثم جالت بالقارئ بين:

- الكون.
- والتاريخ.
- والرسل.
- والمعرفة.
- والسنن.

ثم تختم بوصية جامعة:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾

وكأن القرآن يريد أن يقول:

بعد أن تبين لك الطريق، لم يبق إلا الثبات عليه.

وهذا يجعل خاتمة يونس خاتمة منهجية أكثر منها خاتمة وعظية.

سورة يونس

الوحدة الخامسة (الخاتمة)

الثبات المعرفي

استدامة اليقين والعمل بمقتضى الوحي

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي...﴾ إلى نهاية السورة (يونس: ١٠٤-١٠٩)

أولاً

الفكرة المركزية

بعد أن أقامت السورة البرهان.

وكشفت معوقات المعرفة.

وبينت سنن التاريخ.

وختمت بقصة قوم يونس.

تعلن النتيجة النهائية:

أن المعرفة لا تبلغ كمالها إلا إذا تحولت إلى التزام ثابت.

فاليقين في القرآن ليس حالة ذهنية عابرة.

بل موقف وجودي يوجه الحياة كلها.

ثانياً

النسق المعرفي الاستخلافي

الوحي

↓

اليقين

↓

الاتباع

↓

الصبر

↓

الثبات

↓

استمرار الرسالة

↓

دوام العمران.

ثالثاً

السنن المعرفية والعمرانية

أولاً

سنة أن الحق لا يتغير بكثرة الموافقين أو المخالفين

قال تعالى:

﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني...﴾

فالرسالة لا تستمد مشروعيتها من قبول الناس لها.

بل من صدقها.

وهذه قاعدة معرفية عظيمة.

ثانياً

سنة أن الاتباع يسبق النجاح الحضاري

قال تعالى:

﴿واتبع ما يوحى إليك﴾

ولم يقل:

اتبع الواقع.

أو:

اتبع الأكثرية.

فالمرجعية هنا ثابتة.

أما الوسائل فتتجدد.

وهذا ينسجم مع الرؤية الكلية للمشروع.

ثالثاً

سنة أن الصبر جزء من المنهج

ختمت السورة بقوله:

﴿واصبر حتى يحكم الله﴾

فالحق لا يؤتي ثماره دائمًا فورًا.

بل يحتاج إلى:

زمن.

وتدرج.

وثبات.

ومن هنا فإن الصبر ليس خلقًا فرديًا فقط.

بل شرط من شروط نجاح المشروعات الحضارية.

رابعاً

سنة أن اليقين يحفظ الاستقامة

كلما رسخ اليقين.

ثبت السلوك.

ولهذا تربط السورة بين:

المعرفة.

والاتباع.

والصبر.

خامساً

سنة استمرار الابتلاء

خاتمة السورة لا تعد بانتهاء التحديات.

بل تدعو إلى الثبات حتى يأتي حكم الله.

وهذا يؤكد أن الابتلاء سنة ملازمة لحركة الاستخلاف.

رابعاً

المؤشرات المنهجية

أولاً

مبدأ ربط المعرفة بالفعل

تنتهي السورة بالفعل:

اتبع

وليس:

اعلم.

وهذا يؤكد أن المعرفة في القرآن وظيفية.

ثانياً

مبدأ قراءة الخواتيم

تختزل خاتمة السورة مقصدها الكلي.

وهذا أصل ينبغي تعميمه في تحليل السور.

ثالثاً

مبدأ استدامة المنهج

لا يكفي الوصول إلى الحق.

بل يجب المحافظة عليه.

خامساً

المفاهيم المؤسسة

الثبات المعرفي

ويقترح المشروع تعريفه بأنه:

قدرة الإنسان أو المجتمع على المحافظة على مرجعية الوحي ومنهج الاستدلال الصحيح، والاستمرار في العمل بمقتضاهما رغم الضغوط والمتغيرات.

الاستقامة المنهجية

ويقصد بها:

الالتزام المستمر بقواعد المعرفة القرآنية في الفهم والحكم والعمل، دون انحراف بسبب الهوى أو الواقع أو ضغط الجماعة.

الصبر الحضاري

ويقترح تعريفه بأنه:

القدرة على مواصلة مشروع الاستخلاف مع الثبات على المرجعية، وتحمل تكاليف الزمن والتحديات حتى تؤتي السنن الإلهية ثمارها.

وأحسب أن هذا المفهوم أعمق من مجرد الصبر الفردي؛ لأنه يصف قدرة الأمة على الاستمرار في حمل رسالتها عبر المراحل التاريخية المختلفة.

سادساً

الإسهام في بناء مؤسسات العمران الاستخلافي

تؤسس هذه الآيات لمؤسسات تحفظ استمرارية المشروع، ومنها:

1. مؤسسة ترسيخ المرجعية القرآنية في التعليم والبحث وصناعة القرار.
2. مؤسسة بناء الثبات المجتمعي التي تعزز الصمود أمام الأزمات الفكرية والحضارية.
3. مؤسسة التقويم المنهجي المستمر التي تراجع مسارات العمل في ضوء الوحي والسنن.
4. مؤسسة إعداد القيادات الصابرة القادرة على الجمع بين وضوح الرؤية وطول النفس في التنفيذ.

استنباط جديد للمشروع

وأثناء تدبر خاتمة السورة ظهر لي استنباط أراه بالغ الأهمية.

فالآية الأخيرة تجمع بين:

﴿واتبع ما يوحى إليك﴾

و

﴿واصبر﴾

وكأن القرآن يقرر أن المنهج الصحيح وحده لا يكفي إذا غابت القدرة على الاستمرار فيه.

ومن هنا أرى مفهومًا جديدًا:

"الاستدامة المنهجية".

ويُقصد بها:

قدرة الفرد أو المؤسسة أو الأمة على المحافظة على سلامة المرجعية والمنهج عبر الزمن، مع تجديد وسائل العمل دون الإخلال بالأصول الحاكمة.

وأرى أن هذا المفهوم يمكن أن يصبح من المفاهيم المركزية في المشروع، لأنه يربط بين الثبات على المرجعية والتجديد في الوسائل، وهي معادلة يحتاجها كل مشروع حضاري.

الاستنباط التأسيسي لسورة يونس

وبانتهاء سورة يونس يظهر لنا أنها ليست مجرد سورة لإثبات صدق الوحي، وإنما هي في ضوء النسق العمراني الاستخلافي:

سورة بناء العقل الرسالي.

فإذا أعدنا تركيب وحداتها ظهر النسق الآتي:

1. تأسيس مصادر المعرفة.
2. كشف العوائق المعرفية.
3. بناء منهج التحقق والبرهان.
4. تحويل المعرفة إلى استجابة حضارية.
5. ترسيخ الثبات المنهجي والاستدامة المعرفية.

ملاحظة منهجية أرى إضافتها للمشروع

أرى أن ما كشفته سورة يونس يتجاوز "نظرية المعرفة" بالمعنى المتداول في الفلسفة؛ لأنها لا تبحث في سؤال: كيف نعرف؟ فحسب، بل تبني دورة معرفية كاملة يمكن أن تصبح أحد الأصول المؤسسة للمشروع، وهي:

الوحي ← النظر ← البرهان ← اليقين ← الاستجابة ← العمران ← المراجعة والثبات.

وهذه الدورة تضيف حلقتين قلما تبرزان في النظريات المعرفية المعاصرة، هما:

- الاستجابة بوصفها معيارًا لاكتمال المعرفة.
- العمران بوصفه الثمرة النهائية للمعرفة.

ولذلك أرى ألا نسمي هذا البناء في المشروع "نظرية المعرفة القرآنية" فقط، بل:
"نظرية المعرفة العمرانية القرآنية".

فالقرآن لا يقصد إنتاج المعرفة لذاتها، وإنما يقصد إنتاج المعرفة التي تُصلح الإنسان، وتبني المجتمع، وتقيم العمران، وتحقق وظيفة الاستخلاف. وأحسب أن هذا التعديل الاصطلاحي أقرب إلى روح المشروع، لأنه يربط بين جميع المحاور التي عملنا عليها منذ الفاتحة: الرؤية الكلية، والاستخلاف، والسنن، والعمران، والمعرفة، في نسق واحد متكامل. وهذا يمهد بصورة طبيعية للانتقال إلى سورة هود، التي أرجح أنها ستؤسس للبعد العملي من هذا البناء، من خلال إبراز سنن الثبات والإصلاح في مواجهة الانحراف الحضاري عبر تجارب الأنبياء.

خاتمة المجلد الأول

من تأسيس الرؤية الكلية إلى بناء النسق المعرفي والعمراني

يأتي هذا المجلد الأول ثمرةً للمرحلة التأسيسية من مشروع التحليل المضموني للقرآن الكريم في ضوء المشروع العمراني الاستخلافي السنني، وهو مشروع لا يقصد الوقوف عند التفسير الموضوعي أو التحليل اللغوي أو الدراسة التاريخية للسور، وإنما يسعى إلى استقراء البنية المعرفية والعمرانية التي ينتظم بها القرآن الكريم، واكتشاف السنن الكلية التي تحكم بناء الإنسان والمجتمع والحضارة.

وقد بدأ هذا المشروع من سورة الفاتحة؛ لأنها تمثل المدخل الكلي للقرآن، وفيها تأسست الرؤية المرجعية التي تدور حول التوحيد، والاستخلاف، والهداية، وطلب الصراط المستقيم. ثم انتقل إلى سورة البقرة التي كشفت عن تأسيس الأمة الاستخلافية، وبناء الإنسان الحامل للرسالة، ووضع القواعد الأولى للعمران. ثم جاءت سورة آل عمران لتؤسس لسنن الثبات والتدافع، وتربية الجماعة المؤمنة على الصبر والمرابطة، قبل أن تفتح سورة الأعراف آفاق السنن التاريخية من خلال استقراء حركة الأمم، وتبين أن التاريخ ليس أحداثًا متفرقة، وإنما مجال لجريان سنن الله في العمران البشري.

ثم انتقل التحليل إلى سورة الأنفال بوصفها سورة بناء القوة الراشدة، حيث ظهر أن القوة في القرآن ليست غاية مستقلة، وإنما وظيفة لحماية الرسالة وصيانة العمران. وأعقبتها سورة التوبة التي كشفت عن سنن صيانة المجتمع وتجديده، ومعالجة الانحرافات الداخلية، وبناء التكامل

الوظيفي، واستدامة المشروع الحضاري من خلال العلم، والقيادة الرحيمة، والتوبة، وتجديد المرجعية.

أما سورة يونس فقد مثلت منعطفًا معرفيًا مهمًا، إذ أسست لما أمكن تسميته نظرية المعرفة العمرانية القرآنية؛ حيث تناولت مصادر المعرفة، وعوائقها، ومنهج التحقق منها، وتحويلها إلى استجابة حضارية، ثم ختمت ببيان الثبات المنهجي والاستدامة المعرفية، لتؤكد أن المعرفة في القرآن لا تكتمل إلا إذا تحولت إلى إصلاح وعمران.

ومن خلال هذا الاستقراء المتتابع أمكن استخلاص عدد من النتائج المنهجية التي تعد – في نظرنا – من أهم اللبنات المؤسسة لهذا المشروع، ومن أبرزها:

- أن ترتيب السور يكشف عن تدرج واضح في بناء المشروع القرآني، يبدأ بالرؤية الكلية، ثم بناء الإنسان، فبناء الأمة، فبناء القوة، ثم صيانة المجتمع، ثم بناء العقل الرسالي، في نسق متكامل لا يظهر عند القراءة التجزيئية.
- أن القرآن يقدم نظامًا معرفيًا متكاملاً يجمع بين الوحي، والكون، والتاريخ، والإنسان، ويجعل الوحي المرجعية الحاكمة التي تنتظم في ضوئها بقية مصادر المعرفة.
- أن السنن الإلهية تمثل الإطار الحاكم لفهم حركة المجتمعات والحضارات، وأن استقراء هذه السنن هو المدخل المنهجي لبناء علم الاجتماع العمراني الاستخلافي السنني.
- أن المفاهيم القرآنية ليست مفردات مستقلة، وإنما تشكل شبكات مفهومية مترابطة، لا يكتمل فهم أي مفهوم منها إلا في ضوء الرؤية الكلية للقرآن.
- أن غاية المعرفة في القرآن ليست تراكم المعلومات، وإنما بناء الإنسان، وإقامة العدل، وتحقيق الاستخلاف، وإصلاح العمران.

كما أتاح هذا الجزء صياغة عدد من المفاهيم التأسيسية التي سيستمر اختبارها واستكمال بنائها في بقية السور، مثل: الرؤية الكلية، والنسق العمراني، واليقين المعرفي، والتكامل الاستدلالي، والفاعلية المعرفية، والاستدامة المنهجية، والتخصص الاستخلافي، والتماسك المنهجي، والثبات المعرفي، والاستجابة العمرانية، وفقه السنن، والرشد السنني، وغيرها من المفاهيم التي لم تُطرح بوصفها نتائج نهائية، وإنما باعتبارها فرضيات استقرائية تزداد رسوخًا أو تُراجع في ضوء استقراء القرآن الكريم كله.

ولذلك فإن هذا المجلد لا يدّعي اكتمال البناء، وإنما يمثل المرحلة التأسيسية للمشروع؛ إذ إن النسق العلمي لا يكتمل إلا باستقراء القرآن الكريم استقراءً شاملاً، وربط نتائجه بعضها ببعض، ثم إعادة تقويمها في ضوء الرؤية الكلية التي يتكشف بناؤها تدريجيًا مع تقدم التحليل.

ولعل من أبرز ما كشف عنه هذا الجزء أن القرآن الكريم لا يقدم للإنسان كتاب هداية فردية فحسب، بل يقدم مشروعًا حضاريًا متكاملاً، تتداخل فيه العقيدة، والمعرفة، والقيم، والسنن، والمؤسسات، والعمران، في بناء واحد، غايته تحقيق الاستخلاف الراشد وإقامة الشهادة على الناس.

ولهذا فإن ما ورد في هذا المجلد ينبغي أن يُقرأ بوصفه الأساس النظري والمنهجي الذي ستنبني عليه بقية أجزاء المشروع، لا بوصفه غاية مستقلة عنه.

تمهيد للمجلد الثاني

إذا كان هذا المجلد قد انشغل ببناء الرؤية الكلية، وتأسيس النسق المعرفي والعمراني، والكشف عن القوانين الحاكمة لحركة الاستخلاف، فإن المجلد الثاني سينتقل إلى مرحلة جديدة من المشروع، هي مرحلة بناء الإنسان الرسالي واستدامة الإصلاح عبر التاريخ.

وسيبدأ ذلك من سورة هود، التي تمثل – في ضوء هذا المنهج – نقطة التحول من تأسيس المعرفة إلى تجسيدها في الشخصية الرسالية؛ حيث تتجلى الاستقامة بوصفها القانون الحاكم لحركة الإصلاح، وتعرض قصص الأنبياء باعتبارها نماذج تطبيقية لسنن العمران، لا مجرد سرد تاريخي.

ومن هناك سيواصل المشروع استقراء السور اللاحقة، للكشف عن تطور النسق القرآني في بناء الإنسان، والمجتمع، والدولة، والحضارة، حتى يكتمل – بإذن الله – رسم النموذج العمراني الاستخلافي السنني الذي يقدمه القرآن الكريم للبشرية.

وبذلك ينتهي المجلد الأول، على أن يبدأ المجلد الثاني بسورة هود، باعتبارها فاتحة مرحلة جديدة من المشروع؛ مرحلة بناء الإنسان المستقيم، وإرساء قواعد الإصلاح الحضاري، واستقراء السنن الإلهية في مسيرة الأنبياء والأمم، وصولاً إلى استكمال البناء الكلي للنظرية العمرانية الاستخلافية المستنبطة من القرآن الكريم